رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

النادي الأدبي
بالرياض

التجربة الشعرية
عند ابن المقرب

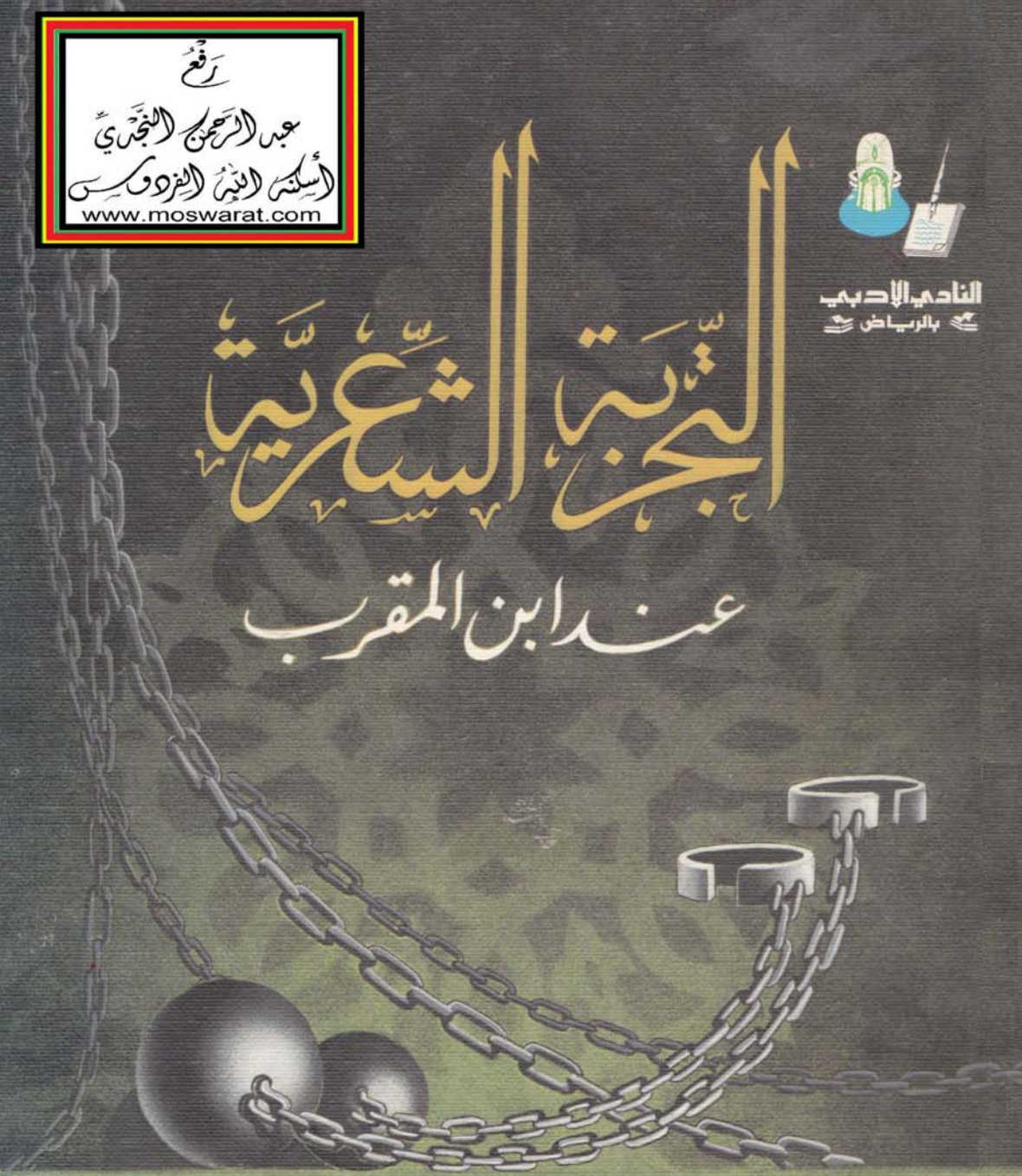

دكتور عبده عبد العزيز قلقيلة

١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

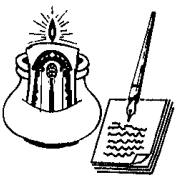

النادي الأدبي
بالرياض

التجربة الشعرية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التجربة الشعرية

عند ابن المقرب

مضمونها وبناؤها الفني

دكتور
عبده عبد العزيز قلقيله
أستاذ النقد الأدبي والبلاغة
كلية الآداب - جامعة الملك سعود
الرياض

- النادي الأدبي بالرياض -
الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الناشـــر
النادي الأدبي بالرياض

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

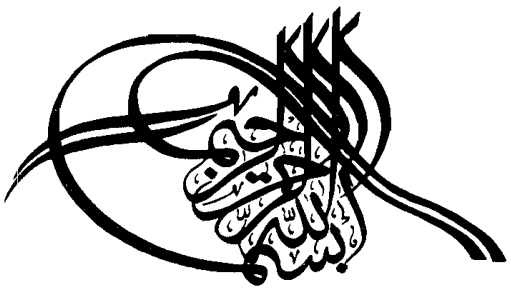

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخـرجاً ويـرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتـوكل عـلى الله فهو حسبـه إن الله بالـغ أمره قـد جعـل الله لكـل شيء قدراً ﴾ . .

صدق الله العظيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديم

بقلم
عبد الله بن إدريس
رئيس النادي الأدبي بالرياض

الشعر هو التجربة الحيّة المعبرة عن عالم الشعور، بمعنى أن القصيدة هي جسد التجربة الشعرية، أما الباعث على القصيدة أي مضمونها ومحتواها، والذي نعبر عنه بعالم الشعور ـ فهو روحها الذي يصب فيها مأ[illegible]

إذن فالتجربة الشعورية هي الأقوى والأهم وهي المهيمنة على التجربة الشعرية التي لا تقوى ـ مهما كانت عليه من المتانة والأصالة وجودة التصوير وسلامة التعبير ـ على احتواء أمْدَاءِ الشعور واستخراجه من أعماق الشاعر بالقدر الذي هو عليه داخل النفس.

إن الشعور عالم عميق وخفي عن إدراك الناس كنهه وتشعباته، إنك ترى كل إنسان ظاهرياً، وقد تعرف الكثير عن هذا الإنسان وتحيط بكثير من ظواهره، لكنك عاجز عن الإحاطة بشعوره الذي يلوب ويحتدم داخل نفسه.

والشاعر المرهف الإحساس وذو الأداة الشعرية الطيّعة هو الذي بمستطاعه إفراغ شحنة الشعور على تجربته الشعرية بأكبر قدر ممكن من الاستجابات والتداعيات الرؤيوية الواضحة المعالم.. ولكنه مع ذلك عاجز أن يجعل من تجربته الشعريّة أي جسد قصيدته ـ شيئاً معادلاً أو

مكافئاً لما يستبطن من خلجات واعتمالات واحتدامات داخلية نُسَمِّيها الشعور أو الأحاسيس.

والشعر هو ـ على كل حال ـ أحد المنافذ النفسية التي يستطيع من خلالها الشاعر أن يعبر عن ذاته وهمومه وعن ذوات وهموم الآخرين وأفراحهم كذلك ـ وعن رؤيته للكون والحياة.

وإذا كان لكل شاعر تجربته الشعرية والشعورية معاً على نحو ما ذكرنا آنفاً ـ فإن هذا الكتاب الذي بين أيدينا واسمه (التجربة الشعريّة عند ابن المقرب. مضمونها وبناؤها الفني) والذي يعرض فيه مؤلفه الدكتور عبده عبد العزيز قلقيله الأستاذ في كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض ـ عرضاً نقدياً لتجربة ابن المقرب الشعريّة من ناحيتي المضمون والبناء الفني ـ يعتبر من الدراسات الجيّدة التي تناولت، بموضوعية، حياة الشاعر ابن المقرب وأثرها على شعره وأثر حياة المجتمعات التي عايشها في زمانه فأثرت فيه كما أثر فيها.

وبعد ،،،

فيسعد النادي الأدبي بالرياض أن يقوم بنشر هذا الكتاب خدمة للقارىء وللتراث العربي الأصيل، وسيكون هذا الكتاب والكتب التي سبقته تحقيقاً أو دراسة لشعر ابن المقرب عوناً كبيراً ومصدراً ثراً للباحث والدارس. إن شاء الله تعالى.

عبد الله بن عبد العزيز بن ادريس

الرياض ١/٣/١٤٠٧ هـ

الإهداء

إلى الحفيدات الحبيبات

سلمى - نيرة - نهلة - نهى .

عبد قليل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدمة

نقول : التجربة الشعورية.
ونقول التجربة الشعرية.

التعبيران صادقان، ولكنهما مختلفان، فالتجربة الشعورية نسبة إلى الشعور، والتجربة الشعرية نسبة إلى الشعر، تبدأ التجربة شعورية ثم تنتهي ـ بعمل الشاعر ـ إلى تجربة شعرية، ولكي نعرف التجربة الشعرية على حقيقتها لابدَّ أن نعرف صاحبها وهو الشاعر، فالشعر ـ بعد الشاعر ـ هو الموطن الثاني للشعور.

وتقتضينا صحة الدراسة المنهجية أن نبدأ مع التجربة الشعرية من حيث بدأت وهو الشاعر، وأن ننتهي معها إلى حيث انتهت وهو الشعر، ومن هنا يتحول عنوان بحثنا إلى :

(ابن المقرب وتجربته الشعرية)

وهذا التحول في عنوان البحث يستتبع تحولاً في خطته ومنهجه، والتحول المشار إليه يتمثل في أننا سنبدأ بابن المقرب سيرة حياة، نترسم خطاه وهو يجري وراء طموحاته ويصف معاناته، ثم نحدد ملامحه حتى لا نخطئه على أية هيئة وفي أية بقعة، وبعد ذلك ـ وليس قبله ـ تأتي دراسة تجربته الشعرية.

ومع أننا تحولنا ببحثنا إلى (ابن المقرب وتجربته الشعرية) وبدأناه ـ لهذا ـ بفصل عن ابن المقرب، فقد آثرنا أن نحتفظ له باسمه الأول وهو (التجربة الشعرية عند ابن المقرب : مضمونها وبناؤها الفني)، لنُرِىَ منذ الوهلة الأولى أن هذه التجربة إنما هي العمود الفقري لهذا البحث، وأن التعريف بابن المقرب لا يزيد على كونه وسيلة مؤدية إلى هذا الغرض وعاملاً مساعداً على تحقيقه.

والهيكل العام للدراسة يتكون من :ـ

فصل أول نعرف فيه بابن المقرب.

ومن فصل ثان نكشف به عن تجربته الشعرية.

ومن فصل ثالث نخصصه لمضمونها.

ومن فصل رابع نتعرف فيه ومن خلاله على البناء الفني لها.

ومن خاتمة نلم فيها شعت ماقلناه قبلها . . والله الموفق . .

عبده عبد العزيز قلقيله

الرياض

١٤٠٧/١/١ هـ

١٩٨٦/٩/٥ م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصـــل الأول

ابـن المقــرب : سيـــرة حيـــاة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابـــن المقـــــرب

ذكر كمال الدين أبو البركات المبارك بن أبي بكر بن حمدان بن أحمد ابن علوان المعروف بابن الشعار الموصلي[1] (٥٩٥ ـ ٦٥٤ هـ) أنه التقى بابن المقرب في بغداد سنة ٦٢٣ هـ، وأن ابن المقرب أملى عليه نسبه من حفظه، وهذا هو نص كلام ابن الشعار عنه قال : « على بن المقرب بن المنصور بن المقرب بن الحسن بن غرير بن ضبار بن عبد الله بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد أبو عبد الله الربعي البحراني العيوني. هكذا أملى علىَّ نسبه من حفظه، وهو من موضع بالبحرين يقال له العيون، أخبرني أنه ولد به في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وتوفى به أواخر المحرم سنة ثلاثين وستمائة، وكان شاعراً مجوداً منتجعاً كثير المدح قليل الهجاء جيد القول متينه، قوى اللفظ رصينه، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصرنا المعروفين، أقر له بالحذق أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم، ومذهبه في الشعر مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني، رحل إلى الملوك وامتدحهم فأحسن، ومدح الخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم : الناصر لدين الله، والظاهر، والمستنصر بالله رحمه الله. شاهدته بمدينة السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأنشدني الكثير من قوله، ومعظم شعره يحفظه ويورده، ولم يتوقف في إيراده، ولا يجد بذلك سآمة ولا ضجرا، يقول من قصيدة يمدح بها مولانا الملك بدر الدنيا

---

(١) مجلة كلية الآداب جامعة الرياض المجلد السادس سنة ١٩٧٩ مقال د. سامي الصقار.

والـدين عضد الإسـلام والمسلمين تـاج الملوك والسلاطـين ملك أمـراء الشرق والغرب أبا الفضائل غرس أمير المؤمنين :

حـطوا الرحـال فقـد أودى بهـا الـرحـل ... مـاكُـلفـت سـيرهـا خيـل ولا إبـل
هـذا هـو الملك بـدر الـدين خـيرفتي ... بـه تـعـلق لـلراجي الـغـنى أمـل
هـذا الـذي لـو يبـاري فيض راحتـه ... فيض البحـار لمـا أضحى بهـا بـلل
هـذا الـذي بـالنـدى والبـأس يعـرفـه ... وبـالـتقى كـل من يخـفى وينـتعـل

وهي قصيـدة طويلة، ولم أجـد منها سـوى ماذكـرته، فـإن عـثرت بباقيها ألحقته في مكانـه إن شاء الله تعـالى. وأنشدني لنفسـه في التاريـخ المتقدم ذكره :

إلام أورد عـتبـا غـير مـسـتـمـع ... وأنفق العمـر بين اليـأس والـطمـع
وكـم أحيـل عـلى الأيـام مـفـتريـاً ... مـاتحدث البـدع النـوكى من البـدع
آليـت أنـفـك من حـل ومـرتحـل ... أو أن تـقـول لي الأيـام : خـذ ودع

وقولـــه :-

وقـائـلة والـعـيس تحـدج لـلنـوى ... ودمع الجوى في الخد قـد جال جائله
عـليـك بـصـبر واحـتسـاب فـإنمـا ... يفـوت المنى من راح والصـبر خـاذلـه
ولا تـرم بـالأهـوال نـفسـاً عـزيـزة ... فـذا الـدهـر قـد أودى وقـامت زلازلـه
فـكـم كـربـة في غـربـة ومـنـيـة ... بـأمنيـة والـرزق ذو العـرش كـافله
فقلت لهـا والـعـين شكـرى بـزفـرة ... أرددهـا والـصـدر جـم بـلابـله
أبـا لموت مثـلى تـرُهبـين وبـالنـوى ... وعـاجـله عـنـدى سـواء وآجـله ؟ !
فـللمـوت أحـلى من حيـاة بـبـلدة ... يُـرِى الحرَّ فيهـا الغبنَ من لا يشاكله[٢].

(٢) قلائد الجمان في شعراء الزمان، مخطوط رقم ٣٣٩ (تاريخ) في معهد المخـطوطات بجـامعة الدول العربية بالقاهرة.

وقد قدمنا هذه الرواية على غيرها، واستهللنا بها مفضلين إياها على روايات أخرى كثيرة[٣] لأن ابن المقرب أملاها بنفسه من حفظه على ابن الشعار، وهذا يعني أن ابن الشعار قد كتبها عنه ولم يكتف بسماعها منه، وإذا كان قد كتبها عنه ولم يكتف بسماعها منه فيبعد أن يكون قد نسي بعض ماسمع، أو قدم شيئاً على شيء مما سمع.

وماذكره ابن الشعار على لسان ابن المقرب لا يختلف كثيراً عما ذكره ياقوت المتوفي سنة ٦٢٧ هـ قال :ـ

« وبالبحرين موضع يقال له العيون يُنسب إليه شاعر قدم الموصل وأنابها واسمه علي بن المقرب بن الحسن بن غرير بن ضبار بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم العيوني البحراني. لقيته بالموصل سنة ٦١٧ هـ وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان ونفق فأرفدوه وأكرموه.

ومن شعره من قصيدة في بدر الدين صاحب الموصل :

حطوا الرحال فقد أودت بها الرحل ... ماكُلفت سيرها خيل ولا إبل

---

(٣) انظرها في مقدمة ديوانه تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ، ١٩٦٣ م وهذه الطبعة هي المصدر الأول لهذه الدراسة. وفي (ابن مقرب : حياته وشعره) تأليف عمران محمد العمران ص ١٣ ـ ١٨ مطابع الرياض ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨ م.
وفي (مع الشعراء مختارات ومطالعات) تأليف حمد الجاسر طبعة دار اليمامة ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م ص ٢٣١ ـ ٢٣٤.
وفي (علي بن المقرب العيوني : حياته وشعره) رسالة دكتوراه للدكتور علي الخضيري كلية اللغة العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ هـ، ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ م ص ٥١ ومابعدها.
وفي (شعر علي بن المقرب العيوني) لأحمد موسى عيسى الخطيب رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة القاهرة ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م ص ٥٤ ـ ٦٤.

بلغتم الغـايـة القصـوى فحسبكم هـذا الـذي بـعـلاه يضُرب المـثـل

وليست بالطايل عندي[٤].

وابن الشعار وياقوت يلتقيان في روايتيهما مع مـارواه محمد بن عبـد الغني المشهـور بابن نقـطة البغدادي الحنبـلي ولد سنـة ٥٧٩ وتوفي سنـة ٦٢٩هـ، وهي سنة وفاة ابن المقرب في بعض الأقوال قال في كتابه الذي استدرك به على ابن ماكولا تحت مادة (ع ى ن) :-

« أبو الحسن على بن مقرب بن منصور بن مقرب بن غرير البحراني شاعر مجيد مليح الشعر قدم علينا بغداد فأنشدنا قصائد من شعره »[٥].

وتلتقى روايات هؤلاء الثلاثة في جوهرها مع رواية الحافظ المنذري زكي الـدين عبد العـظيم (٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ)، قال وهـو يسرد وفيـات سنة ٦٢٩ هـ : « وفي هذه السنة أيضاً توفي الأديب الفاضل أبو عبد الله ويُقـال أبو الحسن عـلى بن المقرب بن منصـور بن المقرب بن الحسن بن غـريـر بن ضبـار بن عبـدالله بن حسن بن إبـراهيم الـربيعي العيـوني البحراني الأحسائي الشاعر بالبحرين، ومـولده في سنـة اثنتين وسبعـين وخمسمائة بـالأحساء من بـلاد البحرين، وقيـل : إنه تـوفي في رجب من هذه السنة، قدم بغداد وحدث بها بشيء من شعره، كتب عنه غير واحد من الفضـلاء، ودخل المـوصل أيضـاً ومدح ملكهـا، وأقبل عليـه أهـل البلد، وكـان شـاعـراً مجيـداً مليح الشعـر، وقيـل : إنـه من بكـر بن

---

(٤) معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٥٩ طبعة مصر سنة ١٩٠٦.

(٥) المستدرك ورقة ١٢٩ مخطوطة دار الكتب المصرية.

وائل »[٦].

⁂

ورواية خامسة لمحب الدين أبي عبد الله بن النجار البغدادي المؤرخ المحدث، ذكر ابن المقرب في (التاريخ المجدد لمدينة السلام) فقال : « على بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن غرير بن ضبار بن عبد الله بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد. أبو عبد الله الربعي البحراني العيوني من أهل العيون. أرض بالبحرين، قدم علينا بغداد، وذكر لنا أنه من ربيعة الفرس، وأقام عندنا سنة عشر وستمائة، وسنة أربع عشرة ».

⁂

وأخيراً رواية سادسة لجمال الدين محمد بن سعيد الواسطى المعروف بابن الدبيثي قال : « على بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز الربعي، أبو عبد الله من أهل البحرين شاعر قدم بغداد في سنة ثلاث عشرة وستمائة ».

والروايتان الأخيرتان مما ضمنه الدكتور مصطفى جواد مقاله الذي نشره في مجلة المكتبة بعنوان (ابن المقرب العيوني)[٧].

⁂

وإنما اكتفينا في التعريف بابن المقرب بروايات ابن الشعار وياقوت وابن نقطة والمنذري وابن النجار وابن الدبيثي، لأنهم معاصرون له، ومصدقون أكثر من غيرهم فيما حدثوا به منه أو عنه.

⁂

(٦) التكملة لوفيات النقلة ٦/٤٤ مكتبة عيسى الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٩٦ هـ.
(٧) العدد ٤١ السنة الخامسة ١٩٦٤ بغداد.

وإذا كانوا قد ترددوا وهم يحددون مسقط رأسه بين العيون والأحساء، فإننا نقرر أن هذا التردد لا يعني الاختلاف على مكان مولده، فمولده في الأحساء يَصْدقُ بمولده في العيون، لأن العيون من سواد الأحساء، وعلى وجه التحديد هي طرف الأحساء الشمالي.

⁂

أما وفاته، فكما اختلفوا في زمانها بين رجب سنة ٦٢٩ والمحرم سنة ٦٣٠ أو سنة ٦٣١، اختلفوا في مكانها بين العيون و (طيوى) التي يُقال : إنه سماها لما نزل بها (طيبي) وهي قرية نائية على ساحل بحر عمان في طريق الذاهب إلى الهند[٨].

⁂

ولابن المقرب لقب وكنية.

لقبه صاحب مقدمة الديوان طبعة الهند بجمال الدين، وكناه بأبي عبد الله.

وفي نسخة ديوان ابن المقرب بمكتبة برلين كنيته (أبو عبد الله) دون لقب.

وجاء في (مخطوطات الموصل) للدكتور داود الحلبي مانصه :

« ابن مقرب العبدلي الأمير جمال الدين أبو منصور على بن عبد الله بن المقرب ».

ولم يلقبه ابن الشعار في (قلائد الجمان) وقد كناه بأبي عبد الله كما لم يلقبه ابن ماكولا في كتابه (الإكمال) لكنه كناه بأبي الحسن. وكذلك فعل ابن نقطة في (المستدرك).

---

(٨) ابن مقرب حياته وشعره لعمران محمد العمران ص ٢٣ ـ ٢٤.

وممن لم يلقبه ابن النجار وابن الدبيثي . لكنهما كنياه بأبي عبد الله .

أما الحافظ المنذري في كتابه (التكملة لوفيات النقلة) فقد اشترك مع ابن الشعار وابن ماكولا وابن نقطة وابن النجار وابن الدبيثي في عدم تلقيبه، لكنه تردد في تكنيته بين (أبو عبد الله) و (أبو الحسن) .

وانفرد كمال الدين ابن الفوطى البغدادي المتوفي سنة ٧٢٣ هـ في كتابه (تلخيص مجمع الآداب) بتلقيبه مرة بـ (كمال الدين) ومرة بـ (موفق الدين) وبتكنيته بأبى القاسم .

وإذا كان قد انفرد بهذين اللقبين وبهذه الكنية، فإنه قد اتفق مع ابن ماكولا وابن نقطة والمنذري في تكنيته بأبى الحسن ومما لم نذكره من ألقابه (مهذب الدين) و (نور الدين) .

أما الأول فقد انفرد به الدكتور مصطفى جواد في العدد ٤١ من مجلة المكتبة ولم يوثقه .

وأما الثاني فقد انفردت به مخطوطة مكتبة الامبرزيانا بميلانو[٩] .

والعادة والعرف يسمحان بأن يكون للإنسان أكثر من كنية، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقب، إنما هو لقب واحد في الأعم الأغلب .

ومع أن معظم المؤرخين موزعون في كنيته على (أبو الحسن) و (أبو عبد الله) بالتساوى تقريباً فإننا نرجح أن كنيته التي اشتهر بها إنما هي (أبو الحسن) من حيث أن اسمه (على)، ومع هذا فليس مايمنع من أن يكون قد تَكَنىَّ أيضاً بأبى عبد الله، ربما لأن ابنه الأكبر كان اسمه (عبد الله)، ويقوى ذلك رواية ابن الشعار .

أما (أبو القاسم) فقد انفرد بها ابن الفوطي، كما انفردت

---

(٩) انظر شعر على بن المقرب العيوني لأحمد الخطيب ص ٦٢ .

(مخطوطات الموصل) بأبي منصور، ومخطوطة ميلانو بنور الدين ومصطفى جواد بمهذب الدين.

فابن المقرب بناء على ماسبق هو :

جمال الدين أبو الحسن أو أبو عبد الله على بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن غرير بن ضبار بن عبد الله بن على بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد الربعي البحراني العيوني الأحسائي.

الربعي نسبة إلى قبيلة ربيعة.

والبحراني نسبة إلى دولة البحرين.

والعيوني نسبة إلى قرية العيون.

والأحسائي نسبة إلى مدينة الأحساء عاصمة الدولة العيونية وحدها أو هي و (القطيف) و (أوال) على حسب التوحد والانقسام في صفوف الحكام العيونيين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بيـــن ابـــن المقـــرب وأســـــرته

ينتمي ابن المقـرب إلى الأسرة العيونيـة التي حكمت البحـرين من سنـة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ هـ، وقـد نسبت إلى بيئتهـا التي كـانت تعيش فيها وهي قرية العيون التي تبعد خمسة عشر كيلو متراً عن مدينـة الهفوف الحالية.

والعيونيون يضربون بجذورهم إلى عبد القيس فربيعة فعدنـان أي أنهم من العرب المستعربة.

مؤسس دولتهم هـو عبـد الله بن عـلى بن عبـد الله بن محمـد بن إبراهيم بن محمد العيوني، وعبد الله هذا هو الجد السادس للشـاعر ابن المقرب.

ماكاد مدُّ القرامـطة يتوقف حتى نهض لهم ثـلاثة نفـر من البحرين هم : عبـد الله بن على في الأحسـاء، ويحيى بن العيـاش في القـطيف، وأبو البهلول محمد بن يـوسف الزجـاج في جزيـرة أوال، وقد نجـح كل منهم فيما نهض به وحكم الإقليم الـذي نبع منـه، ثم حدث أن سـولت لابن العيـاش نفسـه انـتزاع أوال من أبي البهلول، فعجـز عن ذلـك، ومات، فخلفه ابنه زكريـا الذي نجـح فيما فشـل فيه أبـوه، وبهذا صـار حـاكماً للقـطيف وأوال، وأغراه ذلـك بأخـذ الأحسـاء، والتقى جيشـه بجيش صاحبها عبد الله فانهزم جيش ابن العياش في المعركة الأولى، ثم انهزم وقتل ابن العياش نفسه في المعركة الثانية، وخلا الجو بهذا لعبد الله في الأحساء والقطيف وأوال، وقد اعتبر لهذا مؤسس الدولـة العيونيـة في

البحرين بمفهومها القديم الواسع[1].

وليس بمفهومها الحديث الضيق، ذلك أن كلمة البحرين لا تطلق الآن إلا على عدد قليل من الجزر في مقدمتها وعلى رأسها جزيرة أوال.

مات عبد الله حوالي سنة ٥٠٠ هـ وخلف وراءه ثلاثة أبناءهم الفضل وعلى وضبار.

والفرعان العيونيان اللذان تنازعا الحكم بعد موت مؤسس الدولة عبد الله هما : الفضل وأولاده وأحفاده، وعليٌّ وأولاده وأحفاده.

ممن حكم من الفرع الأول.

(١) الفضل بن عبد الله.

(٢) أبو سنان محمد بن الفضل بن عبد الله.

---

(١) كانت البحرين قديماً تشمل مايعرف الآن بقطر، والبحرين، والكويت بما في ذلك الجزر المقابلة لها، والأحساء أي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.
وإنما سميت البحرين بهذا الاسم من أجل نهريها : نهر محلم ونهر عين الجريب، يقول علماء اللغة : « كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر » أو لوقوعها على شاطيء البحرين : بحر عمان وبحر فارس، وقيل : سميت بالبحرين لموضع فيها هو بحيرة قدرها ثلاثة أميال وهي المعروفة الآن بالأصفر في آخر قرى الأحساء من جهة الشرق، وإذا صح ذلك تكون التسمية مجازية من باب إطلاق الجزء على الكل.
وانظر : (جغرافية شبه جزيرة العرب) لعمر رضا كحالة ص ٢٦١ طبعة دمشق سنة ١٩٤٤
(وصفة جزيرة العرب) لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني. مطبعة السعادة في القاهرة سنة ١٩٥٣ بتحقيق محمد بن بليهد النجدي ص ٣٦.
و(ملوك العرب) لأمين الريحاني بيروت سنة ١٩٥١ ص ٢٢٣ و(تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء) لمحمد عبد القادر الانصاري الأحسائي (القسم الأول) طبعة الرياض ١٩٦٠ م ص ٣ و(شعر علي بن المقرب العيوني) لأحمد الخطيب ص ٤٠٧.

(٣) محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

(٤) الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

(٥) أبو منصور علي بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

(٦) محمد بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

(٧) أبو القاسم محمد بن مسعود بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

(٨) الفضل بن أبي القاسم محمد بن مسعود بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

وممن حكم من الفرع الثاني :

(١) أبو منصور علي بن عبد الله .

وقد وصل إلى حكم الأحساء على أشلاء ابن أخيه أبي سنان محمد ابن الفضل، ومع هذا فقد ظل أولاد أبي سنان وأحفاده يحكمون أوال والقطيف، ولماء جاء محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله أعاد الأحساء إلى حكم آل الفضل كما كانت، بل دانت له مع البحرين قبائل نجد الشرقية، وتُشرع طيىء في قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٨٩ هـ فينكل محمد بها تنكيلاً شديداً، وتضع بعض قبائل الشام يدها في يد طيىء محاولين الإغارة على الحجاج فيمزقهم محمد شر ممزق، ولعل ذلك مما جعل الخليفة الناصر لدين الله يعهد إليه بخفارة الحاج من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مقابل مساعدة مادية سخية يدفعها له كل عام، قالوا : كانت ألفا وخمسمائة حمل من

البر، وألفا ومائتي ثوب من عمل مصر كل سنة[٢].

(٢) وبعد أبي منصور علي بن عبد الله حكم ابنه أبو مقدم شكر بن علي بن عبد الله.

(٣) مقدم بن غرير بن الحسن بن أبي مقدم محمد شكر بن علي بن عبد الله.

(٤) الفضل بن أبي ماجد محمد بن منصور بن أبي منصور علي بن عبد الله.

***

ونسأل : أين حظ الابن الثالث لمؤسس الدولة عبد الله بن علي ـ وهو ضبار ـ من الولاية والحكم ؟ فيجيبنا تاريخ أسرة العيونيين بأن حظ ضبار وأولاده وأحفاده من الولاية والحكم كان حظاً خافتاً باهتاً، وبعبارة أصرح وأوضح : لم تكن لهذا الفرع مشاركة في الحكم، لكن يُروى أن الحسين بن غرير بن ضبار وولديه : المبارك والمقرب قد تولوا الإمارة، ويوضح الدكتور علي الخضيري ذلك بقوله : إن مشاركتهم في الحكم ربما كانت مقتصرة على ولاية بلد صغير أو قرية تحت حكم الأمراء العيونيين المعروفين من سلالة الفضل بن عبد الله أو علي بن عبد الله، ولا يستبعد أن يكونوا قد توارثوا إمارة ذلك البلد أو تلك القرية فترة من الزمن[٣].

وهذا يعني أن حكمهم كان جزئياً ومن الباطن لا كلياً ولا مباشراً كما كان الحال في الفرعين الآخرين، ولعل ذلك أن يكون سبباً لطموح ابن المقرب الشاعر وللخوف منه في الوقت نفسه من قبل الفرعين المتنازعين دوماً على الحكم.

---

(٢) تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء (القسم الأول) ص ١٠٤.

(٣) رسالته للدكتوراه ص ٦٢

وإن مما يرشح لهذا الذي أومىء إليه، بل أصرح به وهو أنَّ علي بن المقرب كانت له طموحات سياسية هي التي نفرَّت الفرعين الحاكمين في الأسرة العيونية منه.

أقول : إن مما يرشح لهذا الرأي قصيدته التي يعاتب فيها وبها نفسه ويذكر الخمول، فهو يبدؤها بإعلانه الثورة على وضعه الاجتماعي والسياسي.

خلِّياني من وطاء ووساد لا أرى النوم على شوك القتاد

كأن خليليه وقد استبطناه وخبراه وعرفا سره، كأنهما ـ وقد وقفا على ذلك منه ـ قد طلبا إليه الرضى بما هو فيه، فمجدُ بني عمه مجده، وعزهم عزه، وإنهم ـ لهذا ـ وطاؤه وغطاؤه، فرفض ذلك، وقرر أنه لن يقبل الضيم بعد اليوم، و« شوك القتاد » هنا، إنما هو رمز لهمومه ومتاعبه التي يلاحقه بها أهله وبطانتهم.

وواضح أن الصراع كان على أشده بين واقع الشاعر وطموحه، وقد قاده هذا الصراع إلى أن يعد للأمر عدته، فغايات المنى لا تدرك إلا بمسير أو طعان أو جلاد كما قال، والمسير والطعان والجلاد، ليست شيئاً سوى القوة التي عزم على أن يريش نفسه بها ليصل إلى مبتغاه وغاية مناه وهو الحكم أو المشاركة في الحكم، ها هو ذا يشنع على قومه بإهدارهم له، وبيعهم إياه في سوق الكساد بالثمن البخس، ويتساءل : أغالهم عمى ؟ ! أم خدعهم عدو في ثوب صديق ؟ ! وقد بلغ غاية السخرية بهم وبالموقف كله وهو ينادي على بغاث الطير طالباً منها اهتبال الفرصة، فقد هرب البازى من كلب الجراد، ويطلب من بقر الحرث أن يرتع، فقد لعب الضيون بالأسد الوراد، ويصل به اليأس منتهاه، فيتمنى الموت والسبب دولة الأباش :

غير مخط لو تمنيت الردى دولة الأوباش من سقم الفؤاد

و(دولة الأوباش) هذه دلالة نَصِّيَّةٌ على رأيه في الدولة العيونية، تلك التي أسقمت فؤاده، وعطلت مراده.

فإذا رمت نهوضاً قعدت بي أمور أنا منها في جهاد

و (رمت نهوضاً) يمكن أن تُفسَّر بقلب نظام الحكم في الدولة العيونية والاستيلاء على السلطة بالقوة، ومأأقعده عن ذلك إلا.

قلة المال وكثر في العدا وابن عم رأيه غير السداد

ويبلغ به الضيق غايته فيهتف :

من نصيري من زمان فاسد جعل الأمر إلى أهل الفساد
كم تقاضاني المعالي عزمة يهتف الشادي بها في كل ناد
طال لبثي بين مولى خاذل ومُعادٍ وصديق كالمعادى

ثم يسأل :-

أحذار الموت أبقى هكذا ؟ !

ولا يلبث أن يجيب :

لا ومجرى الماء رزقاً للعباد

وهو يعلن عن باطنه الذي كان ينبغي له أن يخفيه بقوله :

إن ترى شخصي لأمر ساكناً فلعمري إن قلبي في طراد
ربَّ ذي هم تراه مطرقاً وهو في إطراقه حية واد

وإذا كان البيتان السابقان تحذيراً، فإن الأبيات الآتية تهديد ووعيد لكأنه حجاج آخر :

ما انتظاري برءوس أينعت ليس هذا الينع إلا للحصاد
لأقيمن لأبناء الوغى سوق إقدام وطعن وجلاد

إن يكن عز وإلا فردى لست من دون شبيب ومصاد[٤]

نكتفي بهذه الأبيات التي يأتي البيت الأخير منها تصديقاً لرأينا الذي ارتأيناه، وهو أن ابن المقرب كان يطمح إلى الحكم، أو إلى المشاركة فيه تعويضاً لفرع جده ضبار عما لحقه من بوار في سوق الرياسة والسياسة، فـ (شبيب) و(مصاد) من الثوار الكبار على بني أمية، نادي أولهما لنفسه بالخلافة فآزره أخوه (مصاد) ولا عليهما إذا انهزما أمام الجيوش الجرارة للدولة الأموية وبحسبهما أنهما قاما بواجبهما نحو نفسيهما، وحرى بابن المقرب أن يجري في مضمارهما، فهو ليس أقل منهما.

***

ومن الريث في الدراسة، بل من التعقل فيها ألا نستبق إلى نتائج تتخايل لنا وتخدعنا عن أمر الحق في أية قضية سياسية كانت أو أدبية، ثم من الانضباط الذي يجب أن نأخذ أنفسنا به هنا وهو في الوقت نفسه مما يتمشى مع تطور فكر ابن المقرب، ومع موقفيه النفسي والسلوكي من الفرعين الحاكمين في البيت العيوني الكبير.

نقول : من الانضباط في ذلك كله، ومن الإنصاف لابن المقرب نفسه أن نقرر أنه لم يولد ثائراً، بل لم تقترن الثورة في نفسه بنموه الجسمي والعقلي، وعمق وعيه، الأمر في ذلك كله على العكس من ذلك تماماً، فقد كان ابن المقرب راضياً عن نفسه، وعمن حوله ممن يتعاقبون على الإمارة والملك من أبناء عمومته، ومن هنا جاء مدحه لهم، وافتخاره بهم، وجاءت إشادته بأفعالهم القادرة الباهرة، وكثر ذلك في شعره حتى غلب عليه وطبعه بطابعه الذي عرف عنه واشتهر به، وهو

(٤) الديوان ص ١٧٦ ـ ١٨٠، وقد تواردت فيما ذهبت إليه من أن ابن المقرب كان يطمح إلى الحكم أو إلى المشاركة فيه مع محسن العاملي في كتابه (أعيان الشيعة) جـ ٣ ص ٦٥ طبعة سنة ١٩٦٣، ومع الدكتور شوقي ضيف في مقاله بمجلة مجمع اللغة العربية العدد ٣٨ ص ٣٣.

طابع لحمته الإحساس الشديد بالعظمة، وسداه المبالغة المسرفة في تغنيه بمجده ومجد ذويه سواء كانوا من آل الفضل أو من آل عليّ، وتصادف بعد موت عبد الله مؤسس الدولة أن كان الفضل أكبر أبنائه، وبعبارة أخرى أكبر إخوته، فحكم بعد أبيه بتأييد من أخويه عليٍّ وضبار.

ويموت الفضل، فيخلفه ابنه أبو سنان محمد، ويختلف موقف عليٍّ وضبار من أبي سنان عن موقفهما من أخيهما الفضل، فقد رأيا أن دست الحكم سيتوارثه أبناء الفضل وأحفاده، مهدرين حقوقهما وهما ابنا عبد الله مثلما كان الفضل ابنه، وإنما حكم الفضل بعده لهذا السبب وحده، فيثوران على ذلك ويرفضانه، وطبيعي أن يكون عليٌّ أشد ثورة من ضبار، فهو الأحق بالحكم بعد الفضل، هو الذي عليه الدور، والاعتداء قد وقع عليه أولاً، وعلى ضبار بعد ذلك، ويتآمر أبو منصور عليّ بن عبد الله على أبي سنان محمد بن الفضل فيقتله ـ كما ذكرنا آنفاً ـ لكن الفضل كان قد أثبت جدارته وكفاءته، ووضع الأساس المتين لمن يأتي بعده من صلبه، ويأتي ابنه أبو سنان فيرث عنه كفاءته وجدارته، ويزيد عليه قوةً ومنعة، ويمتدحهما ابن المقرب بحسبانهما رجلين من رجالات الأسرة العيونية، وعلمين من أعلامها، يمتدح أبا سنان بما فيه مما يدعو إلى المدح أولاً، وبأنه ابن الفضل ثانياً :

ففي عقر دارى من ملوك بني أبي ... همام إلى الخيرات تجرى مآربه
سل الخيل عنه والمنايا كأنما ... يناهبها أرواحها وتناهبه
سليل عُلاً مازال يُخشى ويُرتجى ... فتُخشى مواضيه وتُرجى مواهبه
إذا صال قالوا : هل له من مصاول ... وإن قال قالوا : هل همام يُخاطبه
وإن يفتخر بالفضل فضل بن عبدل ... فيا !!! بأبي أعراقه ومناسبه
همام حمى البحرين سبعا ومثلها ... سنين وسارت في الفيافي مواكبه[٥]

(٥) الديوان ص ٥٦ ـ ٥٧.

وإن دل البيت الأخير على أن الفضل قد حكم أربعة عشر عاماً فإن القدر لم يمهل ابنه أبا سنان مثل هذه المدة، ولما كان أبو سنان يحكم البحرين كلها متخذاً من القطيف عاصمة لملكه في السنوات الأولى من حكمه، ثم ينتقل إلى أوال ويجعلها دار ملكه، فقد تمكن عمُّه عليٌّ بعد قتله من أن يضع يده على الأحساء ويحكمها، وتبقى القطيف وأوال في يد حفيده محمد بن أبي الحسين أحمد الذي حكم من سنة ٥٨٤ ـ إلى سنة ٦٠٣ هـ، وقد نجح في استرداد الأحساء من أبي مقدم محمد شكر بن علي بن عبد الله الذي كان قد خلف والده على حكمها، وفي عهد محمد بن أبي الحسين أحمد كان ابن المقرب قد كبر وعرف خط سير الحكم في أسرته وصار شاعراً كبيراً فسجل في شعره أمجاد الفضل وبنيه وتوجه بأكثر من مدحة إلى محمد بن أبي الحسين أحمد مضمنا إياها على عادته في مدحه ـ أعماله وأمجاده، لقد قال فيه ست قصائد نجدها في صفحات ٤٧، ٢٠٧، ٣٥٠، ٣٥٩، ٥٨٥، ٦١٨ من الديوان، وقد بلغت عدة أبياتها عشرة وثلثمائه بيت، وهي مدائح سمت بمحمد بن أبي الحسين أحمد ورسّخَتْ ملكه.

من مدحه له في القصيدة الأولى :ـ

فتى لم تزل في كل يوم جياده ... يقسمن أموال العدوِّ المحارب
يشن بها الغارات أروع ماجد ... سريع إلى الجلى بعيد المطالب
فسائل به في الحرب أبناء مالك ... وماحاضر في علمه مثل غائب
غداة أتاهم في سماء عجاجة ... أسنته من تحتها كالكواكب
ولما أتت أهل الشآم يقودها ... إليه الردى قود الجنيب لراكب
أتاهم يجوب البيد بالخيل والقنا ... فتى عبدلى في الوغى غير هائب
هو السيد الضرغام والأسد الذي ... بنى مجده فوق النجوم الثواقب
ترى عنده رسل الملوك مقيمة ... ذهاب رسول عند آخر آيب
ومال أمير المؤمنين بوده ... إليه وسماه زعيم الأعارب

فـلا عـدمت يـومـا ربـيـعـة مثـله لـتـشـيـيـد عـز أو لـبـذل مـواهـب

ومن دعائه له في القصيدة الثانية :ـ

فعش في عـظيم الملك مـالاح كـوكب وأظـلـم لـيـل أو أضـاء نهار
ومن حـولـك الغـر الكـرام ذوو النهى بـنـوك الأولى طـاروا عـلا فـأنـاروا
عـلـيكـم سـلام كـل يـوم ولـيـلة يـروح ويـغـدو مـاأقـام يـعـار
سـلام فتى يـرضى رضـاكم ولا يـرى سـوى مـدحكم مـذ شُـدَّ عنـه إزار[٦]

وتتسم قصائده الباقية بالغلو والمبالغة كقوله في قصيدته السادسة :ـ

مـلك إذا افـتـخـر الـرجـال بـسـيـد فـخـرت بـه الأحيـاءُ مـن عـدنـان
ذو همـة مـن دونها الـقـمـران وعـزيـمـة أمضى مـن الحـدثـان
لـو أن لـلعـضـب المهـنـد عـزمـه لـفـرى الجـماجم وهـو في الأجـفـان
ولـو ان لـلشـمس المـنـيرة بشره تـاهـت فلم تـطلع مـدى الأزمـان
مـتـواضـع في مجـده مـترفـع عـن ضـده غـيـث عـلى الإخـوان
بـرد وظـل لـلصـديـق وجـنـة وعـلى أعـاديـه حمـيـم آن
وإذا نـزلـت بـه أنـالـك مـاحـوت كـفـاه مـن تـبرو مـن عـقـيـان
وإذا احـتـبى وسط الـنـدى رفـعـتـه عـن أن تـشـبـهـه بـنـو شروان
وإذا نـظرت إلى فـصـاحـة نـطقـه ألهـاك عـن قس وعـن سـحـبـان[٧]

ويتململ آل أبي المنصور عليّ من هذا المدح، ولا عجب ففيه تكريس للحكم في آل الفضل، وإبعاد لهم هم عنه، لهذا حقدوا على ابن المقرب وناصبوه العداء، وما إن واتتهم الفرصة فحكموا حتى صادروا أمواله وممتلكاته وأودعوه غياهب السجن موثقاً بالأغلال

(٦) الديوان ص ٢١١، و(يعار) جبل لبنى سليم.
(٧) الديوان ص ٦١٨ ـ ٦٢٢.

الثقيلة. يدل على أن سبب مصادرته وسجنه إنما هو مدحه لآل الفضل قوله في القصيدة التي يعاتب بها الأمير مقدم بن ماجد بن محمد بن الفضل، ويمدحه، والتي مطلعها :

أأسكت عن مولى الورى أم أعاتبه ... وأهمل وعدى عنده أم أطالبه
فيا ابن الملوك الصيد والذروة التي ... لها كاهل المجد المعلى وغار به
أعيذك أن ترضى بنقص لما جدٍ ... طويل عماد البيت محض ضرائبه
جدودك أرباب المعالي جدوده ... وقاضبك المهدى لك العزَّ قاضبه
تروح وتغدو بالثناء عليكم ... بكل بلاد خيله ونجائبه
فكم سار لي في مدحكم من غريبة ... تروق وأغلى الشعر مهراً غرائبه
بلامنة أسد يتموها ولايد ... إليَّ وقول المرء أسواه كاذبه
بلى إنني قاسيت فيكم مصائباً ... تهد القوى إذ أدرك الثأر طالبه
ولولا هواكم ماشقيت ولا غدا ... يصك برجلى القيد من لا أشاغبه
ولا اجتاحت الأعداء مالى ولا انبرى ... يطاولني من ليس تُحصى معائبه
ولا نبحت شخصي كلاب ابن ماجد ... غلاباً ولا بالت عليَّ ثعالبه
فإن تجفني فالبحر عندي كثيرة ... مراكبه والبر عندي ركائبه
ولا تنكرن عتبى عليك فإنه ... جميل وشر الناس من لا تعاتبه
أعاتب من أهوى على قدر وده ... ولاودَّ عندي للذى لا أعاتبه
وأكرم أبناء الملوك سجيةً ... كريم متى عاتبته لان جانبه

***

إلى هذه المرحلة من عمر ابن المقرب لم يكن هناك من سبب لعداوة آل عليٍّ له إلا مدحه لآل الفضل.

وتمضى الأيام بحكام الأسرة العيونية بفرعيها إلى أن تصل بهم إلى

---

(٨) الديوان ص ٥٩ ـ ٦٣.

الحضيض فكراً وعملاً، ويسوء رأى ابن المقرب في الحكام من آل الفضل فينزلهم من عقله ومن قلبه منزلة آل علي، لاسيما بعد أن أخلفوه ماوعدوه به من إنصافه ورد ماله إليه.

هنا وهنا فقط بدأ يرى نفسه خيراً من أمراء الأسرة العيونية سواء كانوا من آل الفضل أو من آل عليّ، وقد رتب على ذلك أنه أولى منهم بالحكم.

ماذا ؟ ! أليس هو كذلك من نسل عبد الله بن عليّ مؤسس الدولة العيونية ؟ ! وأين حق ضبار وفرع ضبار في الحكم ؟ ! أليس علي بن المقرب بفكره وشعره وخلقه أجدر من غيره بأن يلى شئون هذه الدولة ؟ ! بلى. إنه لكذلك، ومن ذا الذي لا ينصف نفسه ؟ ! وقد توالى على حكم البحرين من فرعى الفضل وعلى عدد كبير أكثرهم لا تُرضى سجاياه، ولا تُحمد فعاله، بل لا تحتمل بوائقه، ومن الممكن إن لم يكن من الواجب من وجهة نظره أن تنتظم قائمة الحكام العيونيين اسم الأمير أبى الحسن على بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن غرير بن ضبار بن عبد الله، فيصبح حاكماً للبحرين كلها أو بعضها، أجل. ولم لا ؟ ! وهل يكون هؤلاء الحكام الأقزام أولى منه بذلك، وهاهم أولاء يتناقص ملكهم، ويتُنقض غزلهم فينزلون عن مساحات شاسعة من بلادهم للثائرين عليهم في سبيل الإبقاء على مظهر الملك دون جوهره، وعلى هيئته دون حقيقته.

وينتهي به حديث نفسه إلى الاقتناع بحقه في الحكم، وإلى أنه هو وغيره من أبناء ضبار وأحفاده قد ظلموا، وقد أذن الله للمظلومين بأن يدفعوا ماوقعوا تحته من ظلم.

وإذا كان المتنبي ـ وقد كان ابن سقاء في الكوفة ـ قد تطلع إلى أن يحكم غير مدفوع إلى ذلك إلا بتميزه في الشعر والأدب، فما الظن به وهو

الأمير ذو الحسب والنسب ؟ !

ولا يكتم ابن المقرب تصميمه على أخذ حقه بسيفه، وعلى رفع الظلم عنه وعن بيته، وإنما يصرح بذلك في جرأة منكرة، وفي شجاعة متهورة، قال مخاطباً نفسه على طريقة قطرى بن الفجاءة :

ذريني والملوك بكل أرض ... أكايلها الردى صاعاً بصاع
فما أيمانهم تعلو شمالي ... ولا أبواعهم تعدو ذراعي
دعيني أركب الأهوال إني ... رأيت ركوبها فيه اتداعى
فإن بأرضنا بقراً شباعاً ... ولكن بين آساد جياع
تقار عني الحوادث عن مرادي ... وأرجو أن يذللها قراعى
سأطلب حق أبائي وحقي ... ولو من بين أنياب الأفاع
وإن الموت في طلب ارتفاع ... لدىَّ ولا حياتي في اتضاع
وُثُوبُ الليث فيَّ إذا تبدت ... فريسته وإطراق الشجاع
يُخادعنى عن العليا رجال ... وأين بنو الفواعل من خداعى
أأبقى تابعاً ولدى فضل ... يسوم الناس كلهم اتباعى ؟ !!![9]

تلك كانت روحه، وذلك كان عزمه، لكن المسألة ليست بهذه السهولة، إذ من أين له المال والرجال ؟ !! هاهو ذا يستنهض همم الغيورين من العيونيين دون جدوى وييأس، فتند عنه هذه الصرخة :

يالرجال ألا فتى ذو نجدة ... يحمى بمنصله عن العليا
تالله أقسم لو دعوت بندبتي ... حيا للبى دعوتي وندائي
لكنني ناديت موتى لم تزل ... أشباحهم تمشي مع الأحياء
ألفوا الهوان فلو تناءى عنهم ... لسعوا لبغيته إلى صنعاء[10]

(٩) الديوان ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .
(١٠) الديوان ص ١٦ .

ويدرك الفرعان أن ابن المقرب غير راض عنهما وأنه خطر عليهما فلا يفتح أحدهما قلبه له، ولا يرتاح إلى قربه منه وإن مدحه، يذهب إلى القطيف وإلى أوال حيث آل الفضل، فلا يجد له مكاناً عندهم، ويرجع إلى الأحساء حيث آل عليّ فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولا يجد بدا من الرحيل عن البحرين كلها إلى العراق، فيرحل وهو يد مدم بشعره مصوراً نكبته ومستخلصاً حكمته.

أبى الدهر أن يلقاك إلا محارباً ... فجرد له سيفا من العزم قاضبا
ولا تلقه مستعتبا من ظلامة ... فما الدهر سمّاعاً لمن جاء عاتبا
وجانب بنيه مااستطعت فإنهم ... عقارب ليل لا تزال ضواربا
بلوتهم دهراً طويلاً وغرنى ... تلؤلؤ آل يرجع الطرف كاذبا
وجربتهم حتى إذا ماعرفتهم ... عرفت رزايا جمة ومصائبا
وصاحبت أقواماً ألا ليت أننى ... تبدلت زنجامنهم وصقالبا
ظننتهم ظلا ظليلاً وجنة ... فكانوا سموماً يوم صيف وحاصبا
سعوا في دمي بالجهد حتى كأنني ... من الروم قد أعلمت جيشاً محاربا
ولم يكفهم قيد ثقيل وخشبة ... برجلى في دهماء تنسى المصائبا
وأشياء لو عددتها طال شرحها ... ولم أحصها في محكم النظم حاسبا[11]

ويرتفع صوته بتفكيره، فنسمعه يتحسر على ماآلت إليه الحال في أسرته ودولته ويرى نفسه الفارس المعلم والمنقذ الملهم:

ومما شجاني يالقومى فعبرتي ... لدى كل حين لا يكف انسكابها
تضاغن أملاك أبوها إذا اعتزت ... أبى ونصابي حين أعزى نصابها
أطاعت مقالات الأعادى وغرها ... تملقها في لفظها واختلابها
فأنحت على أرحامها بشفارها ... وأوهن عظم الأقربين اصطلابها
ولو قبلت نصحى وأصغت لدعوتي ... وأنجح فاشى دعوة مستجابها

(١١) الديوان ص ٣٥ - ٣٦.

لـدوايـت كـلما هـا وأبـرأت داءهـا ... فـلم يـتـحـلم بـعـد صـحٍ إهـابـهـا
ولـكـن لأمـر أخـروني وقـدمـوا ... زعـانف لا ينهي العـدو احتسـابـهـا
تصيب ومـاتـدري وتخـطى ومـادرت ... وتغـدو وفي حبـل العـدو احتـطابـهـا
لـذا طمعت فينـا البـلايـا وأصبحت ... تهـر عـليـنـا كـاشراتٍ كـلابـهـا
وشـالـت لـنـا أذنـابـهـا مـقـذحـرة ... وعهـدي بـهـا تسـطو عليهـا ذئـابـهـا
ألا يـالـقـومي مـن ربـيـعـة فـتـكـة ... تغـادر نـوكي القـوم صفـرا وطـابـهـا[١٢]

وكم هو نادم عـلى ماتـورط فيه من مـديح لـلأراذل من آل الفضل ولآل عليٍّ جملة، وهو لهذا يسحب مدحـه لهم ويذمهم، ويـذهب إلى أن ملكهم أوهن من بيت العنكبوت قال :

أرى همـتى لا تقـتضـيني سـوى الـعـلا ... وليس العـلا دون الـنجـوم الـثـواقب
أأبـقـى كـذا لا يـتـقـيني مـشـاغـبي ... ولا لـعـظـيم يـرتجـيني مـصـاحـبي
أدارى مـداراة الأسـير مـعـاشـراً ... مـداراتهم من مـوجعـات المصـائـب
وأنـكـح أبـكـار المـعـاني أراذلا ... أحـق بخصى مـن يـسـار الـكـواعـب
وأكسـو ثياب الحمـد من حق جسمـه ... مـلابس حمى أفكـل بـعـد صـالـب
وإنى لخـير مـنـه نـفـسـاً ووالـداً ... وعـيصـاً إذا عـدت كـرام المنـاسب
وأكـرم أقـوامـاً لـوانى مـدحـتـهـم ... بمـا فـيـهـم لم أبـق عـيبـاً لـعـائـب
لـكف أذاهـم لا اجـتـلابـا لخـيرهـم ... وكيف يـدر الحُـولَ إبـسـاسُ حـالـب
فـيـا عـررا لا يـفـشـأ المـدح شرهـم ... وقـد يفشـأ الـراقـون سُمَّ العـقـارب
متى جـرَّ نفعـاً مـدحكم أو كفى أذى ... وكم نفـع السارين حـدو الـركـائب
فـيـاضيعـة المـدح الـذي سـارفيكم ... عـلى ألسن الـراوين سـير الكـواكب
ألا لـيـتـنى مـن قـبـله كـنـت مـفـحـماً ... ولم يجـر مـن لفـظي بـه خط كـاتـب

---

(١٢) الديوان ص ٤٥ ـ ٤٦ ومقـذحرة : متهيئـة للشر والسباب والقتـال، وصفرت وطـابه : مات.

فقد كان مني مثل ما قال فلتة ... وما اعتضت منه غير عض الرواجب
أغركم دهر خسيس أحلكم ... مراتب ما كانت لكم من مراتب
تظنونها أهرام مصر وإنها ... لأوهى بناءً من بيوت العناكب[13]

***

وإذا كانت البوصلة الشعرية لابن المقرب تتجه بالأبيات السابقة إلى آل أبي المنصور علي بن عبد الله، فإنه في القصيدة التي يرجع فيها باللوم على الأمير فضل بن أبي القاسم محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله، بسبب إخلائه نواحيه، يندم أشد الندم على مدحه السابق له ولغيره، ويقول :

ندمت على مدحي رجالاً وسرني ... بأن ضمنتني قبل ذاك الملاحد
وحق لمثلي أن يموت ندامة ... إذا أُنشدت في الناس تلك القصائد[14]

***

تلك كانت حاله مع قومه : إعجاب شديد بالحكام العيونيين الذين لم يدركهم وفَخْرٌ بهم، ومدح لهم، ثم تقدير وإعجاب لبعض الحكام من آل الفضل وتسجيل لمآثرهم، أما الحكام الذين عاصرهم

---

(١٣) الديوان ص ٦٩ ـ ٧٣، و(يسار الكواعب) : عبد لبنى غدانة أراد مولاته فنهته مرة بعد أخرى، ويقال : إنه ماترك واحدة من بنات سيده إلا روادها عن نفسها فلما أبي أطمعته إحداهن في نفسها وواعدته أن يأتيها ليلاً وكانت قد أعدت له موسى، فلما دخل عليها قالت له : أريد أن أبخرك فأنت منتن الريح، قال : افعلي مابدالك ثم أدخلت تحته مجمرة وقبضت على مذاكيره فبترتها، فلما وجد حَرَّ الحديد قال : صبرا على مجامر الكرام، فذهبت مثلا. و(أفكل) و(صالب) هما الرعدة فحمَّى أفكل وصالب هي الحُمَّى الرعاشة (الملاريا) و(العيض) الأصل، و(الحول) : جمع الحائل وهي الناقة التي لم تلقح سنة أو سنتين أو سنوات و(الإبساس) تلطف الحالب بالناقة لتدر، و(العَرّ) ـ بفتح العين ـ الجرب البينّ و(فثأ الشرّ) : أطفأ ناره وانظر المرجع السابق نفسه.

(١٤) الديوان ص ١٤١.

من آل عليٍّ فكان ينافقهم، وقد عجزت مدائحه فيهم عن كسر الحاجز النفسي الذي قام بينه وبينهم، والمطالبةُ برد حقوقه إليه موجودة في أية مدحةٍ له سواء كانت موجهة إلى حاكم من آل الفضل أو إلى حاكم من آل عليّ.

⁂

والخلاصة أن ابن المقرب منذ وعي وضعه السياسي والاجتماعي بين أمراء البيت العيوني لم يمدحهم عن اقتناع عميق أو غير عميق بأنهم جديرون بشعره فيهم وبمدحه لهم، لا نستثنى من ذلك سوى الأمير محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل، وابنه الفضل.

أما الأمير محمد فقد كان ابن المقرب يكن له الحب ويمدحه من القلب، وقد ردَّ لهذا عليه عطاءه، قائلاً له : « والله ماقلت ماقلت وذكرت ما ذكرت لشيء من الجوائز، ولا زيادة مال، وإنما ذلك مني إذ رأيتك أهلاً لما ذكرت فوضعته في موضعه »[١٥].

ولم يكتف بذلك، بل جعل هذه العبارة عجز بيت ختم به مدحةً له فيه قال :

إليك ابن شقاق الفوارس مدحةً ... تطأطأ لها من حاسديك الكواهل
أتتك كنظم الدر من ذى قرابة ... لإحياء ودٍّ لا لمال يحاول[١٦]

⁂

وأما ابنه الفضل، فقد سفر له لدى الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٠٥ هـ يطلب منه المدد والعون ليتعقب قتلة أبيه، وهذه مشاركة وجدانية ومؤازرة عملية للفضل، وتأمل قوله :

---

(١٥) الديوان ص ٥٨٥.
(١٦) الديوان ص ٣٥٩.

أيا فضل لازالت لنعماك تلتقى ... بمغناك سادات الملا وعباهله
منحتك ودًّا كنت قبل منحته ... أباك ومزنى لم تقشَّع هواطله
ولاقيت من جرائكم مالقيته ... وهل أحد من سائر الناس جاهله ؟[١٧].

وأرانى بما أرتأيته وسجلته لم أبعد كثيراً عما جاء في مقدمة الطبعة الهندية لديوان ابن المقرب[١٨]

وأنتهز هذه الفرصة لأثني على صاحبها بها، قال رحمه الله في هذه المقدمة عن ابن المقرب :

« والذي مدح من أهل بيته فما كان منه في آل فضل بن عبد الله، فهو رغبة منه في تعظيمهم وحب لمدحهم وتقديمهم وإيثار للتنويه بذكرهم، وحرص على جمع شتات فخرهم، وكان قد ترك مدح الأمير الأجل فضل بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الله بن علي، لأمور شانته من أخلاقه وأفعاله، منها مصاحبة من تزرى مصاحبته بأضرابه وأمثاله، وتقديم أهل السفه والمحال، وتأخير ذوي الفضل والأفضال، وماكان من مقاله في آل أبي المنصور علي بن عبد الله بن علي فهو مصانعة منه واستدفاع، وكف لشرهم واستمناع، ولم يكن مادحاً

---

(١٧) الديوان ص ٣٣٢.

(١٨) صدرت الطبعة الهندية وهي طبعة حجرية في صفر سنة ١٣١١ هـ عن مطبعة برسار في بمبى على نفقة الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى، وقد جمع شعرها الشيخ حمد بن خليفة العيوني الأحسائى، وصححها الشيخ محمد بن إبراهيم بن جغيمان وعقب عليها الشيخ عبد الله بن محمد صالح الزواوى المدرس بالمسجد الحرام آنذاك.
وهذه الطبعة بخط رئيس المحررين بالهند في ذلك الوقت (ملاّ محمود بن الشيخ آدم المقدم الكوكيني الشافعي).

مَنْ مِنْ هؤلاء أو من غيرهم كتب مقدمة الديوان ؟ لا ندري.
وانظر (شعر على بن المقرب العيوني) لأحمد الخطيب ص ١٥٥ ومقالا بعنوان (ابن المقرب العيوني شاعر الأحساء) لعدنان قبطان بمجلة الفيصل العدد ٣٣ ربيع الأول ١٤٠٠، فبراير ١٩٨٠، ص ٦٤ - ٦٥.

لهم على إحسان ولا على ثقة من الأمان، والسبب في ذلك أن الأمير الأجل محمد بن علي بن عبد الله لما ملك الأحساء، وهي البلدة التي بها وطنه، وفيها أملاكه وسكنه فاجتاح جميع ماله من طريف وتالد، وحاز الصامت والناطق، إرضاءً للعدو الحاسد ولم يبق له صفراء ولا بيضاء، ولا راعي فيه حق النسب والولاء، وأخذ الجميع بلاحق وسبب، ثم لم يقنعه ماصنع بثرائه، وسلب من نعمته وغنائه، بل ضيق عليه في السجن والأصفاد، وجعل على الأبواب لحفظه الحراس والأرصاد، وبالغ في مكروهه وأذاه، ولم يكن لأمر جنته يداه، وإنما وشى به حساد بيته، حرصاً على إطفاء فضله وصيته، وسعى به آل أبي المنصور بلا دليل فأقام في السجن مدة، وأفرج الله عنه بعد جهد وشدة، ومكث في البلاد على الغاية من انكسار القلب، لما أولاه من الأذى أهل القرب كما قال طرفه :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند[19]

(١٩) المقدمة ص ٥ ـ ٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابـن المقــرب خــارج وطنــه

توطئـــــــة :ـ

في السنة التي ولد فيها ابن المقرب وهي سنة ٥٧٢ هـ كان الخليفة في بغداد هو المستضيء بأمر الله الذي تولى الخلافة سنة ٥٦٦ هـ، وقد مات سنة ٥٧٥ هـ، فتولى بعده ابنه الناصر لدين الله الذي استمرت خلافته أكثر من ست وأربعين سنة، فلم ينل الخلافة العباسية من هو أطول منه مدة، ولما توفي سنة ٦٢٢ هـ جاء بعده ابنه الظاهر بأمر الله، ولم تدم خلافته أكثر من تسعة أو عشرة أشهر، فقد توفي سنة ٦٢٣ هـ وخلفه ابنه المستنصر بالله أبو جعفر منصور، قالوا : « فنشر العدل، وبذل الإنصاف وقدَّر أهل العلم، وبنى المساجد والربط والمدارس والمارستانات وقام بأمر الجهاد، وقصدت التتار بلاده فلقيهم عسكره وهزموا التتار هزيمة عنيفة »، ولما توفي سنة ٦٤٠ هـ تولى بعده ابنه المستعصم بالله، وهو الذي سقطت بغداد في يد التتار على عهده[1].

وإنما وضعنا هذه التوطئة بين يدىْ كلامنا عن ابن المقرب خارج وطنه، لأنه ـ منذ رشد ـ لم يرحل عن وطنه إلا إلى العراق، ويمكن تفسير ذلك بأن العراق كانت من أقرب الأقطار الإسلامية إلى البحرين، وبأن الأمراء العيونيين كانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم.

ومهما يكن السبب في إيثاره العراق على غيرها، فقد اقتصرت

---

(١) ديوان ابن المقرب ص ٩٢، ١٢٠.

تحركاته فيها على بغداد والبصرة وواسط والموصل وإربل، ذلك أنها كانت ملاذ العلماء والأدباء، تتعلق بها آمالهم فيشدون إليها رحالهم، ومن عجب أن العراق لم تكن مرشحة من قِبَل ابن المقرب منتجعاً له، لكنه فكر في اليمن والشام ومكة والمدينة وعمان واليمامة، ويظهر أنه أخفاها سياسة وكياسة على حد قوله « ووطنت نفسي للمداراة ».

قال يخاطب الأمير الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفصل :

أريتك إن أخرتني وجفوتني ... وذا الدهر قد أربى وبان تحامله
وجازت قرى البحرين عيسى وأصبحت ... عمانية واستبهلتها سوا حله
وأصبح في الحيِّ اليمانيِّ رحلُها ... وحفت به أقياله ومقاوله
أو استقبلتْ أرض الحجاز فيممتْ ... بني حسن والفضل بادشوا كله
أو انتجعت آل المهنا ففيهم ... حميٌّ آمن لا يرهب الدهر نازله
أو اعتامت القوم الذين أحلهم ... ذرى كل مجد جعفر وفواضله
فقل لي عماد الدين ماذا أقوله ... وكل امرىء قدامه من يسائله
إذا قيل لى من أين أقبلت وارتمت ... بك العيس أو من كنت قدما تواصله
ومن رهطك الأدنى الذي لك فخره ... ونابه قدر لا يساويه خامله
هناك يكون الصدق نقصاً عليكم ... ولا يتحرى الكذب إلا أراذله[٢]

---

(٢) الديوان ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤، واستبهلتهم سواحله :
تركتهم باهلين أي نزلوها فلا يصل إليهم سلطان ففعلوا ماشاءوا، يعني بهذا خروجه من بينهم.
والقيل والمقول : الملك من ملوك حمير يقول مايشاء فينفذ.
وبنو حسن : هم بنو الحسن بن على بن أبي طالب كانوا ملوك مكة وقتئذ.
وآل المهناهم أيضاً بنو الحسن بن على بن أبي طال وكانوا ملوك المدينة و« القوم الذين أحلهم ذرى كل مجد جعفر وفواضله » هم :
بنو ربيعة الأمراء رهط عبيد بن خادم، ويزيد بن السميط وسعيد بن فضل ومانع بن حذيفة، أمراء عرب الشام وانظر المرجع السابق نفسه.

وقال يخاطب الأمير عماد الدين أبا علي محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل :

لقد كنت أرجو أن أُرى في جنابكم ... ولي من نداكم سابق وحسام
إذا كنت أخشاكم وأخشى عدوكم ... فإن حياتي شقوة وغرام
فإن كان ذنب فاتركوه لما مضى ... وهل هو إلا إذ يُعد كلام
ووالله ماأوضعت فيما يريبكم ... ولا شُدَّ لي ياقوم فيه حزام

والبيتان الأخيران يدلان على أن ابن المقرب قد ثار قولاً لا عملاً، وأنه لم يجد من المتذمرين الساخطين ـ عيونيين كانوا أو غير عيونيين ـ من ينهض بالأمر له أو معه، بل إن بعض من كان معه قد انقلب عليه بدليل قوله :

فليت أخلائى الذين ادخرتهم ... جلاء لهمى لاعليَّ ولاليا
وأعجب مايأتي به الدهر أنني ... أرى القوم ترميني بأيدي رجاليا

لذلك كله ولغيره عدل عن خطته ونكص عن ثورته، هاهو ذا يستعتب آل الفضل، ولهم العتبى حتى يرضوا، لكن ماذا لو لم يرضوا، لا شيء سوى الرحيل الاضطراري أو النفي الاختياري، وهو هذه المرة لن يرحل إلى بعيد وإنما إلى اليمامة أو إلى اليمن، وتملَّ قوله :

فلم يبق إلا أن تُزَمَّ ركائبي ... ويصبح كيد بيننا وسنام
فخير من الأحساء إن دام عتبكم ... أُشَيٌّ ووادي مَنْهَمٍ ونَعَامُ
وماذاك منى باختيار ولارضاً ... ولكن يحل الشيء وهو حرام[٣]

فأُشَيٌّ موضع باليمامة بوادي الوشم، ومَنْهَم أو مَلْهَم أو بَلْهَم : قرية من قرى اليمامة لبني نمير أو لبني يشكر، أما (نعام) فواد باليمامة في أعلى المجازة لبنى هزان، أو ماء لبنى عقيل، وقيل بل موضع باليمن.

---

(٣) الديوان ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢.

ولا عجب في أن يفكر ابن المقرب في الرحيل إلى اليمامة، فمن قبل ذهب إلى قصبتها (حجر القرى) وإلى قرية من قراها (إجلة) لكنه ذهب إليهما، أو ذُهب به إليهما، وأمضى بهما أو أُريد له أن يمضى بهما فترة من شبابه.

عرفنا ذلك من مطلع قصيدته التي مدح بها الأمير عماد الدين محمد بن مسعود بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله، ولحلاوة هذا المطلع، ولأنه يعطي صورة مشرقة لحياة ابن المقرب قبل نكباته وطموحاته نورده كله قال :ـ

بعثتْ تهدد بالنوى وتوعد ... مهلاً فإن اليوم يتبعه غد
لا تحسبي أن الشباب وشرخه ... يبقى ولا أن الجمال يُخلد
عشرو يخلق شطر حسنك كله ... ويُذم ماقد كان منه يُحمد
فتغنمي عصر الشباب فإنه ... ظل يزول وصفو عيش ينفد
وضعي يداً عندي توفك مهجتي ... إن الكريم الحر تملكه اليد
وتيقني أن الشباب لناره ... حد ويطفئها المشيب فتبرد
والبخل بالشيء المحقق تركه ... أسف يدوم وحسرة تتجدد
لله أيام الصبا إذ دارنا ... **حجر القرى ولنا بإجلة معهد**
إذ لمتى تحكى الغداف وإنما ... أشهى الشعور إلى العيون الأسود
والخد من ماء الشباب كأنما ... فيه لأحداق الكواعب مورد
كم ليلة طالت فقصر طولها ... شدو المزاهر والغزال الأغيد
وترنم الأوتار في يد قينة ... غنج يدين لها الغريض ومعبد
أنكرتني للشيب وهو جلالة ... أو كيف ينكر للصقال مهند
إن تنكري شيبي أميمُ فطالما ... كنتُ الأود وغيري المتودد
ولطالما أبصرني فعثرن في ... أذ يالهن القانتات العبد
ولطالما حملت لى العذراء من ... شوق إليَّ فلم يلقها المورد

إن يـدع غـيري سـيـداً لحـطامـه فـالتيس في اللغـة الصحيحـة سيد[٤]

وفيما عدا رحلة ابن المقرب إلى اليمامة في أيام صباه، لم يغادر البحرين إلا إلى العراق كما قلنا، وقد تكررت رحلاته إليه على الوجه الآتي :-

الرحلـــة الأولـــى

قدم جامع ديوان ابن المقرب للقصيدة رقم ٦٥ ص ٤٣٤ بقوله : « وقال أيضاً يمدح الأمير شمس الدين أبا شجاع باتكين، وذلك عند انحداره إلى البصرة من مدينة السلام سنة ٦٠٤ هـ ».

ونفهم من هذا أنه جاء إلى بغداد في أوائل هذه السنة أو في أواخر السنة التي قبلها، لأنه كان قد مدح الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله قبل مقتله سنة ٦٠٢ هـ، ولعل هذه الرحلة كانت على أثر خروجه من السجن كسير القلب مدهوشاً مما جرى له وعليه من آل أبي المنصور علي بن عبد الله، لم يطق أن يعيش تحت حكم سجَّانه وسالب ما له الأمير محمد بن علي بن عبد الله ـ كما جاء في مقدمة الديوان ـ فترك البحرين إلى العراق وهو يصرخ :-

أقـول لـرهط مـن سراة بـني أبي ودمـع المـآقي قـد تـداعت حـوافله
إلام بني الأعـمام نغضي عـلى القـذى ونـكـثر لـيَّـانَ الـعـلا ونـماطـله
هـل الشر إلا مـاتـرون وربمـا تـعـدى فـأنسى عـاجـل الشر آجـله

(٤) الديوان ص ١٦٠ ـ ١٦٢.

ومابعد سلب المال والعزفا علموا ... مقام وزاد المرء لابدَّ آكله
ولا بعد تحكيم العدا في نفوسنا ... وأموالنا شيء من الخير نأمله
أطاعت بنا إخواننا كل كاشح ... خبيث الطوايا يشبه الحق باطله
وجاز عليهم قول من قال : إننا ... عدو مع الإمكان تُخشى غوائله[٥]

ويجد في رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوته وسلوته فيقول :ـ

فإن أرتحل عن دار قومي لنبوة ... ويصبح ربعي فيهم قد تأبدا
فقد رحل المختار عن خير منزل ... إلى يثرب تسرى به العيس مصعدا
وجاور في أبناء قيلة إذ رأى ... سبيل القلى والبغض من قومه بدا
كذا شيم الحر الكريم إذا نبا ... به وطن زمَّ المطايا وأحفدا[٦]

ومهما يكن من أمر رحلته الأولى إلى العراق، فإنه قد تعرف في أثنائها على ممدوح له أفرده بعشر قصائد أكثرها مدح، والباقي غير بعيد عن المدح، فهو بين أن يكون توديعاً للممدوح أو شوقاً إليه، أو استنجاداً به، ذلكم هو أبو المظفر أو أبو شجاع شمس الدين باتكين بن عبد الله الرومى الناصرى، كان واليا من العلماء الشعراء، سلمت إليه البصرة بحربها وخراجها فعمرها وبنى لها سوراً محكماً، توفى في بغداد سنة ٦٤٠ هـ واللقاء الأول بينهما هو ذلك اللقاء الذي تم في هذه الرحلة، وكانت ثمرته.

---

(٥) الديوان ص ٣٣٧، و(لَيَّان العلا) : مطله.
(٦) الديوان ص ١٥٥ وانظر القصيدة كلها من ص ١٤٩ إلى ص ١٥٨.
و (قيلة) : أم الأوس والخزرج يعني الأنصار.
و (زم المطايا) : شد عليها بما يزم به.
و (أحفده) : حمله على الإسراع.

(١) قصيدته التي مطلعها :ـ

سـائـلـك مـن أم الـعـبـيـد خـيـال ودون لـقـاهـا أجـرع وسـيـال

ومن مدحه له فيها :

هـو الشمس نـوراً وارتفـاعـاً وشـارةً كـما قـد تـسـمـىً والمـلوك ذبـال
بـه البصرة الفيحـاء أقبـل سعـدهـا وقـد كـان فـيهـا لـلنحـوس مجـال

ويـظهر أن التـآلف بينهما كـان قد وصـل إلى الحد الـذي جعل ابن المقرب يبرر مدحه له بقوله :

فـدونـك عقـدا صـاغـه الفكـر من فتى يـرى أن مـدحـاً في سـواك خـبـال
ولسـت بمـهـد لـلرجـال مـدائـحى وإن قـل مـال أو تـغـير حـال
ولـكن نُـعـمى حـركـتـنى وصـحبـة وود وهـذا لـلكـرام صـقـال[٧]

كانت القصيدة السابقة أول الغيث، ثم جـاء الطوفـان على شكـل مقطعات وقصائد، وهذا إيماء إليهـا بعد تـرتيبها عـلى حسب ورودها في الديوان.

(٢) في صفحتى ١٥٨، ١٥٩ نجد مقطوعـة عدتهـا تسعة أبيـات، وقد قالها مودعا بها أبا شجاع شمس الدين باتكين عنـد خروجـه (ابن المقرب) من البصرة.

وهي تعويذة أورقية أولا، ودعاء ومدح ثانيـاً وتحديـد لوقت سفـره ثالثاً، ثم تفضيل كاذب لوجه بـاتكين عـلى وجوه أولاده، وللبصرة عـلى البحرين رابعاً، ولطرافة أو لغـرابة هـذه المقطوعـة نورد طـرفاً منهـا هنا قال :

أعيـذ مجـدك بـاسم الـواحـد الأحـد مـمـا يـرقش ذوشـؤم وذونـكـد

(٧) الديوان ص ٤٣٤ ـ ٤٣٩.

أمـا الـفـراق فـتـأتـيـنـا رواحـلـه غـداً ويحـدجن للترحـال بـعـد غـد
والله يـعـلـم أنى لا أسربـه لكن أخـاف شقـاء الأهـل والـولـد
ألا ووجـهـك أشهى من وجـوهـهـم عـنـدى وأنهم الأفـلاذ من كـبـدى
وبـلدة أنـت يـاخـير المـلوك بهـا أحـظى لـدىَّ وبيـت الله مـن بلدى

(٣) أمـا القصيـدة رقم ٢٦ ـ ص ١٨٢ ـ ١٩٠ وعـدتهـا ثـمانـون بيتـاً مطلعها :

طـما بـحـر الهـمـوم بـه فـهادا وعـوضـه من الـغـمض الـسـهـادا

فيبدأ المدح فيها بالبيت الثاني والعشرين هكذا :ـ

ومـاطـلبي سـوى لـقـيـان مـلك يـلوح ضـيـاء غـرتـه اتـقـادا
لأقضى بـعض واجـبـه وأحـظى بـلفظ مـنـه كـالـدر انـتـقـادا
يـؤيـد خـاطـرى ويجيـد فـكـرى وأجـعـله لـمـا أبـنى عـمادا
ومـن ينـزل بـشمس الـديـن يصحب عـلى الـعـلات بـسـامـا جـوادا

وتمضى القصيدة على هذا المنوال حتى يختمها بتقريظ شعره.

(٤) بعد القصيدة ٢٦ تأتي القصيدة ٢٧ وعدتها تسعة وأربعون بيتـاً من ص ١٩١ إلى ص ١٩٦ ، وواضح أنها قيلت في أعقاب ثورة فاشلة على حكم باتكين، فالقصيدة من أولها إلى آخرها تشير إلى ذلك بل تقطع به، وقد بدأها بقوله :

كـره الله مـا أحـب الأعـادى وأبى مـا أراد أهـل الـعـنـاد
قـدروا مـن سـفـاهـهـم أن بـالمـيـ ـن بـلوغ المـنى ونـيـل المـراد
ورجـوا أن تـزول بـعـد ثـبـوت قـدم أنهجـت سـبـيـل الـرشـاد
قـتـلوا كـيـف قـدروا ذاك مـع خـيـ ـر إمـام بـرٍّ إلى خـير هـاد
ليت شعـرى مـاينقمـون عـلى الملـ ـك الـتـقـى الحـر الخـبـير الجـواد
أتـقـاه الله أم عـلمـه الـبـا هـرأم حـسـن حـفـظه لـلوداد

أم بناه لجامع لم يدع لد ـقول معنى في وصف ذات العماد
أم لأن شيد المدارس والرب ـط ودار المضيف للوفاد
وحشاتلكم المدارس بالكت ـب الشريفة الصحيحة الإسناد
أم بنا السور الذي صار مذت ـمَّ قذى في عيون أهل الفساد

ويمضي في تعداد مآثره على البصرة وأهلها إلى آخر القصيدة.

(٥) والخط البياني ينزل مع المقطوعة التي أخذت رقم ٣١ ص ٢١٢ وهى ثمانية أبيات ملحق بها ثلاثة أخرى تحت رقم ٣٢ ص ٢١٣ وقد جاء في تقديم الأبيات الثمانية مايأتي :
«وقال أيضاً وكتب بها إلى شمس الدين باتكين أمير البصرة، وكان قد عارضه شرف الدين المعروف بالكاتب ضامن مكوس البصرة في حديد انحدر معه من بغداد يريد عليه ضريبة مقداراً يسيراً، وبسبب ذلك الحديد كان هجاء ابن الدبيثى عامل واسط».

(٦) ولايزال الخط البياني نازلا مع القصيدة رقم ٣٨ ص ٢٤٧ وهى قصيدة بعث بها من الأحساء إلى صديقه باتكين يستعديه فيها وبها على رجل بصرى يقال له قمر بن محمد، ويعرف بابن وجه النمر، كان قد غلَّ وخان، وهى سبعة وعشرون بيتاً.

(٧) وينزل الخط البياني أكثر وأكثر مع المقطوعة التي أخذت في الديوان رقم ٧٧ ص ٥١٠ مع أنها ثمانية أبيات فقط، وكانت في الأصل صدر كتاب بعث به إلى شمس الدين باتكين.

(٨) لكن الخط البياني يرتفع بالقصيدة رقم ٦١ ص ٤٠٦ وهى مدحة ممتازة في ستين بيتاً، ويظهر أنه أرسلها إلى شمس الدين من البحرين بدليل قوله فيها بعد مطلعها :

أنسيم نجد بالمهتك سحرة لشفاء ذى الكبد العليل غليلا
احمل إلى أرض العراق رسالة عنى فما أرضى سواك رسولا

والبصرة الفيحاء لا تتخلفن عنها ولا تتجاوزنها ميلا
وأفض عليها ألف ألف تحية بالمسك تفتق بكرة وأصيلا
واخصص بأكثرها الهمام المرتجى الـ ملك الأغر الماجد المأمولا

(٩) ويتدرج الخط البياني في الارتفاع بالقصيدة رقم ٨٤ ص ٥٧١ وهي اثنتان وخمسون بيتا بعث بها ابن المقرب إلى باتكين من واسط، ومطلعها نواسي خمرى قال :-

قم فاسقنيها قبل صوت الحمام كرمية تجمع شمل الكرام
صهباء مما عتقت بابل مزاجها الأرى وماء الغمام
مما أدير الكأس منها على كسرى ونمرود بن كوش بن حام

(١٠) ومن المشاركة الواجدانية من ابن المقرب لصديقه باتكين تلك القصيدة التي قالها يمدحه وهو يقاتل بني معروف وهي القصيدة رقم ٩٦ ص ٦٤٣، وقد جاءت في سبعة وأربعين بيتاً من أحسنها قوله :-

لقد جردت منه الخلافة صارماً لو ان الرواسي أرؤس لفراها
أنام بني الأسفار أمنا فأصبحت سواء عليها قفرها وقراها
تسير إلى الأهواز من أرض بابل وليس سوى أسيافه خفراها

الرحلة الثانية

وكانت سياسية عبارة عن سفارة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يطلب منه المدد والعون لابن عمه الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله، كي يتعقب قتلة أبيه،

وتاريخ هذه الرحلة بين سنتى ٦٠٥، ٦٠٦ هـ[٨].

وأرجح أن صفقة الحديد التي فرض عليها ابن الدبيثي ضامن المكوس في واسط ضريبة بمقدار نصفها، وشكاه ابن المقرب بسبب ذلك إلى شمس الدين باتكين ثم هجاه بقصيدتين لاذعتين فاحشتين هما القصيدتان ٣٥ ص ٢٢٤، ٧٦ ص ٥٠٥، أرجح أن هذه الصفقة وهذا الهجاء كانا في هذه الرحلة، ومن المعقول أن يكون الحديد لابن عمه الفضل، اشتراه له بتوصية منه.

***

الرحلـــة الثالثـــة

بفضل رحلة ابن المقرب الثانية انتصر الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد، على خصومه، واستعاد الملك من قتلة أبيه لكن الضعف كان قد بدأ يدب في جسم الدولة العيونية وقد عاني ابن المقرب من ذلك معاناة نفسية حادة، نجدها أو نجد بعضها في داليته التي منها.

وإن وطن ساءتك أخلاق أهله ... فدعه فما يغضى على النقص ماجد
فما هجر أم غذتك لبانها ... ولا الخط إذ فارقته لك والد
وقد ربما يجزى على الصد والقلى ... أب وأخ والمرء ممن يساعد
فبت حبال الوصل ممن توده ... إذا لم يرد كل الذي أنت وارد
وقل لليالي كيفما شئت فاصنعي ... فإن على الأقدار تأتي المكائد

(٨) على بن المقرب العيوني د. الخضيري ص ٧٢.

ولا تـرهب الخـطب الجليـل لهـولـه فـطعم المنايـا كيفـما ذقت واحـد[٩]

ويحكم عليٌّ بن ماجد بعد عمه الفضل، وقـد نجح في أن يعيـد إلى البحرين شيئاً من الاستقرار والأمن، لكن جماعـة من رؤساء عبـد قيس ثاروا عليه وبايعوا واحداً من البيت المنافس لبيت الفضـل هو مقـدم بن غرير بن الحسن بن محمد شكر بن على، ولما كـان (مقدم) بـدوى النشأة وليست له دراية بالسياسة وشئون الحكم، فقـد تكالب الـطامعون عـلى الدولة بعامة وعلى حواضرها بخاصة.

عنـد هذا الحـد اجتمع أهـل الحل والعقـد وولوا عليهم محمـد بن ماجد أخا على، لكن ابن عمه محمد بن مسعود بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل، قد قتله وتولى الحكم مكانه.

هنـا بدأت الـدولة العيـونية في الأفـول، وأخذت جمـوع بني عقيل برئاسة بني عصفور منهم تمهد لانتزاع الحكم من العيونيين بـوضع يـدها على القصور والدور والمزارع والأموال الخاصة بالعيونيين، وبهذا صارت الدولة العيونية في حكم المنتهية.

عندئذ قام ابن المقرب برحلته الثالثة إلى بغداد وهو يردد مقاطع من نونيته التي مطلعها :

بعض الـذي نـالنـا يـادهـر يكفينـا فـامـنن بـبقيـا وأودعهـا يـدًافينـا

والتي منهـا :-

يـاليت شعـري أي الـذنب كـان لنـا حتى بـه اجتيـح دانينـا وقـاصينـا
أضحت بسـاتيننـا نفـدى بـأحسنهـا شقصـاً لأدنى خسيسٍ مـن مـوالينـا

(٩) الديوان ص ١٤١.

بجلة التمـر والشـاة الـرعـوم غـدت أمـلاكنـا واحتمت أمـلاك عـادينـا[١٠]

***

وفي رحلتـه الثالثـة هذه، وكـانت بين سنتي ٦١٠، ٦١٤ هـ مـدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله بقصيدته التي مطلعها :ـ

أمـارات سر الحـب مـا لا يـكـتـم وأبـين شيء مـايجـن المـتـيـم

وفي الديوان قصيدتان أخريان في مدح هذا الخليفـة، وهي قصائـد عادية أو أقل من العادية، لأنها رسمية،الحضـور الذهني فيهـا أوضح من الحضور العاطفي، والمعاني فيها مكررة بمفهومها مرة وبمنـطوقها أكـثر من مرة، وقراءة قصيدة واحدة منها ـ لهذا ـ تكفي[١١].

***

وغير ذلك التقى ابن المقرب في بغداد بـرجل من رجـالات الدولـة العباسية هو فخر الدين أبو عبد الله المحسن بن هبة الله الدوامي، وكان أسدى إليه معروفاً فامتدحه ابن المقرب بفائية بلغت واحـداً وستين بيتـاً منها :ـ

ومن يلق فخـر الـدين يلق ابن تـارح جـلالاً وإنـسـانـيـة وتحـنـفـا
هـو الـطاهـر الأخـلاق لا دينـه ريـا ولا مجـده دعـوى ولا جـوده لـفـا
سـلـيـل مـلوك لا تـرى في قـديمـه لئيـماً ولا مستحـدث البيت مقـرفـا
لعمـرى لقـد أحيـا النـدى بعـد مـوتـه وجـدد ربعـاً للعـلا كـان قـد عـفى
فـلا عـدم الإسـلام أيـامـه الـتي أقـامـت بـدار المشركـين الـتـلهـفـا
وعـاش الـدوامـيـون في ظـل عـزه يصـافـون من صـافي ويجفـون من جفـا

---

(١٠) الديوان ص ٦١١ ـ ٦١٤، والشقص : النصيب والقطعة من الأرض، و(الجلة) : وعاء من خوص، و(الرعوم) : الشاة اشتد هزالها.

(١١) انظر الديوان صفحات ١٢٠ ـ ١٢٩، ٤٤٨ ـ ٤٥٥، ٤٩٠ ـ ٤٩٨.

فـإنهم زيـن الـعـراق وأهـله وسـادات من وافي منى والمعـرفـا[١٢]

كذلك التقي ابن المقرب في رحلته هـذه بالشيـخ محيى الدين عبـد القادر بن داود بن أبي نصر محمد الواسطى قـالوا : « كـان خيِّراً ديِّنـاً، وكانت له معرفة تامة بمذهب الشافعي أصولاً وفروعاً، وله يد باسطة في الفرائض والحساب ومعرفة حسنـة بالأدب، وكـان من الورع والـزهادة والديانة والمروءة والتواضع على طريقة عُرف بها واشتهرت عنه، توفى في ربيع الآخر سنة ٦١٩ هـ »[١٣].

وعنـد خروج الحـاج من بغداد، وكـان الشيخ محب الـدين فيهم، أنشده ابن المقرب قصيدة يودعـه بها، وكـما بدأهـا بمدحـه والدعـاء له، ختمها بالدعاء له وبطلب الدعاء منه في الأماكن المقدسة قال :

يـاوحشتـا والـعيس لم يـرفـع لهـا رحـل ولا نشرت لهـا أعـلام
لا كـان هـذا السـير آخـر عهـدنـا فـهـي الـلـيـالي رحـلة ومـقـام
وكـلاك ربـك حيث كنت ولا عـدا أرضـاً تحـل بهـا حـيـاً ورِهـام
أنعم عـلينـا بـالـدعـاء إذا الـتـقى بـحجـون مـكـة مشرق وشـآم[١٤]

***

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أنه وهو في بغداد هذه المرة قـد لقى أبا البقـاء محب الـدين عبد الله بن الحسـين بن عبـد الله العكـبرى شـارح ديـوان المتنبى، وهو علم من أعلام اللغة والأدب، شهد لابن المقرب بالـبراعة في الشعـر، وقـد لقف ابن المقـرب هـذه الشهـادة وضمنهـا لاميتـه التي مطلعها.

---

(١٢) الـديـوان ص ٢٨٣ - ٢٨٩ ، و(ابن تـارح) هـو إبـراهيم الخليـل صـلى الله عليـه وسلم و(اللفاء) : كل خسيسٍ يسيرٍ حقيرٍ.
(١٣) الديوان ص ٥٦٩.
(١٤) الديوان ص ٥٧١، و(الرهام) : المطر الخفيف الدائم.

أميم لا تنكرى حلى ومرتحلي ... إن الفتى لم يزل كلاًّ على الإبل

فقد جاء فيها قوله :ـ

لقد تقدمت سبقاً من تقدمني ... سنا وأدرك شأوى فارط الأول
بذاك قدوة أهل العلم قاطبة ... أبو البقاء محب الدين يشهد لي
هو الإمام الذي كل له تبع ... من كل حاف على الدنيا ومنتعل
فما الخليل له مثل يقاس به ... وهل يُقايَس بين البحر والوشل ؟ !
وبعض غلمانه يكفي فكيف به ... مهذباً لم يحف جوراً ولم يمل
ولم يقل وحده ماقال بل شهدت ... به الأفاضل من بغداد عن كمل
وليس في الشعر من فضل يطول به ... مثلى ولو فاق أعلى سبعها الطول
بل فضل مثلى أن يسمو بهمته ... عن مدح فدم عن العلياء في شغل[١٥]

ولا تعجب من أن ابن المقرب يذهب إلى تفضيل العكبري على مواطنه الخليل بن أحمد فيجعله وشلا (والوشل هو الماء القليل يتحلب من صخر أوجبل)ويجعل العكبري بحراً، ويري أنه لا مجال للمفاضلة بين الرجلين، وإذا كانت المفاضلة ضرورية، فلتكن بين أحد غلمان العكبري والخليل، لا تعجب من ذلك بشقيه فالثناء متبادل بين أبي البقاء وابن المقرب وإذا عرف السبب بطل العجب.

(١٥) الديوان ص ٣٨٣، و(سبعها الطول) هي المعلقات أما (الفدم) فهو الغبى الثقيل من الرجال.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الرحلــة الرابعــة

لا ترتبط هذه الرحلة بسوء الأحوال الداخلية في الدولـة العيونيـة، بمقدار ما ترتبط برغبة ابن المقرب نفسه فيها لذاتها، ذلك أنه كان يهدف من ورائها إلى لقاء الملك الأشرف موسى بن العادل في الموصل وديار بكر لما بلغه عنه من الولوع بذكره والحرص عـلى أن يحظى بمـدح من شعره، وكان وصوله إلى الموصـل سنة ٦١٧ هـ لكنـه لم يجد الأشرف، ذلـك أنه كان قد نهض هو وإخوته وجنوده إلى لقاء الإفرنج بدمياط، يقول كـاتب مقدمة الديوان: «فبعـدت الشقة عليـه (ابن المقرب) ولم تسمـح نفسه بالمضى إليه»، وقد بقي في الموصل آملاً أن يعود الأشرف فيمدحه.

وإذا كان هذا اللقاء المرجو بينه وبين الأشرف لم يتم في الواقع، فإن المدح قد حصـل، إذ لما وردت المـوصل أنبـاء انتصارات الملك الأشرف على الصليبين نـظم ابن المقرب قصيـدة طويلة سجـل فيها وبهـا بطولـة الأشرف وكفاحه وهي قصيدة جزلـة فخمة تليق بملك كـالأشرف، وقد سلك ابن المقرب فيها مسلك القدماء في العنف بـالمطايـا حتى تصل إلى الممدوح في أقصر وقت ممكن مهما طالت الشقة وعظمت المشقة.

حـرام عـليـهـا دونـه المـاء والـكـلا ... وأن تـلتـقـي أعـضـاؤهـا والمـفـارق
فـيـوم تـوافـيـه تـراح ويـنـقضى ... شـقـاهـا ويلقي ميسهـا والـنـمارق
لـدى مـلك مـن آل أيـوب لم تسر ... بـأحسـن نشر مـن ثـنـاه المـهـارق
لـه الـنـاس والـدنيـا من الله نـحلة ... حـبـاه بهـا والـله يـعـطى ويـأمـق
أحـق مـلوك الأرض بـالمـلك مـن بـه ... ينـال الغني الـراجي وتحمى الحـقـائق
سـل الكفـر من أودي بـدمياط ركنـه ... وقصَّر أعـلى فـرعـه وهـو بـاسـق

يخبرك صدقاً أن موسى هو الذي بصارمه باقت عليه البوائق[١٦]

والقصيدة طويلة كما قلنا فعدتها اثنان وتسعون بيتاً، تقرأ البيت منها فتظن أنه بيت القصيد وواسطة العقد، ثم تتجاوزه إلى ما بعده فتغير رأيك، وهكذا حتى تأتى عليها كلها، وأنت لاتكاد تنفى منها شيئا أو تأخذ عليها شيئا إنما هوالإعجاب بها كلها مضمونا وشكلا، واقرأ مافعل الأشرف بالإفرنج، وكيف أقام قيامتهم وأذهلهم عن أبنائهم وأنفسهم، وقف معى عند هذا البيت المعبر عن اندهاشهم وخوفهم.

ولم يبق يثنى من عنان جواده أب لابنه والموت للقوم خانق

وفي البيت التسعين من هذه القصيدة يبين ابن المقرب سبب حرصه على لقاء الأشرف وهو سبب مزدوج منه ما هو عرض، ومنه ما هو جوهر.

وحسن حديث الناس عنك استفزنى إليك وود يعلم الله صادق

***

وفي أثناء وجود ابن المقرب بالموصل ـ وكان قد افتقر حتى باع مركوبه بأوكس قيمة في شر وقت ـ اتصل بأميرها بدر الدين لؤلؤ بن عبدالله الأتابكي، ذكروا (أنه كان عالي الهمة، ساهرا على رعاية شئون رعاياه، وقد طالت أيام حكمه، توفي ٦٥٧ هـ)[١٧].

وقد مدحه بثلاث قصائد هي القصائد ٥٨ ص ٣٩١، ٦٦ ص ٤٣٩، ٧٨ ص ٥١١ وحين أراد الخروج من الموصل ودعه بقصيدة رابعة هي القصيدة رقم ٦٣ ص ٤٢٢ وهي كسابقاتها ـ مدح لبدر

---

(١٦) الديوان ص ٢٩٢ ـ ٣٠٤، و(الميس): شجر صلب تعُمل منه أكوار الإبل ورحالها، وقد أطلقه الشاعر على الكور أو الرحل و(النمرق) و (النمرقة): الطنفسة فوق الرحل.

(١٧) الديوان ص ٣٩١.

الدين، ولا عجب، فقد بهره بدر الدين بإكرامه له وإغداقه عليه وما زال به حتى أخرجه عن حد الاعتدال في مدحه له قال:

لله بدر الدين من ملك فما ... أوفي وأكفي للخطوب وأحملا
ملك أنخت به الرجاء مؤملا ... فرجعت من جدوي يديه مؤملا
زهت البلاد به فما من بلدة ... إلا تمنت أن تكون الموصلا
يأيها الملك الذي في كفه ... بحر أرانا كل بحر جدولا
لاتحسبن ثناي للمال الذي ... خولتنيه فلم أزل متمولا
لكن رأيت خلائقاً ما خلتنى ... أحظى برؤية مثلها في ذا الملا
لولا النبوة بالنبي محمد ... ختمت لقلت أري نبيا مرسلا[18]

وقد التقي في الموصل هذه المرة بياقوت الحموي، وهو اللقاء الذي تحدث عنه ياقوت في كتابه «معجم البلدان» جـ ٦ص ٢٥٩، وقد نقلناه عنه في صدر هذا الفصل.

***

كما التقي بالصاحب كمال الدين بن أبي الكرم محمد بن علي بن مهاجر أحد بنى قيس بن ثعلبة، وفي ديوان ابن المقرب قصيدتان موجهتان إلى الصاحب، إحداهما بمناسبة محاولة دخوله عليه ومنع حجاب الصاحب له، ولما تكرر منهم ذلك شكاهم إلى مولاهم بقصيدة قصيرة عبارة عن ثمانية عشر بيتا هي القصيدة ٥٩ ص ٣٩٣ وقد وعده فيها بثناء تطرب الأسماع له، ووفي بوعده فمدحه بقصيدة جيدة جاءت في اثنين وستين بيتا بدأها بالمدح هكذا:

بنانك من مغدودق المزن أهطل ... وباعك من رضوي وثهلان أطول
ودارك دار الأمن من كل حادث ... ومنزلك المعمور للمجد منزل

(١٨) الديوان ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

تجاوزت مقدار الكمال فما يُرى ... علاً كامل إلا وعلياك أكمل
وحزت خلال الفضل من كل وجهة ... فما فاضل إلا وأنت المفضل
خليليَّ ماكل الرجال وإن علوا ... كمال ولاكل الأقاليم موصل

وفيها يصب جام غضبه على قومه بقوله:

لحى الله دهراً أجأتني صروفه ... إلى حيث يُلغى حق مثلي ويهمل
وعاقب قومي الغرشر عقوبة ... وخصص من ينمي عليَّ وعبدل
فلولاهم والله يعلم ذلكم ... لما فاه لي بالمدح في الناس مقول
ولاحط بالفيحاء رحلي ولا رأت ... قري ظاهر الزوراء شخصي وإربل
وقد كان لي من إرث جدي ووالدي ... غني فيه للراجي الذي يتمول[19]

الرحلة الخامسة

وكانت سنة ٦٢٣ هـ كما قال ابن الشعار، وفي هذه المرة مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله أبا جعفر منصور بقصيدته التي مطلعها:

اليوم سُرَّ العلا واستبشر الأدب ... وأحمدت سيرها المهرية النجب

وقد مدحه فيها بالكرم المبالغ فيه جداً، كما مدح العباسيين جملة، ولاعجب فالأمر كما قال هوفي هذه القصيدة:

بفضلهم نطق القرآن ممتدحا ... لهم وجاءت به من قبله الكتب
أبوهم الخير عبدالله خير أب ... وجدهم سيد البطحاء إن نُسبوا

(١٩) الديوان ص ٤٢٧ ـ ٤٣٣ والفيحاء هي البصرة أما الزوراء فبغداد.

وهو يعطي تفسيراً لفتور مدحه للخليفة الأسبق بقوله:

أنت الإمام الذي قد كنت آمله وذا الزمان الذي قد كنت أرتقب

فكأن الناصر لم يكن الإمام المرجوّ، وكأن عهده لم يكن العهد المرتقب، وتاريخ الناصر يؤيد هذا الإحساس من جانب ابن المقرب، فقد كان قبيح السيرة في رعيته ظالما متعسفا، أكثر عليهم الجواسيس، واشتط في فرض الضرائب، وأخذ أموال الناس حتى خرب العراق في عهده، وتفرق أهله في البلاد(٢٠).

***

أما الخليفة السابق وهو الظاهر بأمر الله والد المستنصر فلم يحكم سوى تسعة أو عشرة أشهر، وهي مدة لاتكفي في إعطاء تصور عنه له أو عليه، وأرجح أن ابن المقرب لم يمدحه ربما لأنه لم يكن في بغداد مدة حكمه.

***

ويمكن أن نضيف إلى رحلته الخامسة هذه مدحة لتاج الدين إبراهيم بن محمود الطباخ، وتهنئة له بشفائه من مرض كان قد ألم به، ففي ديوانه قصيدة تتضمن هذا الغرض المزدوج، ونخرج منها بأن تاج الدين كان له أعداء ألداء، وحساد حاقدون، وابن المقرب ـ لهذا ـ يستهلها بالدعاء عليهم هكذا.

بمعاديك لابك الأسواء ولحسادك الثري لا الثراء
صحة الدهر أن تصح فلا صحّـ ـت لشانيك ما بقي أعضاء

---

(٢٠) انظر في سيرته تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٨٠ طبعة دار الثقافة بيروت د. ت. والكامل لابن الأثير جـ ٩ ص ٣٣١ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ـ بيروت سنة ١٩٤٨.

وبـقـاء الـدنـيـا بـقـاؤك لاطـا ل لمـن يـشـتـهـى رداك بـقـاء

وليس هذا فقط، بل إنه ختمها بمثل مابدأها به من الدعاء على أعدائه وحساده، وتمنيه الشر لهم، وأي شر أشنع وأفظع من أن تتحول خدودهم إلى حذاء في قدميْ تاج الدين الذي يتمني له ابن المقرب طول العمر حتى يرى أولاد ابنه وأولاد هذا الابن:

وأرتـنى الأيـام خـدَّ مـنـاويـ ـك ومـنـه لأخمـصـيـك حـذاء
وأراك المـهـيـمـن ابـنـك قـد صـا ر لأبـنـاء نـسـله أبـنـاء[٢١]

***

كما يمكن أن نضيف إلى هذه الرحلة لقاءه عند منحدره من بغداد بالنقيب تاج الدين إسماعيل بن النقيب جعفر بن يحيى بن النقيب طالب بن محمد بن أبي الحسين محمد بن أبي القاسم علي بن العباس محمد بن زيد العلوى، وكان ابن المقرب قد حضر مجلسه للسلام، فخلع عليه ثوبين لهماقيمة ثمينة، وقد كان رد الفعل لذلك من جانب شاعرنا قصيدتين إحداهما قالها ابتداء وهي الهائية التي مطلعها:

تخفي الصبابة والألحاظ تبديها وتظهر الزهد بين الناس تمويها

وقد جاءت في خمسة وستين بيتا[٢٢]

والأخرى قالها لما اقترح عليه النقيب تاج الدين إسماعيل ـ وقد مرض مرضاً خفيفاً ـ أبياتا من الشعر، أو قالها هو ابتداء ـ كالأولى ـ بهذه المناسبة، وأراني إلى الرأي الثاني أميل، وهي ثائية في خمسة وثلاثين بيتا برقم ١٦ ص ١١٥ ـ ١١٩ ومطلعها:

أعيذك أن تسمو إليك الحوادث وأن تتغشاك الخطوب الكوارث

---

(٢١) الديوان ص ٢٣ ـ ٢٥.
(٢٢) الديوان رقم ٩٧ ص ٦٤٩.

سليـل العـلا لازلت في ظـل نعـمـة لـك المجـد ثـان والسـلامـة ثـالـث

والآن، وبعد أن صحبنا ابن المقرب خارج وطنه ورأيناه وهـو يمدح الخليفـة العبـاسي النـاصر لـدين الله، وحفيـده المستنصر بـالله، ولؤلؤاً الأتابكي أمير الموصل، وشمس الـدين باتكـين أمير البصرة والصـاحب كمال الدين، وفخـر الدين المحسن بن هبـة الله الدوامي، والنقيب تـاج الدين إسماعيـل، والشيخ محب الـدين الواسـطى، وأبا البقـاء العكبرى ويـاقوتـا الحموى، وابن الشعـار الموصـلي، وابن نقطة البغـدادي وتـاج الدين إبراهيم الـطباخ وغـيرهم، كما رأينـاه وهو يتحـدي حجاب بـدر الدين لؤلؤ، ويهجو ابن الدبيثى، بعد ذلـك كله نقول: إن ابن المقـرب كان إيجابيا وهو خارج وطنه مثلما كـان إيجابيـا وهو داخـل هذا الـوطن، وربمـا أكثر، لقـد كان سفـارة متنقلة ومستنيرة للبحـرين في العـراق، أو نقول: كان سفيراً راشدا وواعدا لدى الدوائر الحـاكمة في العـراق وعند البيئـات العلمية والأدبيـة بـه، وهي بيئـات خـرَّجت الكثـير من العلماء والأدبـاء، واستقبلت الكثـير من العلماء والأدبـاء، وعـلى رأس هؤلاء وهؤلاء علي بن المقرب.

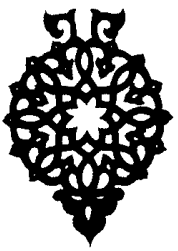

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصـــل الثانـــي
تجربتـه الشعـرية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مدخـــل

التجربة الشعرية هي التعبير بالشعر عن التجربة الشعورية.
والتجربة الشعورية هي رد فعل نفسي لحدث مؤثر، وبعبارة أدق: هي استجابة وجدانية لمثيرٍ ما: ماديا كان أو معنويا.

ومهما كانت القدرة الشعرية لدى الشاعر قوية، تظل تجربته الشعورية أعمق وأصدق من تجربته الشعرية، لقصور الأداء الشعري ـ وإن عظمت درجة نصاعته ـ عن التعبير المبين عما في نفس الإنسان من فكر ووجدان.

ويمكن القول لهذا بأن نسبة الشعر إلى الشعور على وجه العموم فيهما تتردد بين أن تكون نسبة واحد إلى واحد، وهذا نادر جداً، وأن تكون نسبة واحد إلى أكثر من واحد، ولاحد لهذا الأكثر، لكن الشاعر الحق، وهو الشاعر الموهوب، صاحب الحضور الشعري في معظم مواقفه الشعرية، يأتي في المراحل المتقدمة من النسبة السابقة بشقيها، ويمكن الحكم عليه من خلال بعض قصائده بأن تجربته الشعرية تكشف عن حيز كبير من تجربته الشعورية، وتبرز إلى الوجود منها هيكلها العام، وكثيراً من سماتها الجمالية، وملامحها الفنية.

***

وإذا تساءلنا عن الهكيل العام للتجربتين: الشعورية والشعرية ماهو؟ وعن السمات الجمالية والملامح الفنية لهما ماهي؟

وجدنا أنفسنا أمام حشد هائل من الإجابات المختلفة باختلاف

جوانب هاتين التجربتين ومكوناتهما العضوية.

ولأن التجربة الشعورية من الأمور المعنوية، وتظل ـ مادامت مجرد تجربة شعورية ـ مخبوءة في ضمير الشاعر، ومدومة في أعماقه، لاعلم لنا بها حتى يبلورها ويظهرها في تجربة شعرية، فإننا سننتقل توا إلى التجربة الشعرية، ذلك أن التجربة الشعرية إنما هي الجسم المادي الحي للتجربة الشعورية.

وإذا كنا قد عرَّفنا التجربة الشعرية بأنها التعبير بالشعر عن التجربة الشعورية فإن مفهوم ذلك أن تكون الأحاسيس والمشاعر هي أهم العناصر في التجربة الشعرية ولا يحتاج الشاعر إلى حدث كبير يثيره، ولا إلى موضوع خطير يحركه، فقد يكون الحدث صغيراً، وقد يكون الموضوع غير بالغ الأهمية، ومع هذا يستطيع الشاعر بماله من موهبة وبما عنده من شاعرية، أن يتفاعل معه، وأن يحيطه بهالة كبيرة من إحساساته ومشاعره، وليس هذا أمراً سهلاً ولا عملاً هينا، ذلك أن عالم الشعور عالم واسع وعميق، ومكوناته في الغالب تكون صاخبة وجياشة وذات ضغط قوي على صاحبها حتى يطلقها من قمقمها.

بأيها يبدأ؟ وبأيها ينتهى؟ وما الترتيب الذي ينبغى له أن يراعيه وهو يخرجها من عالمها الداخلي، ويودعها عالمه الشعري ممثلة في قصيدة، أي في تجربة شعرية؟.

هذه أسئلة تجيب عنها فطنته وخبرته الطويلة بدنيا الشعر، وهو فيها ملكها المتوج، ولأنه في دنيا الشعر ملكها المتوج عليه أن يوظف عقله في تنظيم أحاسيسه وترتيبها على حسب أهميتها، حتى ينزلها منازلها التي تتلاءم معها.

وهذا يعنى أن التجربة الشعرية لاتستغنى عن قدر من الفكر يضبطها ويجعلها أو يساعد على جعلها مفهومة ومنطقية، وإذا كان هذا

القدر من الفكر لازما للتجربة الشعرية كالعاطفة، فإنه أقل منها أهمية، وعلى الشاعر أن يحاذر من أن يجعل لفكره الغلبة على تجربته الشعرية.

إن قصيدته حينئذ تفقد الأساس الذي تقوم عليه أصلا وهو المشاعر الوجدانية، ليفهم أنه بإزاء عمل نفسي مجاله الشعر، وليس بإزاء عمل عقلي مجاله النثر، وإذا خرج الشعر عن مجال الشعور لم يعد شعراً وإن كان موزونا مقفي.

إن التجربة الشعرية يجب أن تظل تجربة شعرية للعقل فيها دور وله معها عمل، لكنه دور محدود وعمل مشروط بألا يخرجها من عالمها الوجداني إلى عالم التجريد والصور العقلية.

ولعله من هنا كان الخيال ضروريا وشيئا جوهريا في التجربة الشعرية، وترجع أهمية الخيال في التجربة الشعرية إلى قصورا للغة المعجمية عن إبراز الشعور، وعن تجسيده تجسيداً يساعد متلقيه على تمثله، وعلى الإحساس به، ثم على المشاركة فيه مشاركة وجدانية، ونوضح ذلك أكثر فنقول:

إن الخيال هو الذي يخلق الصورة الشعرية جزئية كانت أو كلية، ثم هو الذي يمد هذه الصورة بالطاقة اللازمة لها كي تتحرك وتحقق أهدافها الفنية، ولولاه لعجزت لغة الشعر ـ مهما كانت راقية ـ عن أداء التجربة الشعرية.

***

بقى عنصر هام من عناصر التجربة الشعرية هو الموسيقى.

والموسيقى عنصر طبيعى وبديهى في أية تجربة شعرية، إذ به تدخل العملية الإبداعية محرابها الفني الذي سمُيت باسمه، ونسبت إليه وهو الشعر، ونقادنا القدامي ـ عدا ابن خلدون ـ لم يلتفتوا إلى أي عنصر من

عناصر التجربة الشعرية قدر التفاتهم إلى هذا العنصر، فهم لم يذكروا المشاعر والأحاسيس، ولم يذكروا الفكر والخيال، لم يذكروا إلا أن الشعر هو الكلام الموزون المقفي. وكأنهم لايُعرِّفون الشعر، وإنما يذكرون الفرق بينه وبين النثر، ولو حملنا تعريفهم للشعر على هذا المحمل، لوافقناهم، ولأثنينا على تنبههم الذكي إلى هذا الملمح المهم من ملامح التجربة الشعرية.

وإنما كانت الموسيقى ضرورية للتجربة الشعرية تفاديا لعجز اللغة ـ وإن كانت مجازية ـ عن سرعة وقوة وفاعلية التحرك بالشعور الداخلي لدى الشاعر نحو التجربة الشعرية أولا، ثم سرعة وقوة وفاعلية نقل هذا الشعور من التجربة الشعرية إلى متلقي هذه التجربة[1] والموسيقى في هذا كالخيال، لكنها تأتي قبله، فقد يخلو بيت أو مقطوعة في القصيدة من الخيال، هذا وارد وممكن وهو حاصل بالفعل فيما يسمى بالأبيات الحكمية، أو بشعر الحكمة جملة، لكن من غير الوارد، ومن غير الممكن، بل من غير المسلم به أصلا، أن يخرج شطر واحد، بل كلمة واحدة عن موسيقى البحر الذي بدأ الشاعر بالتجديف فيه من أول وهلة.

والخلاصة أن الموسيقى هي التي تعطي للشعر نكهته.
ومذاقه الخاص، وتهبه مظهره الفني، أما بقية العناصر من إحساس وفكر وخيال فتكوِّن معها هيكل التجربة الشعرية مضمونا وشكلا.

***

ماذكرناه كان الهيكل العام للتجربة الشعرية.
لكن ماخصائص هذه التجربة؟

---

(١) يجوز العطف على المضاف قبل ذكر المضاف إليه، وفي الحديث الشريف «قطع الله يد ورجل من سرقها».

في الإجابة عن هذا السؤال نكتفي بثلاث خصائص هي :

(١) أن يكون للتجربة الشعرية موضوع يعطيها اسمه، ليكن هذا الموضوع مدحا أو هجاء أو رثاء أو وصفا، ليكن قضية سياسية، أو ظاهرة اجتماعية أو موقفا أخلاقيا، أو حدثا يومياً، أو مخترعا مدهشا، نوع الموضوع غير مهم، أما المهم فهو مدى تأثيره في الشاعر، ودرجة انفعال الشاعر به، وانطلاقه من خلاله إلى عوالم جديدة، يلتقط منها صوراً موحية مؤثرة، وإنما كانت موحية ومؤثرة، لأنها تضرب بجذورها في الحس والشعور، وتقوِّمُ منآدها بالفكر والخبرة، وتطير بجناجين من الخيال والموسيقى.

(٢) أن تكون التجربة الشعرية والصور المنبثقة عنها متسقة ومتعاونة على إيصال مضمونها أو مضامينها إلى مستقبلها، وعلى إحداث المتعة له بها مهما كان شأنها.

(٣) من الصحة الفنية ومن مظاهر الحيوية في التجربة الشعرية أن تكون قادرة قدرة ذاتية على أن تتحول عند القاريء أو السامع إلى تجربة شعورية بنفس درجة تأثيرها السابق على الشاعر، وبنفس درجة وضوحها عنده.

على ضوء ما سبق ننظر في شعر ابن المقرب، فنجده شعراً آسراً معبراً، يمور بحقائق حياة الشاعر، ويعكس واقعه المشرق قليلا والمعتم كثيراً، وهو في حالتيه ترجمان صادق عنه، وصورة يدوية له، نراه في شعره رأي العين، فنعرفه ونألفه، ثم نعايشه، فلا نملك إلا أن نعجب به، وإلا أن نحبه، وقد نصل في الإعجاب به والحب له إلى حد التوافق معه، وكنَّا قد بدأنا دراستنا له ولشعره بموضوعية مطلقة، وفي حيدة تامة، وهذا طبيعي، فمن قبل لم نسمع به، ولم نقرأ له، لكنا بعد أن عرفناه وتذوقنا شعره صرنا وإياه أصحاب تجربة شعورية واحدة، وهذا

دليل على أنه قد نجح في أن يؤثر فينا إلى حد الانبهار به والتقدير له، وإذا كان قد حرم من ذلك في حياته وبين أبناء وطنه، فالعذر في هذا الحرمان أمران:

أن المعاصرة حجاب أولا.

وأن التبر في أرضه نوع من الحطب ثانياً.

***

وهذا الكلام إن صح أن يكون موقفاً عفويا أو أخلاقيا نقفه من ابن المقرب ومن تجربته الشعرية، فإنه لا يصح أن يكون موقفا علميا أو فنياً، وسيظل كذلك مالم تتبعه براهينه التي تؤيده وتجعله حكما نقديا معللا، أو دراسة معيارية مقننة.

فلم يبق إلا أن نعرض شعره على ماسبق تقريره من الأصول الفنية للتجربة الشعرية. وعذرنا في الاستباق بحكمنا أننا قرأنا ديوان ابن المقرب قراءة جيدة، ولما خرجنا منه بهذا الانطباع عنه لم نحبسه في حلوقنا، لأنه ما سوف نقوله انتهاء بعد أن قلناه ابتداء.

وإذا كان ابن المقرب قد أثبت بشريته ببعض الخلل في أدائه الفني، وببعض الخطأ في ديباجته الشعرية، فإن هذا لايمنع من القول بأنه ـ في جملته ـ شاعر متحقق الشاعرية بدرجة عالية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التجـــربة الشعـــرية عنـد ابن المقـــرب

تتمثل التجربة الشعرية لابن المقرب في كل ما قاله من شعـر، وقد اشتمل ديوانه المطبوع بتحقيق الدكتور عبد الفتـاح محمد الحلو عـلي ٩٧ قصيـدة بلغ عدد أبيـاتها ٥٢٦١ بيتـا بما في ذلـك القصيدة رقم ٤٠ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٦ من الـديـوان، وهي في رثـاء الحسـين بن عـــلي رضي الله عنهما، وقد شك المحقق الفاضل في نسبتها إلى ابن المقرب، ورجح نفيها عنه، ومع هذا لم يهملها بل أثبتها، لوجودها في النسخة المحفـوظة بـدار الكتب المصريـة تحت رقم ٥٢٢ أدب، ولا عجب، فقد اتخـذها أصـلا لتحقيق ديوان ابن المقرب، علما بأنها هي النسخة الوحيدة التي أوردتها، وهذه هي وجهة نظره كاملة قال: « وفي هذه النسخة قصيدة يبكي فيهـا الشاعر لمقتـل الحسين بن عـلي رضي الله عنهما، ويـذكر بعضـاً من صور التشيع، وهي قصيدة أكبر الظن أنها مقحمة على الـديوان، منسـوبة إلى الشاعر، وإلا لسرى هـذا اللون إلى قصائـده كلها أو إلى كـثرتها ويؤيـد هذا الظن ما نجده في نهاية القصيدة من نسبتها إلى الشاعر بطريقة تقوى الشـك فيها إلا أني آثـرت أن أثبتها في الـديـوان حفـاظـاً عـلى الأصـل المخـطوط، وانتظاراً لمـا يكشفه البحث ويجليـه الـدرس، فقـد تنكشف الحقيقة يوماً ما عن بعض مظاهر التشيع لدى ابن المقرب[1].

***

وإذا كـان الدكتـور الحلو قد تـردد في نسبة هـذه القصيـدة إلى ابن

---

(١) مقدمة التحقيق ص ١٢.

المقرب بين الإيجاب والنفي، فإن الأساتذة عمران، والخضيري، والخطيب، قد نفوها عنه قولاً واحداً[٢].

وأنا معهم فيما ارتأوه، للأسباب التي ذكروها، وهي أسباب واحدة تقريبا.

***

وإذا استبعدنا هذه القصيدة بأبياتها الستة والسبعين يقف شعر ابن المقرب في ديوانه بتحقيق الدكتور الحلو عند العدد ٥١٨٥ نضيف إليها ما استدركه عليها الأستاذ الخطيب في ملحق رسالته، وهو تسع قصائد، وخمس مقطوعات، جاءت في ٢٤٥ بيتا، وبهذا يصير كل ما بأيدينا من تجربة ابن المقرب الشعرية ٥٤٣٠ بيتا.

والأستاذ الخطيب مأجور ومشكور لسعيه الدائب بين المكتبات والمتاحف وخزائن الكتب في الشرق والغرب، استكمالا لعمل قريب من الكمال، وهو ديوان ابن المقرب بتحقيق الدكتور الحلو.

***

ومن فضل جامع الديوان أولا، ومحققه ثانياً، تلك العناوين التي نجدها على رأس كثير من قصائده ومقطوعاته، وهي في الغالب تعطي مضمون النص كله أو بعضه، وقد توضح مناسبته.

لكنا نجد ثلاث قصائد أكتُفِي في عنونتها بذكر مكان نظمها وزمانه، وثلاثاً أخرى أكتُفِي في ذلك بذكر مكان نظمها فقط.

وهذا بيان بالقصائد الست مرتبة على حسب ورودها في الديوان:

(١) القصيدة رقم ٥ ص ٣٥، وطرَّتُها «وقال رحمه الله ببغداد سنة

---

(٢) عمران ص ٢٦ والخضيري ص ٩٩ - ١٠٠، والخطيب ص ١١٩ - ١٢٦.

٦٠٥ هـ أيضا ».

(٢) القصيدة رقم ١٠ ص ٦٤، وطرتها « وقال أيضا، وذلك بالقطيف في غرض له سنة ٦٢٠ هـ ».

(٣) القصيدة رقم ١٩ ص ١٣٢، وطرتها « وقال أيضا، وهي مما قاله بالأحساء ».

(٤) القصيدة رقم ٢١ ص ١٤٩، وطرتها « وقال أيضاً بالأحساء في غرض له ».

(٥) القصيدة رقم ٣٩ ص ٢٥٢، وطرتها كلمة واحدة هي « بالأحساء ».

(٦) القصيدة رقم ٥٦ ص ٣٧٨، وطرتها « وقال أيضا ببغداد سنة ٦١٤ هـ ».

وفي رأيي أن النص على مكان نظم القصيدة وزمانه، أو على مكانه فقط، يكون بمثابة عنوان لها، لأنه يساعد على فهمها، وقد يعطى عنوانها الحقيقى، أو يوحي به.

وعلى أي حال، فست القصائد السابقة، أحسن حظا من اثنتى عشرة قصيدة ومقطوعة واحدة جاءت مصمتة في الديوان، أي بدون عنوان، وبدون ذكر لزمان أو مكان نظمها، وهذا بيانها:

(١) القصيدة رقم ١ ص ١٣.

(٢) القصيدة رقم ٢ ص ١٩.

(٣) القصيدة رقم ١٨ ص ١٢٩.

(٤) بيتان برقم ٣٧ ص ١٩٧.

(٥) القصيدة رقم ٣٧ ص ٢٣٤.

(٦) القصيدة رقم ٤١ ص ٢٦٦.

(٧) القصيدة رقم ٤٢ ص ٢٧٢.

(٨) القصيدة رقم ٤٨ ص ٣١٣.
(٩) القصيدة رقم ٥٤ ص ٣٦٤.
(١٠) القصيدة رقم ٥٥ ص ٣٧٠.
(١١) القصيدة رقم ٧٠ ص ٤٦٦.
(١٢) القصيدة رقم ٩٣ ص ٦٢٣.
(١٣) القصيدة رقم ٩٧ ص ٦٥٧.

وإذا كانت دراسة القصائد والمقطوعات المعنونة، أو شبه المعنونة ميسورة وسهلة، فإن الأمر على العكس من ذلك في القصائد والمقطوعات غير المعنونة، ومع هذا فإنني أعد بأن أقف عندها مثلما أقف عند غيرها، لوقوعها في مناطق الظل من ديوان ابن المقرب.

***

ويحسن توكيد ماسبق أن قلته من أن عدد القصائد والمقطوعات في ديوان ابن المقرب (٩٧) سبع وتسعون، وليس (٩٨) ثمانياً وتسعين كما قال الدكتور الحلو في مقدمة التحقيق ص ١٤.

وفي طريقنا إلى هذه الحقيقة مررنا بالمقطوعة رقم ٣١ وهي ثمانية أبيات، في الصفحة ٢١٢ أربعتها الأولى، وفي الصفحة ٢١٣ أربعتها الثانية، وتكمل صفحة ٢١٣ هذه بثلاثة أبيات يقول المحقق الفاضل عنها « هذه الأبيات ملحقة في (هـ) بالقصيدة السابقة »، وبرغم ذلك أعطاها رقماً خاصاً بها في تسلسله العددي هو الرقم ٣٢ وكم كنت أود ألا يكون لها رقم خاص بها مادامت ملحقة بسابقتها أي متممة لها، ويظهر أن المحقق الفاضل لم يلحظ ذلك إلا عند الرقم ٣٨ فكرره مع قصيدتين متجاورتين تبدأ أولاهما في ص ٢٤٠ برقم ٣٨، وتبدأ الثانية في صفحة ٢٤٧ برقم ٣٨ أيضا.

ونمضي في الديوان إلى أن نصل إلى القصيدة رقم ٩٤ التي تبدأ في

صفحة ٦٣١ وتنتهى في صفحة ٦٤٢، وفي صفحة ٦٤٣ نجد القصيدة رقم ٩٦ (كذا) وهو سهو قطعا، ويمضى التسلسل بعد ذلك مع القصيدة رقم ٩٧ ص ٦٤٩، والقصيدة رقم ٩٨ ص ٦٥٧.

ونصحح ذلك بأن نجعل الأرقام على التوالى ٩٥، ٩٦، ٩٧ والرقم الأخير (٩٧) هو رقم القصيدة الأخيرة في ديوان ابن القمرب.

وأخطاء شكلية أخرى جاءت في بعض عناوين القصائد، ونكتفي من ذلك بثلاثة أمثلة هي:

(١) القصيدة رقم ص ٤١، طرتها « وقال رحمه الله يذكر فيها أهل القطيف وأهل الأحساء وأسباب جرت في ذلك الزمان ».
والصواب في (وأسباب) أن تكون منصوبة.

(٢) القصيدة رقم ٩ ص ٥٩، طرتها « وقال أيضا وبعث بها إلى الأمير مقدم بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين، يعاتبه، وذلك أنه بعث إليه بخلعة وهي عمامة من معمول البصرة، فذكر له أنه لايلبس إلا معمول مصر، فأوعده بذلك، فطال الأمد، في سنة ستمائة وخمس وسبعين ».
قال (فأوعده)، والصوب (فوعده).

وقال في سنة ٦٧٥ علما بأن ابن المقرب قد مات في حدود سنة ٦٣٠ أي قبل التاريخ المذكور بخمس وأربعين سنة.

(٣) القصيدة رقم ١١ ص ٧٤ طرتها « قال أيضا في الأمير أبي شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفصل بن أحمد أبي الحسين بن أبي سنان ».

وفي هذه الطرة تكرار، وأكثر من خطأ، وصوابها هو:

وقال أيضا في الأمير أبي شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين

أحمد بن أبي سنان محمد بن الفصل.

***

وأبادر فأقول: إن هذه وأمثالها أخطاء هامشية، وهي لهذا لاتمس جوهر التجربة الشعرية لابن المقرب.

***

بقيت القصائد التسع، والمقطوعات الخمس المكونة لملحق الأستاذ الخطيب وقد شغلت من هذا الملحق ست عشرة صفحة تبدأ بالصفحة ١٠ وتنتهى بالصفحة ٢٥، ونترك للأستاذ الخطيب مهمة تعريفنا بها وبموضوعاتها قال:

« وحين عرضنا هذه القصائد والمقطوعات على المنهج الخارجي بهدف توثيقها وجدنا أن الشاعر قد خص بنظمها شخصيتين إحداهما عراقية مجهوله، لأننا لم نقف إلا على لقبها (العادل) وكنيتيهْا (عميد الدولة وشرف الدين)[1] فتعذر ـ على الرغم من طول الاستقصاء ـ معرفة اسمه الحقيقى، وقد استأثر هذا الممدوح بسبع قصائد في حين خلا الديوان المحقق من أي مدحة له.

وثانيتهما وجيه موصلي معروف خصه بقصيدة واحدة علما بأنه قد حظى بمدحتين في الديوان المحقق، وهذا الوجيه الموصلي هو كمال الدين بن أبي الكرم محمد بن علي بن مهاجر من بنى قيس بن ثعلبة، وجاء في نسخة المتحف العراقي الخطية مانصه أنه كان يومئذ من أخص أهل الموصل عند بدر الدين لؤلؤ، وكان أصله من ربيعة فانتسب

---

(١) (عميد الدولة) و (شرف الدين) لقبان كالعادل الذي سبقهما أما الكنية فهي مابدئت بأب أو أم مثل (أبو محمد) و (أم محمد) وبناء على هذا تصحح العبارة هكذا: لأننا لم نقف إلا على ألقابها (العادل) و (عميد الدولة) و (شرف الدين) والله أعلم.

إليه ابن المقرب فوجده ابن عمه (ملحق رسالته للماجستير ص٢ ـ ٣) .

***

سبع قصائد في مدح العادل عميد الدولة وشرف الدين ، وقصيدة في مدح تاج الدين بن أبي الكرم .

تبقى القصيدة التاسعة ، والمقطوعات الخمسة ، وهي مع القصائد الثمانية تندرج تحت قول الأستاذ الخطيب عن شعر الملحق بعامة :

« إن أغلب هذا الشعر نظمه في العراق ، وجاء أكثره في المدح ، وأقله تنازعته أغراض أخرى كالغزل والفخر والعتاب والإخوانيات والسخرية » (الملحق ص ٩) .

***

الآن وبعد أن حددنا التجربة الشعرية لابن المقرب كمًّا ، نعرض لها كيفاً بالدراسة المفصلة ، وقبل ذلك ننبه على أنه لما كانت التجربة الشعرية ـ من وجهة نظري ـ تعنى موقفاً معيناً وكاملا للشاعر من موضوعه الذي أثاره شعورياً بما يشبه الأفعال وردود الأفعال في الأحوال العادية ، وفي الأمور المادية ، ولما كانت النظرة الموضوعية إلى أية قضية ـ أدبية كانت أو غير أدبية ـ إنما هي النظرة الكلية التحليلية ، فإنني رأيت بل تعمدت أن تكون القصائد التي أوردها هنا كاملة ، رغبة في أن يكون تصوري لها شاملا كل أجزائها ، وكل ما أرجوه أن يجيء تفسيري لها ، أو حكمي عليها ، أو ما أستنبطه منها صحيحاً صحة فنية قريبة من الصحة العلمية .

وقد اخترت لهذه الدراسة التطبيقة ثلاث قصائد من ديوان ابن المقرب ، راعيت فيها أن تكون ممثلة لا لأغراضه الشعرية ـ فهذا هو موضوع الفصل الثالث ـ بل لمواقعها في الديوان من حيث أنها ذات

عنوان أو مرسلة.

والقصائد الثلاث هي:

(١) القصيدة رقم ١ ص ١٣ وهي من القصائد غير المعنونة.

(٢) القصيدة رقم ٣٣ ص ٢١٤ وقد اكتفى في تقديمها بذكر الإطار الخارجي للشاعر عند نظمها.

(٣) القصيدة رقم ٣٨ ص ٢٤٠ وهي من القصائد المعنونة عنونة كاملة بذكر موضوعها، ومن قيلت فيه، ووقت نظمها.

القصيدة الأولى

(١) كم أرجع الزفرات في أحشائى ... وإلامَ في دار الهوان ثوائي

(٢) لم يبق منى من مساورة الأذى ... والضيم غير حشاشةٍ وذَماء

(٣) في دار قوم لورآهم مالك ... وهم بأحسن منظر ورواء

(٤) لرثى لأهل النار كيف يراهم ... وهمُ لهمْ فيها من القرناء

(٥) ثكلتهم الأعداء إن حياتهم ... غم الصديق وفرحة الأعداء

(٦) أموالهم لذوي العداوة نهُبة ... وعن المكارم في يد الجوزاء

---

(١) الثواء: الإقامة.

(٢) المساورة: المواثبة

الحشاشة: البقية القليلة من الشيء

قال ذو الرمة:

فلما رأين الليل والشمس حية ... حياة التي تقضى حشاشة نازع

ويقولون: مابقي من المروءة إلا حشاشة تتردد في أحشاء محتضر. أما الذماء فبقية الروح خاصة.

(٣) الرواء هو حسن المنظر، فالقافية مجلوبة لإقامة البيت وزناً وقافيةً، لامعنىً، وهو عيب لايقع فيه غالبا إلا الشعراء أصحاب المعجم اللغوي المحدود.

(٧) لايعرف المعروف في ساحاتهم إلا كما يُحكى عن العنقاء

(٨) جَلَدُ الجمال على الهوان وفيهم ضعف الدَّبا وتلون الحِرْباء

(٩) وإذا انتدْوا بحثوا البَذَا فكأنهم دُجَج تباحث عَذْرة بفضاء

(١٠) عُمْى عن الإحسان إلا أنهم أهدى إلى لؤم من الزرقاء

(١١) صُمٌّ عن الحسنى ولكن طالما سمعوا كلام الحكل في العوراء

(١٢) جعلوا المِحال إلى المُحال ذرائعا تغنى عن البيضاء والصفراء

(١٣) عجبا لهم وذوو النهى ما إن ترى عجبا سوى ماهال قلب الرائى

(١٤) أنف بأعنان السماء مُظَلَّة واست تُوَبع في قرار الماء

(١٥) ويفاخرون بمعشر درجوا ولم تدرج جبال الرمل بالبيضاء

(١٦) هبهم أبوتهم ولكن الخرا مع خبثه يُنمى إلى الحلواء

(١٧) ليس العظاميُّ الفخار بمدرك شرفاً بباقي رمة كهباء

(١٨) لكن عصامي كفته نفسه شرف الجدود ومفخر الآباء

---

(٧) العنقاء طائر خرافي لم يوجد، ومثله في ذلك الغول حقيقةً والخل الوفي ادعاء ومبالغة.

(٨) الجلد: القوة والشدة قال الفراء: الجلد من الإبل: التي لا أولاد معها فتصبر على الحر والبرد (اللسان جـ ٣ ص ١٢٥، ١٢٧).

والدبا: الجراد قبل أن يطير، وقيل الدبا: أصغر مايكون من الجراد والنمل (اللسان جـ ١٤ ص ٢٤٨).

والحرباء: ضرب من الزحافات تتلون في الشمس ألوانا مختلفة.

(٩) البذا: الفحش، والدجج: جمع الدجاج.

(١٠) الزرقاء: هي زرقاء اليمامة كانت العرب تضرب الممثل بها في قوة الإبصار، والقدرة على الرؤية من بعيد ولهم في ذلك حكايات كثيرة.

(١١) حكل الكلام هو الكلام الذي لايفهم، والحكل من الحيوان: ما لا يسمع له صوت كالذر والنمل (اللسان جـ ١١ ص ١٦٢).

(١٢) المحال ـ بكسر الميم: الكيد والمكر، والبيضاء والصفراء؛ الفضة والذهب.

(١٤) في اللسان جـ ٨ ص ٣٧٩: أنبق الرجل: إذا خرجت ريحه ضعيفة، فإن زاد عليها قيل: عفق بها ووبع.

(١٧، ١٨) العظامي الفخار: من يفتخر بآبائه وأجداده، أما العصامي فهو من يعتمد على نفسه في بناء مجده، وفي المثل كن عصامياً ولاتكن عظامياً (اللسان جـ ١٢ ص ٤٠٨).

(١٩) مـا للعِـظَام وللفخَـارَ وكلهـم ... في سربـه كـبـليـة عـمـيـاء
(٢٠) خـلوا الفِـخـار لمعشر أولـوكـم ... ذلَّ الهـوان بـغـلظة وجـفـاء
(٢١) مسحوكم كالضبع حتى أو ثِقت ... جـدُد الجبـال بـرجلهـا الـعـرجـاء
(٢٢) وتبـادروهـا بعـد مسحهم لها ... سحبـا عـلى البـوغـاء والحـصبـاء
(٢٣) والـذبح غـايتها وهـل ذو إحنـة ... يـرضى بـدون الخـطة الـشـنـعـاء
(٢٤) ما فخر فدم ماله في ملكه ... لـوشـاء من أخـذ ولا إعـطاء
(٢٥) ما جمعوا من سكة مأبورة ... أو مـهـرة مـأمـورة غـراء
(٢٦) فلكل شاوي وراعي هجمة ... جـاف خبيث العَرْف والشحنـاء
(٢٧) وبقيـة المـال المحـرز قسـمـة ... أرثـيـة في أعْـبُـدٍ وإمـاء

(٢٨) يا للرجال ألا فتىً ذو نجدة ... يحمى بمنصله عـلى العـليـاء
(٢٩) تالله أقسم لو دعوت بندبتي ... حـيًّـا لـلبـى دعـوتى ونـدائـى
(٣٠) لكنني ناديت موتى لم تـزل ... أشبـاحهـم تمشى مـع الأحيـاء

---

(١٩) البلية: التي أعيت وصارت نضوا هالكاً، والبلية أيضا الناقة أو الدابة التي كانت تعقل في الجاهلية: تشد عند قبر صاحبها لاتعلف ولاتسقي حتى تموت (اللسان جـ ١٤ ص ٨٦).
(٢١) المسح: القول الحسن ممن يخدعك.
(٢٢) البوغاء: التراب الناعم.
(٢٣) الإحنة: الحقد والغضب.
(٢٤) الفدم: العيى عن الكلام وهو أيضا: الغليظ الأحمق الجافي.
(٢٥) السكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: الملقحة. أما المهرة المأمورة فهي النتوج الولود (اللسان جـ٤ ص٣، ٢٨).
(٢٦) الشاوى: راعى الشاء.
والهجمة من الإبل: أولها الأربعون إلى ما زادت.
وقيل: ما بين السبعين إلى المائة أو إلى دوينها.
(٢٨) المنصل: السيف.

(٣١) ألفوا الهوان فلو تناءى عنهم لسعوْا لبغيته إلى صنعاء

***

(٣٢) لله قوم من ذؤابة جعفر لم يغمضوا جفنا على الأقذاء
(٣٣) لما رأوها أنها هي صمموا تصميم تغلبَ وائِل الغلباء
(٣٤) حتى سقوا عللا صدور سيوفهم عَلَقاً يُبرِّد غُلة الشحناء
(٣٥) تركوا كُليباً في مئينٍ أربع جزرًا قبيل تنوُّر ابن ذُكاء
(٣٦) فهناك طابت خيبر واستبدلت من بعدها السراءَ بالضراء
(٣٧) ما ضر أشباه الرجال لوانهم فعلوا كفعل أولئك النجباء
(٣٨) فالموت خير من حياتهم التى كحياة نون بات في بهماء
(٣٩) أو هاجروا في الأرض فهي عريضة فالتيه خير من حمى الأحساء
(٤٠) لكنهم مثل القنافذ إذ ترى الـ عُقبان تستلقى على الأقفاء
(٤١) يا حبذا بقر العراق فإنها لأشدُّ محميةً وخير وفاء
(٤٢) كم جدَّلت من ضيغم بقرونها وافي ليقهرها على الأبناء
(٤٣) بل حبذا طير يعوم بمائها طورا ويرعى النجم بالصحراء
(٤٤) ما رامه البازيُّ منه بسطوة فحمته شوكة مخلب حجناء
(٤٥) بل يعتورْنَ قذاله فإذا امتلى سكْرًا ونال الضيمَ بعد إباء
(٤٦) جزَّرْنَه فقَسَمْنَه حتى قضى فى لُجةٍ مسجورة الأرجاء

***

---

(٣٢) جعفر: لعله جعفر بن أبي طالب ويكون هذا البيت من الذرائع التي تذرع بها من قال بتشيع علي بن المقرب.
(٣٣) تغلب: قبيلة من ربيعة، والغلباء: العزيزة الممتنعة.
(٣٤) النهل: الشربة الأولى، والعلل الشربة الثانية والعلق: الدم.
(٣٨) النون: الحوت، والبهماء: الفلاة لا يُهتدي فيها.
(٤٤) الحجناء: المعوجة.
(٤٥) القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.
(٤٦) الشملة الوجناء: الناقة السريعة القوية.

(٤٧) يا صاح قد أزف الرحيل فقر بن ... لـلسـير كـل شِمِـلَّةٍ وجْـنـاء
(٤٨) ما عذر حر في المقام ببلدة ... آسـادهـا ضرب مـن المـعـزاء
(٤٩) لا بالرجال ولا الجواميس اقتدوا ... عـدمـوا الحيـاة ولا بـطير المـاء
(٥٠) فـالبر أوسـع والمناهـل جمـة ... والبعـد مقـترب عـلى الأنضـاء
(٥١) وبجانب الزوراء لي مستوطن ... إن شئت أو بـالمـوصـل الحـدبـاء
(٥٢) في حيث لا ألقى الحسود أخاشجى ... تـغـلى مـراجـله عـلى الخـلطاء
(٥٣) وبحيث إخوان الصفاء يضمها ... حسن الـوفـاء وشيمـة الأدبـاء

***

خواطـر الشـاعـر(*)

احتـوت هذه القصيـدة على خـطرات جزئيـة يـطول استقصـاؤهـا لو حاولنا ذلك، ففي كل بيت، وربما في كل شطر خـاطرة، وقـد تتعدد الخواطر في البيت الواحد، وفي المقابل نجد التضمين وهو تعاون البيتـين المتجاورين على أداء خاطر واحـد، وقصيدتنـا تسعفنا بكـل ذلك، ففي بيتهـا الأول خاطـرتان، ذهب كـل شطر فيـه بخـاطـرة، والبيت الثـاني خـاطرة واحـدة، وفي البيتين الثـالث والرابـع تضمين، وهـذا يعنى أنهما

---

(٥٠) الأنضاء: جمع النضو ـ بكسرن النون ـ وهو البعير المهزول.

(٥١) الزوراء: بغداد، والحدبة أو الحدب: المكان المرتفع من الأرض تقـول: نزلـوا في حدب من الأرض وحـدبة وهـو النشز ومـا أشرف منها قـال الله تعـالى: «وهم من كـل حـدب ينسلون»، وحدب الرمل هو ما جاءت به الريح منه فارتفع (أساس البلاغة مادة حـدب ص٧٥).

(*) آثرت كلمة (خواطر) على غيرها، لأنها تشمل الأفكار والمشاعر وهما من العناصر الأساسية في التجربة الشعرية، جاء في أساس البلاغة مادة (خطر) ص١١٥: «خطر ذاك ببالي وعلى بالي، وله خطرات وخواطر، وهو ما يتحرك في القلب من رأى أو معنى».

يعبران عن خاطر واحد، ومثلهما البيتان ٢٥، ٢٦ والبيتان ٤٥، ٤٦ أما تعدد الخواطر في البيت الواحد فيمكن التمثيل له بالبيت ٥٠ من القصيدة.

⁂

ولأن الخواطر الجزئية في أية تجربة شعرية تكون كثيرة يطول الوقوف عندها ويصعب مع ذلك حصرها، فقد عمدت، ـ وسأعمد دائماً ـ إلى تجميعها وإبراز المتشابه منها في خواطر كلية لا يطول الوقوف عندها ويسهل مع ذلك حصرها، ومن هذا المنطلق يأتي حصر الخواطر الكلية للتجربة الشعرية الأولى في ديوان ابن المقرب على الوجه الآتي:

١ ـ شكاة الشاعر (البيتان ١، ٢).
٢ ـ إطاره الاجتماعي ووصفه لهذا الإطار (البيتان ٣، ٤).
٣ ـ دعاؤه على قومه وهجاؤه لهم (الأبيات ٥ ـ ١٤).
٤ ـ تشكيكه في نسبتهم إلى ربيعة (البيتان ١٥، ١٦).
٥ ـ رأيه فيما يكون الفخر به (الأبيان ١٧ ـ ١٩).
٦ ـ زجره قومه على فخرهم بما لا يحق لهم الافتخار به، ونصحه التهكمي لهم بأن يتركوا ذلك لأعدائهم الذين غرروا بهم وأذلوهم (الأبيات ٢٠ ـ ٢٣).
٧ ـ تعجبه من فخر الأغبياء بما لو عقلوا ما افتخروا به. (الأبيات ٢٤ ـ ٢٧).
٨ ـ استنهاضه الهمم لحماية العلياء ثم تيقنه بأن من يستنهض هممهم ما هم إلا أشباح متحركة (الأبيات ٢٨ ـ ٣١).
٩ ـ ثناؤه على قوم من ذؤابة جعفر وإعجابه ببطولتهم (الأبيات ٣٢ ـ ٣٦).
١٠ ـ مجابهته أشباه الرجال بأنهم لم يسلكوا مسلك أولئك الأبطال،

وكان خيرا لهم أن يهاجروا في الأرض سترا لعارهم (الأبيات ٣٧ ـ ٤٠).

١١ ـ سخريته من قومه بتفضيله بقر العراق وطيره عليهم (الأبيات ٤١ ـ ٤٦).

١٢ ـ وشك رحيله عن الأحساء، لأن آسادها أي عليتها ضرب من المعزاء (الأبيات ٤٧ ـ ٥٠).

١٣ ـ عزمه على الاستيطان ببغداد أو بالموصل (الأبيات ٥١ ـ ٥٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

السـطوح والأعمـاق

لم يلق الشاعر ما مر من خواطر إلقاءً ارتجالياً خطابياً فيه من الاندفاع والتشدق أكثر مما فيه من التريث والتعمق، لا، وإنما ألقاها إلقاءً غنائياً موقعاً على أوتار نفسه الحزينة المستكينة قليلاً، والمغيظة المحنقة كثيراً، نراه مبهوراً مقهوراً في البيت الأول، ومخبراً عن سقمه وضعفه بسبب مساورته لأحداث حياته في البيت الثاني، وإذا كان قد أمدنا بهذه الرؤية القاتمة له في صورة تقريرية وبألفاظ حقيقية، فإنه قد أزجاها بـ (كم) الخبرية للتكثير أولا، وبالاستفهام الإنكارى ثانياً، وبتشخيصه الأذى والضيم لتصح مساورته لهما ثالثاً، وبالمبالغة التي وصلت إليه من أستاذيه أبي تمام والمتنبي رابعاً وأخيراً.

***

وما قلناه في البيتين ١، ٢ نقوله في البيتين ٣، ٤ لولا هذه الصورة الافتراضية التخييلية لمالك الذي لو قدر له أن يخرج إلى الدنيا ويرى قوم ابن المقرب لعقد مقارنة بينهم وبين أهل النار الذين يعذبون في أقل مما يرتكبه هؤلاء العاصون.

***

ويدخل بعد ذلك في قضية معكوسة وهو يدعو عليهم بفقد أعدائهم لهم ونعجب نحن من ذلك، لأن المفروض أن تكون حياتهم نقمة ـ لانعمة ـ على أعدائهم، لكن لَمَّا كان واقع أمرهم خلاف ذلك دعا عليهم بفقد الأعداء لهم.

وليفِّهمنا، أو ليزيل عنا دهشتنا فسَّر دعاءه أو بـرره إجمالا بمـا ذكره بعده من أن حياتهم غم الصديق وفرحـة الأعداء، ثم فسره أو قـل برره أكـثر بما هجـاهم به في الأبيـات من ٦ إلى ١١ وفيها من تـداعى المعـاني بالمقابلة، ومن إخراج المعنوى في صورة الحسى ما يجعـل الصورة العـامة لقومه قبيحة ومزرية، وبحسبهم أنهم بخلاء، الكرم عندهم كـالعنقاء، وهو تشبيه متوسط الدرجة بلاغياً، أما فنيـاً فقد جـاء محكماً معلما، لأنـه أبرز بخلهم وفضحهم.

ويسـترسل في مقـابلاتـه الدامغـة لهم بالتنـاقض في سلوكهم، وفي تشبيهـاته الكـاشفة عن مخـازيهم ومثالبهم من الهـوان والضعف والتلون ومن وقوعهم في الفحش قولا وعملا.

ومن الانحراف في أخلاقهم، بـل من الخلل في طباعهم أنهم عمى عن الإحسان أما اللؤم فهم لملابستهم له وحلولهم فيه أبصر به من زرقاء اليمامة، والسمع كالبصر في تعطيله أو في انتكاسه بتوظيفه في غيرما أنعم الله به على عباده من أجله، وهم وصوليون (مكيافيليـون) يهود. الغـاية عنـدهم تبرر الـوسيلة، وإذا كان أصحـاب النفوس الضعيفـة يـرشـون بالذهب والفضة، فإن قوم ابن المقرب مستغنـون عن ذلك بمـا فيهم من لؤم وختـل وبما عنـدهم من كيد ومكـر، ونصـل في القصيـدة إلى صـور (كاريكاتورية) مضحكة وهى صور مادية ومعنوية ومـزدوجة: مـادية في البيت ١٤ ومعنـوية في البيت ١٥، ومـادية معنـوية معـا في البيت ١٦، أظهرهم في البيت ١٤ وقد سدوا الأفق، وملأوا ما بين السماء والأرض، والمضحك في الصورة أنهم وهم يزحمون النجوم بأنـوفهم يزكمـون أنوف غيرهم بضراطهم.

وفي البيت ١٥ جعلهم يفـاخرون بمن مـاتوا قبـل أن تتكون جبـال الرمل في بلادهم وهو تأريخ بالطبيعـة أو بعملها البـطىء في إنتاج ثمـرة عظيمة من ثمارها هي أوتاد الأرض.

وبعد أن يشكك في نسبتهم إلى أجدادهم المتسامين بمجدهم يسلم جدلاً بانتمائهم إلى هؤلاء الأجداد، لكن أليس هؤلاء الأجداد بشرا؟ بلى إنهم بشر يأكلون الطعام وليسوا آلهة منزهة عن الإفراز، وما هؤلاء الأحفاد إلا هذا الإفراز.

وفي لفتة بديعية قائمة على ما في (عظامي) و (عصامي) من طباق وجناس ونغم من خلال هذا الركام البديعي المكثف يقول الشاعر رأيه فيما يكون به الفخر، وهو مع العصاميين أصحاب الكفاءات الذاتية، أما العظاميون فهم خائبون لايدركون شرفا ولا يحققون مجداً، لأنهم يتوسلون إلى ما يريدون ببقايا الرمم، ولا يكتفي بالمباعدة بين الفخار والعظام، بل ينكر على المفتخرين تقوقعهم في مواقعهم وعدم تحركهم في اتجاه الحياة طلبا للنجاة، وما أشبههم في ركودهم وجمودهم وسلبيتهم بالبلية العمياء، والبلية العمياء صورة تراثية جاهلية، فهي تعنى الناقة أو الدابة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها وتترك بلا ماء ولاغذاء حتى تموت وقد أبان بذلك عما في نفسه نحو قومه من سوء رأيه فيهم، ومن احتقاره لهم.

وفي شيء غير قليل من السخرية اللاذعة والمفارقة الموجعة يطلب منهم أن يدعوا الفخر لهؤلاء الذين خدعوهم وأولوهم الذل والهوان في غلظة وجفاء.

وصوره لاتفارقه. فبها يريش سهامه المصوبة إلى مقاتل قومه، وقد صورهم في حمقهم بالضبع، والضبع من الحيوانات التي تضرب العرب بها المثل في الحمق، مما حكوه عن حمقها أن صائدها يقول لها وهي في كنها: خامرى أم عامر، أبشرى بجراد عضال وكمر رجال، فلا يزال يقول لها ذلك وهي تسكن وتنقاد حتى يدخل عليها ويربط فمها

ورجليها ثم يسحبها ويوثقها من رجلها التي توجعها فلا تستطيع فكاكا ولا حراكا[1].

ولنلتفت إلى حسن الصنعة في جعل جدد الجبال هي الموثقة بالحبال إلى الضبع، الصورة مقلوبة، فالحاصل هو العكس، لكن ذكاء الشاعر وخياله المبدع قد مكناه من أن يضرب عصفورين بحجر واحد ولولا أن الأمثال لا تغير لقلت: ببيت واحد، أما العصفوران فأحدهما هو الإيحاء بأن الضبع محكمة الوثاق جداً، والآخر بيان حال قومه، فما هم في شعور الشاعر وشعره إلا تلك الضبع.

وينتقل من قومه بعامة إلى الأعيان منهم بخاصة، وإلى حاكمهم على وجه أخص.

وإذا كنت قد تحركت بهم صعوداً، فإنه قد تحرك بهم هبوطاً، بدأ بملكهم فوصفه بأنه غبى لايملك من أمر ملكه بل لا يملك من أمر نفسه قليلاً ولاكثيرا، دليل ذلك أن المال الذي حازه هو وقومه من نخل ملقح، ومن خيل ولود، فمآله إلى هؤلاء الرعاة الخبثاء روحا ورائحة، وما تبقى من المال بعد النخل والخيل فهو قسمة إرثية في الأعبد والإماء.

يدمدم ذلك كله بشناعته وبشاعته على قلب الشاعر وروحه فيفور فائره وتثب مشاعره في قفزة نفسية يتوهمها مجدية، وذلك إذ يستغيث بالرجال، ويتمنى الفتية ذوى النجدة، ليذود بهم ومعهم عن العلياء، لكنها صرخة في واد، فما هؤلاء وهؤلاء إلا موتى، ولاتخدعك أشباحهم التي ألفت الهوان واستمرأته.

***

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٢١ مصر ١٣٢٦هـ وانظر هامش رقم ٢١ ص ١٥ من الديوان.

ويعجبه موقف بطولى لقوم من ذؤابة جعفر، ونفهم من سياق الكلام أنهم كانوا قد تعرضوا لبعض ما تعرض له قوم ابن المقرب، لكن شتان ما بين رد الفعل هنا وهناك، وإذا كان قوم ابن المقرب قد ألفوا الهوان، فإن هؤلاء القوم من ذؤابة جعفر (لم يغمضوا جفنا على الأقذاء) هذا كلامه، صدر به صحيفة بطولتهم عنواناً لها وإجمالا لأحداثها وبراعة استهلال قال: لما تبين هؤلاء الأبطال أنهم في موقف الامتحان وأن رجولتهم في الميزان، صمموا تصميم تغلب وائل وهى قبيلة من ربيعة كانت غلباء أي عزيزة ممتنعة.

(تصميم تغلب وائل) مفعول مطلق مبين لنوع التصميم كأنه قال:

صمموا تصميم الأبطال. لكن على أي شيء صمموا؟.

لم يذكر الشاعر ذلك، قصداً إلى الإبهام والتعميم، وإيحاءً بأنهم قد صمموا على شيء عظيم، وهذا ما كان، فقد أوردوا سيوفهم دماء أعدائهم، وكرروا ذلك عليهم حتى اشتفوا، وما مضوا إلا بعد أن جندلوا فارسهم كليبا وتركوه جزراً للطيور والسباع في أربعمائة قتيل.

وبعد هذا يقف ابن المقرب وقفة تأملية شعورية يفكر فيها في قومه ويجتر ألمه وتطول به الوقفة حتى يقطعها الإرسال الشعري ببشه، فنراه لاهثا يجرى في اتجاه عكسى مع الزمان بتمنيه خلاف ماكان، وينهك ثم يحبط فيدمدم مستأنفا هجاءه هادئا أول الأمر، فلم يزد على أن سماهم (أشباه الرجال) ثم بركانا من الحمم بعد ذلك لانستطيع التعبير عنه إلا بقوله:

لكنهم مثل القنافذ إذ ترى الـ عقبان تستلقى على الأقفاء

وهي صورة بشعة فيها من المرارة والسخط بمقدار ما فيها من الهزء والسخرية.

***

وإذا كان قد وقف بهم في البيت السابق على الأعراف بين عالم الإنسان وعالم الحيوان، فإنه لم يلبث أن دفعهم، وكدت أكتب (ركلهم) حتى غيبهم في عالم الحيوان وجعلهم أقل قيمة من بعض فصائله، ها هو ذا يوازن موازنة ضمنية بينهم وبين بقر العراق وطيوره المائية مسجلا لهذه الفئات من عالم الحيوان غيرتها على حرمهاوبلاءها في الدفاع عن نفسها وأولادها، أما البقر فقد جندل الأسود المهاجمة، وأما طير الماء فما زال بالبازى المغير حتى قتله شرقتله.

***

لكن ماذا بعد أن امتلأت نفس الشاعر باليأس من القنافذ أشباه الرجال؟.

لا شيء سوى أن يريح نفسه منهم بالرحيل عنهم.

ويضع هذه الفكرة موضع التنفيذ فيلتمس من صاحبه أن يحضر له النوق السريعة القوية.

وعلى الرغم من أنه مشغول بنفسه وبرحلته، نراه مسترسلاً في إعطاء الصور المزرية بقومه، ولا عجب، فهو لم يرفع عنهم عينه، كما لم يكف عنهم لسانه.

انظر إليه وهو يدمغهم بأن آسادهم ضرب من المعزاء، وأنهم لم يقتدوا بالرجال ولا بالجواميس ولا بطير الماء، فلا مناص من الرحلة إذن إما إلى بغداد، وإما إلى الموصل حيث السلام الاجتماعي، وحيث إخوان الصفاء من الأدباء الأوفياء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخيـــــال

في رأيي أن الصورة ـ شعريـة كانت أو غـير شعريـة ـ إنما هي بنت الخيـال وحفيدة العـاطفة، فـالعـاطفـة مصمتـة وكـذلـك الخيـال، إنهما لا يبينان لنا إلا من خلال الصورة. أنا أحب شيئاً ما، مادياً أو معنويـاً، هـذا الحب عاطفـة، وهي شيء مخبوء في ضمـيري لا ينكشف لغـيري، وتتحرك هذه العـاطفة فيَّ فـأتخيل أن من أحبـه أو ما أحبـه ملكاً أو مثـلاً أعلى في قيمته وقدرته، أي أتخيله فوق ما هو حقيقةً، كل ذلك داخـلي، أي بيني وبين نفسي، حتى إذا صورته أي عبرت عنه بالصورة:

كلاما أو رسما أو نغما أو حـركة، انتقـل مني إلى غيري. لكن متى؟ بعد أن يكون قد فارقني، وبعبارة فلسفية: انتقل من الجوانية إلى البرانية فاستقبله الناس وعقلوه أو أحسوه، عندئذ وعندئـذ فقط تكون العـاطفة قد بانت، ويكون الخيال قد انكشف.

وهذا يعني أن دراستنا للصورة الشعرية: كلية كانت أو جزئية، إنما هي انـطلاق منها إلى مـا وراءها من خيـال وعـاطفـة، وبهـذا لا يكـون الوقوف عند الصورة وقوفاً عند الشكل فقط، بل وقوفا ـ مع ذلك ـ عند مضمون هذا الشكل وهو العـاطفة، ومـا فجرتـه في نفس صاحبهـا من خيال ولَّد تلك الصورة بهيئتها التي جاءت عليها في الأثر الفني.

وإذا كـان كروتشـه قد قـال: «إن العاطفـة بدون صـورة عميـاء، والصورة بدون عاطفة فارغة»[1] فإنني أرد عليه بالآتي:

---

(١) المجمل في فلسفة الفن. ترجمة سامي الدروبي طبعة القاهـرة سنة ١٩٤٧، ص ٥٥ وانـظر =

١ ـ بالنظر إلى المتلقى نقول: لاعاطفة بدون صورة، فعاطفة الفنان بالنسبة لمتلقى الفن معدومة مالم تُصور، ومالم تُصور فإنها لا تصل إليه ولا توجد عنده، ولولا أن الإنسان يشعر ويفكر باللغة ـ داخلياً ـ لقلنا الشيء نفسه عن مبتكر الفن ومرسله، فالفرق بينهما أن الصورة عند الفنان موجودة بالقوة أو بالفعل، وعند المتلقى موجودة بالفعل فقط.

٢ ـ ليست العاطفة وحدها فيما قاله كروتشه، إن الخيال معها في ذلك حتما، لسبب بسيط جداً وهو أنه المعبر عنها بذاته داخلياً وبوساطة الصورة خارجياً، وفي جميع الأحوال لا توجد عاطفة بدون خيال، بل مادامت هناك عاطفة فهناك خيال يفسرها.

٣ ـ لاتوجد صورة فارغة، لأن الصورة قبل أن تكون تعبيراً عن شيء هي نتيجة لشيء ـ والذي لم يتنبه إليه كروتشه أن ما تعبر عنه الصورة إنما هو أصل الصورة، ومادامت قد وجدت فهذا يعنى أن وراءها بل فيها ما أوجدها وهو الخيال بطريق مباشر والعاطفة بطريق غير مباشر.

ونوضح ذلك أكثر فنقول: إن الصلة بين العاطفة والخيال من ناحية والصورة الشعرية من ناحية، إنما هي صلة الأصل بالفرع طرداً وصلة الفرع بالأصل عكساً هكذا.

العاطفة ← الخيال ← الصورة

وبشيء من التجوز يمكن القول بأنها صلة عضوية حية.

ومع أن الصورة ليست مقصودة لذاتها، تظل هي الشيء المادي

= قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث للدكتور محمد زكي العشماوي طبع دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٩ صفحتى ٢٨، ١٠٣.

الماثل أمامنا والمحسوس لنا، والذي نستطيع أن نفرغه مما فيه من خيال وعاطفة حين نحول المنظوم إلى منثور فنقول: إن هذه الصورة تدل على أن الشاعر يحب أو يكره، وأنه فرحان أو حزين، راض أو ساخط، إلى غير ذلك مما كان في الأصل شعوراً داخلياً، وجوانية خفية.

والفضل للخيال في هذا المجال، فهو القوة الديناميكية المحركة للعاطفة في اتجاه الصورة لتلبسها وتحل فيها، وللصورة في اتجاه العاطفة لتحتضنها وتحتفظ بها.

وبعبارة أخرى: هو الذي يطوع العاطفة للصورة ويطوع الصورة للعاطفة، والنهاية السعيدة لهذه العملية تجربة شعورية حية وصورة شعرية ناجحة.

ونعود إلى ما كنا فيه قبل كروتشة لنؤكد أن الصورة أية صورة لا بد أن تكون معبرة، والفرق بين صورة وصورة إنما هو فرق في الدرجة، فالصورة في كل الأحوال مركبة، وهي تختلف باختلاف تركيبها وتنقسم تبعاً لذلك إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ صورة حسية وهي المركبة أصلا من محسوسات.
٢ ـ صورة معنوية وهي المركبة أصلا من معنويات.
٣ ـ صورة حسية معنوية وهي المركبة من محسوسات ومعنويات.

والتشكيل الفني للصورة هو الذي يعطيها قوتها ودرجة جودتها أي بصرف النظر عن أن تكون حسية أو معنوية أو حسية معنوية، ونفتح ديوان ابن المقرب عشوائياً فنقرأ:

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب ... لنسأل ذاك الحى ما صنع السرب
عسى خبر يحيى حشاشة وامق ... صريع غرام ما يجف له غرب

هذان البيتان يعطيان صورة شعرية مركبة أساساً من أمور حسية،

ولو قرأهما رسام ما هر فاسترسل معهما وانفعل بهما لأمكن له أن يحولهما إلى لوحة فنية قد تكون أقوى تعبيراً وأعمق تأثيراً من أصلهما الشعرى أو من أصلهما في الطبيعة.

ومثل البيتين السابقين الأبيات الآتية فهى تعطي مجموعة من الصورة الحسية الجزئية تعاونت فكونت صورة شعرية كلية:

وبيضاء مثل البدر حسناً وشارة ... يزين بها السِّبُّ المزبرق والإتْبُ
إذا ما نساء الحي رحن فإنها ... لها النظرة الأولى عليهن والعَقْبُ
تحيرَّ فيها رائق الحسن فاغتدت ... وليس لها فيهن شكل ولاتِرْبُ
بدت سافراً من درب دينارٍ والصبا ... يرنحها والدل والتيه والعجب
رأتنى فأبدت عن أسيل وحجبت ... بذى معصم جَدْل يَغَص به القُلب[٢]

ولا نبحث في القصيدة التي معنا عن صورة شعرية معنوية، فلم ننسَ بعد قول شاعرنا في قصيدتنا الأصلية:

ثكلتهم الأعداء إن حياتهم ... غم الصديق وفرحة الأعداء

والصورة في هذا البيت معنوية، فالحياة والغم والفرحة أمور معنوية، هذا فضلاً عما في إسناد الثكل إلى الأعداء من تخييل يبرز الشعور ويحلق به في الآفاق الفنية عن طريق ما يسمى في البلاغة الاصطلاحية بالاستعارة المكنية.

بقيت الصورة الحسية المعنوية، ويمكن التمثيل لها بقول ابن المقرب عن (صريع غرام ما يجف له غرب) يعنى نفسه:

---

(٢) ديوان ابن المقرب ص ٢٦ - ٢٨. والسب والإتب من الأردية الخارجية للمرأة، فالسب: الخمار أو العمامة المعصفرة (الإ يشارب)، والإتب: ثوب يؤخذ فيشق في وسطه ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير جيب ولاكمين (روب نصف كم أو روب كتافى أي بحمالات). أما المعصم الجدل فهو الممتلىء، والقُلْب: سوار المرأة، وأصل هذه الصورة قولهم «هي خرساء الأساور» كناية عن السمنة.

بـأحشـائـه نـار اشتيـاق يشبـهـا ... زفـير جـوى يـأبى لهـا النـأى أن تخبـو
ألا لـيـت شـعـرى والحـوادث جمـة ... وذا الـدهـر سيف لا يقـام لـه عضب
عن الحي بـالجـرعـاء هـل راق بعـدنـا ... لهم ذلـك المـرعى ومـورده العـذب
وهـل بـعـدنـا طـاب المقـام لمعشر ... بحيث تـلاقى سـاحـة الحي والـدرب
وهـل عندهم من لـوعـة وصبـابـة ... كـما عندنـا والحب يشقى بـه الحِبُّ[٣]

نكتفى بمـا ذكـرنـا في انتـظار مـا سيقـابلنـا ممـا نصـل إليـه قصـداً لا عرضاً.

أما الآن فمع الخيال الشعري، أو مع الصورة الشعرية في قصيـدتنا مضموناً وشكلاً.

البيتان (١، ٢) بطاقة تعريف بالشاعر، قدم نفسـه لنا فيهـما وبهما، وقد رأيناه من خلالهما مبهوراً مقهوراً يتـوكأ عـلى نفسه المهيضـة وجسمه الواهن.

وفي مسـاورة الأذى والضيم تشخيض لهما بجعلهـما أسـدين طـالت مساورته لهما حتى لم يبق منه غير حشاشة وذماء كما قال.

هذا عن شكل الصورة، وهو شكل حسي في البيت الأول، وحسيٍّ معنوي في البيت الثاني.

أمـا مضمونهما فهـو مزيـج من الندم والسخط والاستبـطاء وإظهار الضعف والتحسر.

البيتـان (٣، ٤) وإذا كان البيتـان السابقـان صورة للشـاعر، فـإن هـذين البيتين همـا إطار هـذه الصورة وظـرفها الاجتـماعي، وهـو إطـار

(٣) المرجع السابق.

ضاغط، بل خانق، وسنجد الشاعر في نهاية تجربته الشعرية يعقد النية على مغادرته إلى المجتمع العراقي.

البيت (٥).

وفيه صورتان: صورة حسية أساسها الاستعارة المكنية في (ثكلتهم الأعداء) ومضمونها الإيحاء بأن حرص الأعداء على حياة قومه لانتفاعهم بها يبلغ في درجته وقوته حرص الأم على حياة ابنها.

ثم صورة معنوية قائمة على التشبيه البليغ في بقية البيت.

وإذا كان الطباق واضحاً بين (غم وفرحة) و(الصديق والأعداء) فإنه قد لا يكون واضحاً بنفس الدرجة فيما بين (ثكلتهم) و(الأعداء) علماً بأن كل كلمة منهما تحمل شحنة عاطفية مخالفة في نوعها لنوع الشحنة التي تحملها الكلمة الأخرى.

وكنا نأمل أن يترك الشاعر لخياله تفسير هذا الموقف، لأنه هو الذي شكله وأخرجه على هذه الصورة غير المألوفة، لكنه عوَّل على عقله في هذا التفسير، وترتب على ذلك أن جاءت الصورة الثانية تقريرية منطقية أكثر منها إيحائية شعرية.

البيت (٦).

وفيه وصف الشاعر أموال قومه بأن لها بعدين: أحدهما قريب ممكن والآخر بعيد غير ممكن، وقد جعل الأول من حظ الأعداء، والثاني من نصيب المكارم.

وبذل المال للمكارم أو في سبيل المكارم معناه إنفاقه في وجوه الخير المختلفة.

وقد شخص المكارم لمَّا جعلها في مقابلة (ذوى العداوة)، وشخص الجوزاء لمَّا جعل لها يدا تمسك المال وتنأى به عمن يستحقه ممن يؤول

عنده إلى مكرمة من مكارم المعطى.

البيت (٧).

وبه نفى الشاعر أريحية قومه بجعلها كالعنقاء في أن كلا منهما خرافة، وهي صورة بيانية أساسها التشبيه المبين عن درجة كزازتهم.

البيت (٨).

وهو يعطى صورة كلية مركبة من ثلاث صور جزئية.

وقد نجح الشاعر وهو يختار لصورته الكلية صوراً جزئية منسجمة، وهي منسجمة، لأنها من واد واحد هو التشبيه.

ثم نجح وهو يشكل هذه الصورة تشكيلاً فنياً قائماً على تداعى المعاني بالمقابلة بين جلد الجمال من ناحية، وضعف الدبا وتلون الحرباء من ناحية، وقد ساعد بذلك على جعل متلقى الصورة قادراً على حدس نهايتها في حالة حجب هذه النهاية عنه.

والنقد الأدبي والبلاغة يقدران ذلك جداً، فليس سهلاً أن يأخذ الشاعر بيد متلقى شعره وينتقل به من موقف المستقبل إلى موقف المرسل. إنه بذلك يجعله إيجابياً مرتين:

مرة بالتلقي، ومرة بالخلق الجزئي[٤].

***

(٤) تردد النقاد والبلاغيون في تسمية هذا الموقف بين أسماء كثيرة منها (الإرصاد) و(التسهيم) و(التوشيح) و(التوشيج) و(المطمع).
وهى تسميات دالة على ما قلناه.
انظر العمدة لابن رشيق جـ٢ ص٣١ ـ ٣٤ الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م
تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد مطبعة السعادة بمصر.
والإيضاح للقزويني ص٤٩٢ الطبعة الثالثة ١٣٩١هـ/١٩٧١م تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ومن منشورات دار الكتاب اللبناني.

وما أعطاه البيت الثامن تعطيه أبيات كثيرة في هذه القصيدة بل تعطيه أبيات كثيرة في شعر ابن المقرب بعامة، وفي شعر الهجاء الاجتماعي منه بخاصة.

مصداق ذلك ما نجده في البيت التاسع من أن قومه إذا انتدوا أي اجتمعوا في ناديهم ـ والاجتماع في النادي مظهر حضاري راق ـ لم يتصرفوا بمقتضى ذلك، بل خاضوا في لغو الحديث وبحثوا البذا والبذا: الفحش، لكأنهم:

دجاج لابشر
وفي فضاء لافي ناد

وتراهم يلوكون الكلام الخبيث وهم متحمسون له كأنه كلام طيب.

والصورة بهذا أو لهذا صورة شعرية معبرة، فقد جسدت شعور الشاعر أولاً، وأعطت إيحاء بجذور الشر الضاربة في أعماق قومه إلى مدى بعيد ثانيا.

***

ولا نقف عند الصورة الشعرية في أبيات الهجاء الباقية، لأنها ـ كسابقاتها ـ تحلق في الأجواء الفنية بجناحي التشبيه والمقابلة، لكننا سنقف عند الصور الشعرية القائمة على غير ذلك من ألوان البيان الأخرى.

ومن ذلك الصورة الشعرية المزدوجة في البيت ٣٤، والصورة الشعرية المزدوجة أيضا في البيت ٣٥.

ونبدأ بالبيت ٣٤ فنجد فيه خيالاً شعرياً قائماً على الاستعارة المكنية في صورتين: صورة أصلية، وصورة مكملة للصورة الأصلية، استرسالا في المبالغة، ومضيابها إلى ما يعرف في التصنيف النقدي باسم الغلو.

وقبل أن نوضح الصورتين اللتين اشتمل عليهما البيت ٣٤ ننبه إلى أن هذا البيت قد جاء نتيجة أو غاية للبيتين ٣٢، ٣٣ وفي أولهما نرى الشاعر مشدوها أو مأخوذاً ببطولة قوم من ذؤابة جعفر، لأنهم لما أريدوا

على الهوان (لم يغمضوا جفنا على الأقذاء) والعبارة الأخيرة وهي الشطرة الثانية من البيت ٣٢ كناية عن صفة عربية محمودة هي إباء الضيم وما يرادفه من الشموخ والأنفة والعزة، ولأنهم يتصفون بإباء الضيم وما يرادفه من الشموخ والأنفة والعزة، صمموا على التصدي لأعدائهم تصميم تغلب وائل، وهي قبيلة من ربيعة يدل تاريخها على أنها كان لها من اسمها أو في نصيب (هذا هو فحوى البيت ٣٣).

***

لم يتخاذل أولئك القوم من ذؤابة جعفر بل مضوا فيما صمموا عليه حتى، وبـ (حتى) هذه يبدأ البيت ٣٤ هكذا:

حتى سقوا عللا صدور سيوفهم علقا يبرد غلة الشحناء

وهنا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الصورتين اللتين سبقت الإشارة إليهما، الصورة الأصلية المنتهية في البيت بكلمة (علقا) أي دما، والصورة المكملة المتمثلة في وصف العلق بأنه (يبرد غلة الشحناء).

والصورتان واضحتان، فكلتاهما استعارة مكنية قائمة على التشخيص وهبة الحياة: في الأولى لشيء مادي هو السيوف التي شربت من دماء الأعداء حتى ارتوت.

وفي الثانية لشيء معنوي هو الشحناء التي شفاها وبرَّد غلتها ذلك الدم.

وأراني بعد مستغنيا عن الإشارة إلى إيجابية الصورتين ونجاحهما في أداء المهمة التي أرادهما خيال الشاعر على أدائها وهي التعبير بطريقة إيحائية عن شجاعة هؤلاء القوم من ذوابة جعفر ورجولتهم، وأنهم حقاً أباة للضيم، وليسوا (أشباه رجال) أو (مثل القنافذ) أو غير ذلك مما ألصقه الشاعر بقومه.

***

ولن يتعبنا البيت ٣٥ بصورتيه المشعتين :

صورة الأعداء المجندلين وقد تركهم الأبطال من ذؤابة جعفر جزراً، والجزرة: الشاة المذبوحة، وإذا كنا نجزر الأنعام لنأكلها، فإن هؤلاء الأعداء المجزوين قد تُركوا ولم يدُفنوا ليكونوا جزراً لكواسر الطير ووحوش البراري.

هذا الانتصار المؤزر لأولئك الأبطال من ذؤابة جعفر.

كم أخذ من وقتهم؟

أقسم الله جل جلاله بالمغيرات صبحا في سورة العاديات فقال عز من قائل:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ﴾. والصبح في لغتنا هو ما بعد منتصف الليل، نقول بعده بساعة: الساعة الواحدة صباحاً، وفي أساس البلاغة: يقال للنائم أَصْبِحْ أي استيقظْ، وقد أصبح القوم إذا استيقظوا، وذلك في جوف الليل (مادة صبح ص ٢٤٧).

ونرتب على ماسبق أنه إذا كان القوم من ذؤابة جعفر قد بدأوا حربهم مع عدوهم بعد منتصف الليل، فإنهم قد فرغوا منهم وخلفوهم وراءهم جزراً قبيل تنور ابن ذكاء.

ذكاء هي الشمس، وابنها هو النهار، وتنوره يعنى تألقه بالضوء أي فجره الصادق قال تعالى: **﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾**(٥).

وينتهى هذا بنا إلى أن المعركة كانت خاطفة، ماكادت تبدأ حتى انتهت، وفي هذا إيحاء بأن درجة شجاعة قوم جعفر كانت عالية، دلنا

---

(٥) الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

على ذلك كله هذا التوقيت الكنائى بمظهر من مظاهر الطبيعة هو انبثاق النهار في صورة شعرية جميلة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الموســـــيقى

موسيقى الشعر مزدوجة: شقها الأول خارجي هو الوزن والقافية. والوزن هو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت، والبيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية، وإنما كان الوزن من الموسيقى الخارجية، لأنه أول مانحسه من القصيدة عند قراءتها أو سماعها.

وقد ربط بعض الباحثين بين موضوع القصيدة ووزنها، وواقع الشعر العربي لايؤيد ذلك، فالمعلقات ـ وهي تكاد تتفق في موضوعها ـ قد جاءت من الطويل والبسيط والسريع والخفيف والوافر والكامل، كما جاءت المراثي في المفضليات من الكامل والطويل والبسيط والسريع والخفيف، كل ما هنالك أن الشاعر «قد يقع على البحر ذي التفاعيل الكثيرة في حالات الحزن لاتساع مقاطعه وكلماته لأناته وشكواه، محبا كان أوراثياً، ولهذا كانت البحور الغالبة في الأغراض القديمة هي الطويل والكامل والبسيط والوافر، وقد تنفعل النفس أو تطرب لداع مفاجيء فتلجأ إلى البحور المجزوءة أو إلى بحور الخفيف والمتقارب والرمل[1]».

لكن هذا ـ لعدم اطراده ـ لايخرج عن كونه ملاحظة جزئية لاترقي إلى مستوى القاعدة، « فكل بحر قالب عام يستطيع الشاعر أن يضفي عليه الصبغة التي يريد بما يصب فيه من عبارات وكلمات ذات طابع

---

(١) المدخل إلى النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٥٣٥ الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٢م.

خاص »[٢].

***

وإذا جاز لنا أن نعد الوزن موسيقى خارجية أفقية، لأنه ينتظم سطوح الأبيات من أولها إلى آخرها، وهي مكتوبة أفقيا ولا تكون النظرة إليها ـ لذلك ـ إلا أفقية، فإنه يمكن بنفس الدرجة أن نعد القافية موسيقى خارجية رأسية، لأنها تقف على الحدود الغربية للأبيات في هيئة شبه عمودية، ويغلب لهذا أن تكون النظرة إليها رأسية هكذا:

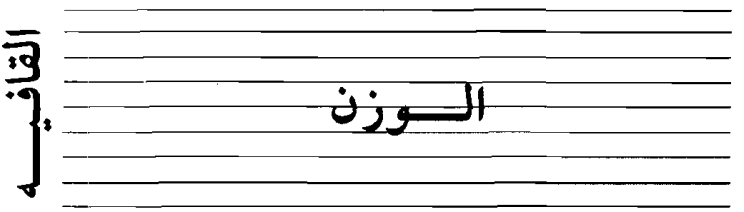

وتسمية هذا النوع من الموسيقى الخارجية بالقافية تسمية لغوية، فقافية كل شيء آخره، قال الزمخشري « لا أفعله قفا الدهر: آخر الدهر »[٣].

ولم تبعد في معناها الاصطلاحي عن معناها اللغوي، قال الأخفش: إنها آخر كلمة في بيت الشعر.

وقال ابن كيسان: إنها كل شيء لزمت إعادته في آخر البيت.

وقال الخليل بن أحمد: إنها الساكنان اللذان في آخر البيت مع مابينهما من الحروف المتحركة، ومع الحرف المتحرك الذي قبل الساكن

(٢) موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ص ١٧٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م.
(٣) أساس البلاغة مادة قفو ص ٣٧٤.

الأول [٤] فكلمة آخر قد وردت في التعريفات الثلاثة، وهي مشتركة بين المعنيين: اللغوي والاصطلاحي، ومن المتفق عليه أن للقافية دورها في تحقيق النغم وتنظيمه، وقد التزم الشعر العربي القديم قافية واحدة في كل قصيدة مهما طالت، ولانجد ذلك في شعر الأمم الأخرى، وإنما لكل بيت قافية كما في اليونانية، أو تتفق قافية البيت مع قافية البيت الذي بعده وهي القافية المتعانقة، أو مع التالى لما بعده وهي القافية المتقاطعة، وذلك في الأدبين الانجليزي والفرنسي [٥].

***

وإذا كان الشعر العربي القديم قد التزم قافية واحدة في كل قصيدة، فإنه ـ كما هو الحال في الوزن ـ لم يلتزم قافية معينة في غرض معين، ويستبدل بها غيرها في غرض آخر وهكذا، لكن قال الأستاذ سليمان البستاني في مقدمة ترجمته للإلياذه ص ٩٧: « إن القاف قد تجود في الشدة والحرب، والدال في الفخر والحماسة، والميم واللام في الوصف والخبر، والباء والراء في الغزل والنسيب ».

وهو كلام إن صح على وجه التغليب، فإنه لايصح على سبيل الإطلاق والتعميم.

***

وإذا كانت موسيقى الشعر الخارجية بعنصريها الوزن والقافية، هي الشق الأول من موسيقى الشعر، فإن شقها الثاني هو الموسيقى الداخلية وهي نوعان: واضحة وخفية.

---

(٤) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ١٥١ ـ ١٧٢ والمدخل في علم العروض للدكتور السنجرجي ص ١٢١ ـ ١٢٢ طبعة مكتة الشباب بالقاهرة سنة ١٩٧٤م.

(٥) المدخل إلى النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال ص ٥٣٥.

ومـوسيقى الشعر الـداخلية الـواضحـة هي المحسنـات البـديعيـة الداخلة في تكوين الأبيـات لتضفي عليها قليـلا أو كثيـراً من السـطوع والإشراق، ولتمنحها قليلاً أو كثيـراً من السيولة والتدفق، ولن يتحقق لها ذلك إلا إذا كانت عفوية أي طبيعية غير متكلفة.

ومن أمثلتها التصريع الذي يشيع في مطالع القصائد العربية، وهـو مبادرة الشاعر إلى قافية القصيدة في أول شطر منها، كقول ابن المقرب في مطلع قصيدته رقم ٣٧ ص ٢٣٤ :

مـاذا بنـا في طـلاب العـز ننـتـظر بـأي عـذر إلى الـعـليـاء نـعـتـذر

وكمطلع قصيدته التي معنا، وقـد نظرت في ديـوان ابن المقرب من هذه الناحيـة فوجـدت أن ٨٦ قصيدة من قصـائده مصرعـة، والإحدى عشرة غير المصرعة تنتظم كل مقطوعات الديوان(٦).

كذلك من أمثلة الموسيقى الداخلية الواضحة الترصيع وهو أن تأتى مقاطع الأجزاء في البيت مسجوعة أو شبه مسجوعة أو من جنس واحـد

---

(٦) غير المصرع في الديوان هو:
(١) البيان رقم ٢٨ ص ١٩٧.
(٢) المقطوعة رقم ٣١ ص ٢١٢ وثلاثة الأبيات المكملة لها برقم ٣٢ ص ٢١٣.
(٣) السينية رقم ٣٨ ص ٢٤٧.
(٤) الفائية رقم ٤٥ ص ٢٩٠.
(٥) اللامية رقم ٥٨ ص ٣٩١.
(٦) اللامية رقم ٥٩ ص ٣٩٣.
(٧) المقطوعة المكونة من ثلاثة أبيات تحت رقم ٦٩ ص ٤٦٥.
(٨) البيتان رقم ٧٥ ص ٥٠٥.
(٩) القصيدة رقم ٧٦ ص ٥٠٥.
(١٠) ثمانية أبيات تحت رقم ٧٧ ص ٥١٠.
(١١) عشرة أبيات تحت رقم ٨٦ ص ٥٧٨.

في التصريف[٧].

ويصلح للتمثيل له في بعض معانيه قول ابن المقرب في القصيدة موضوع الدراسة:

ماجمعوا من سكة مأبورة أو مهرة مأمورة غراء
فلكل شاوي وراعي هجمة جاف خبيث العرف والشحناء

وقوله في قصيدة أخرى:

فقدتَ الردي يابا عَليٍّ إلى العدا وجزتَ المدى تُرجىَ وتُخشىَ وتُعتفَى[٨]

وعلى الجملة فالموسيقى الداخلية الواضحة تنتظم كل المحسنات البديعية لفظية كانت أو معنوية.

أما موسيقى الشعر الداخلية الخفية فهي الموسيقى الحقيقية، وهي مجموعة توفيقات نعد منها:

(١) توفيق الشاعر في الوقوع على موضوع يسمح لشاعريته بالتحرك الإيجابي داخله.
(٢) توفيق الشاعر في اختيار عنوان معبر عن الموضوع الذي وفق في الوقوع عليه.
(٣) توفيق الشاعر في عرض خواطره إزاء موضوعه، وترتيبها في تجربته الشعرية على حسب مالها من أهمية.

---

(٧) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٨١ طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـ، ١٩٣٢م ونقد الشعر لقدامة ص ١١ مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢هـ ومقدمة جواهر الألفاظ لقدامة ص ٣ طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـ، ١٩٣٢ م.
(٨) الديوان ص ٢٨٩، واعتفى الرجلَ: جاءه يطلب معروفه.

(٤) توفيق الشاعر في طبع هـذه الخواطـر بمشاعـر اللحظة الانفعـالية، وهي المشاعر التي كانت قائمة في نفسه ومسيطرة عليه وهـو يصوغ تجربته الشعرية.

(٥) توفيق الشاعر في وصف تجربته الشعورية وصفا دقيقـا، يخيل إلينـا معه أنه يشاهدها بقدر ما يشعر بها.

(٦) توفيق الشاعر في الاهتداء إلى الألفاظ والتراكيب المعبرة عن تجربتـه الشعورية، فالشعر كما قال بول فاليري « لغة من خلال لغة[٩] ».

(٧) توفيق الشاعر في تلوين تراكيبه الشعرية تلوينا هادئا ومنسجما.

(٨) تـوفيق الشاعـر في الإيحاء بجـو القصيدة وبمنـاخها النفسى عنـدمـا كانت تجربة شعورية جوانية.

***

هذه تقريبا ـ أبرز ملامح الموسيقى الداخلية الخفية، قد يغنى بعض منها عن بعض، وقد يدخل بعض منهـا في بعض، وعذرنـا أننا نحـاول التعرف على روح الشعر، وهي كالروح على إطلاقها، يقتصر إدراكنا لها على الإحساس بها والتحرك بقوة دفعها، أما هي في جوهرها وذاتها فإنها من أمر ربة الشعـر، وربة الشعـر هنا هي المـوهبة الشعـرية، وهي مـع الثقافة والفطنة والدربة، كل مقومات الشخصية الأدبية.

وعذرنا مرة ثانية أن الموسيقى الداخلية الخفية لها من اسمها نصيب فهى من الأمور التي تحيط بها المعرفة ولاتؤديها الصفة.

والخـلاصـة أن مـوسيقى الشعـر نـوعـان: خـارجيـة وهي الـوزن والقافية. وداخلية وهي إما ظاهرة وإما خفية، فالظاهـرة هي المحسنات البـديعية الداخلـة في البنـاء الفني للتجـربـة الشعـريـة، والخفيـة هي

---

(٩) الأدب وفنونه للدكتور عزالدين إسماعيل ص ١٣٠.

الموسيقى الحقيقية، وقد قلنا إنها مجموعة من التوفيقات الفنية يرجع الفضل الأول فيها إلى ما يسمى بالطبع مرة، وبالاستعداد مرة، وبالموهبة الفطرية مرة ثالثة.

وننتقل بالموضوع من الشعر العربي بعامة إلى شعر ابن المقرب بخاصة فنجده موزعا على أحد عشر بحرا هكذا.

م	البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٢٦٩٣	٤٩,٦٧٪
٢	البسيط	١١٧٢	٢١,٦٢٪
٣	الكامل	٩١٣	١٦,٨٤٪
٤	الوافر	٣٥١	٦,٤٧ ٪
٥	السريع	٧٨	١, ٦ ٪
٦	الخفيف	٧٢	١,٣٢ ٪
٧	الرمل	٥٧	١,٠٥ ٪
٨	المتدارك	٥٢	٠,٩٥ ٪
٩	الرجز	١٨	٠,٣٣ ٪
١٠	المتقارب	١٠	٠,١٨ ٪
١١	مخلع البسيط	٥	٠,٠٩ ٪

ونلاحظ أن البحور الأربعة الأولى قد ذهبت من شعر ابن المقرب بنسبة مئوية عالية هي ٩٤,٥٨٪ وأنه لم يبق لسبعة البحور الأخرى إلا نسبة مئوية ضئيلة هي ٥,٤٢٪ ودلالة هذا واضحة على أن بن المقرب كان يتمتع بالنفس الطويل وبالجدية في مواقفه الشعرية، وأن حضوره

الفني كان أكثر ما يكون في موضوعات الشكوى والفخر والحماسة وهي الأغراض التي استأثرت بها تقريباً البحور الأربعة الأولى[١٠].

وقد رأينا في الفصل الأول أن حياته الثورية غير المستقرة وغير الهانية كانت تتطلب هذا الطابع بل تستلزمه وتحتمه، ويمكن القول لهذا بأن شعره قد صور حياته، أو بأن حياته قد أملت شعره، وهذا التطابق بين شعر الشاعر وحياته دليل صدقه الفني وقدرته البارعة على تحويل التجربة الشعورية في داخله إلى تجربة شعرية خارجية.

***

ومن الوزن في شعر ابن المقرب إلى القافية، وقد انتظمت معظم الحروف الهجائية في الأبجدية العربية، وعلى وجه التحديد ترددت بين عشرين حرفاً من ثمانية وعشرين هي كل حروف اللغة العربية، ولم يكن مجيئها بنسبة واحدة أو بنسب متعادلة بل بنسب متباينة هكذا:

حرف الروى	عدد الأبيات	النسبة المئوية
الميم	١١٤٠	٢٠,٩
اللام	١٠٩٨	٢٠,٢
الباء	٦٨٧	١٢,٦
الدال	٥٣٨	٩,٩
النون	٤٩٢	٩,
الراء	٤٥٢	٨,٣
العين	١٨٣	٣,٤

(١٠) مدح ابن المقرب في جملته إنما هو فخر بقومه بعامة وبمن يمدحه منهم أو من غيرهم بخاصة، وغالبا يأتى فخره بنفسه قبل الاثنين.

حرف الروى	عدد الأبيات	النسبة المئوية
الحاء	١٢٥	٢,٣
الهمزة	١١٩	٢,١
الهاء	١١٢	٢,
القاف	٩٢	١,٧
التاء	٨٧	١,٦
الفاء	٧٤	١,٤
الكاف	٧٠	١,٣
الياء	٦٠	١,١
الثاء	٣٥	٠,٦
السين	٢٧	٠,٥
الراء	١٨	٠,٣
الطاء	١٠	٠,٢
الذال	٢	٠,٠٣[١١]

وبنظرة سريعة إلى هذه الإحصائية ندرك أن أكثر حروف الروى دورانا في شعر ابن المقرب، هي على التوالي: الميم واللام والدال والنون والراء والعين، وقد ذهبت من شعره بأكثر من ٨٤٪ فإذا علمنا أن هذه الحروف هي كذلك الغالبة على القافية العربية أمكن أن نرجع بتكوينه الأدبي إلى تمرسه الشديد بالشعر العربي، ويكون ابن المقرب بروافده

(١١) رجعت في إحصائيتى الأوزان والقوافى إلى (شعر علي بن المقرب العيوني) للأستاذ أحمد الخطيب صفحتى ٣٣٣، ٣٣٥ بعد تعديل الإحصائية الثانية من ترتيبها أبجديا كما فعل سيادته إلى ترتيبها على حسب الكثرة والقلة في حروف الروى.

الشعرية وبشعره تجسيداً حياً وتطبيقا عمليا لنظرية ابن خلدون في تكوين الملكات الشعرية قال: إن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا من أولها الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما، فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها(١٢).

***

ومن الاقتدار الفني في القافية الشعرية عند ابن المقرب التزامه ألف التأسيس، وهي ألف المدحين يفصل بينها وبين الروى حرف من الحروف، وقد أوجب علماء العروض التزامها، واستحسنوا أن يكون الحرف الذي بينها وبين الروى مضبوطا بالكسرة(١٣).

وكان ابن المقرب عالما بذلك أو مدركا له من خلال تمرسه بالآثار الشعرية فالتزمه بشقيه الواجب والمستحب في ست وعشرين قصيدة كقوله في ص ٦٦.

خليليَّ عن دار الهوان فقوضا ... خيامي وزما لارتحال نجائبى
ولاتذكرا عندى لعل ولاعسى ... فما بعسى يقُضى نجاح لطالب
وليس عسى أو ربما أو لعلما ... ويا طالما إلا قيود المعاطب

وكقوله في ص ١٢٣.

وكم صاحب واريت في الكشح وده ... تبين لى منه عدو مكاشح
جزى الله إخوان الليالى ملامة ... وحاسبها حسبان من لايسامح

---

(١٢) المقدمة طبعة وافى ص ١٢٩٦.
(١٣) العمدة جـ ١ ص ١٦١ والسنجرجى ص ١٢٥ وموسيقى الشعر ص ٢٧٤.

وعـاقـب دهـراً كـلما قـلت يـرعـوى نـزى ورمـتـنى مـنـه دوق نـواطـح

***

وليس هذا فقط، بل إنه التزم قبل الروى حرف مدمعين في ثلاث وثلاثين قصيدة، وهو مما يجعل القافية موسيقيه أكثر وذات تأثير أكبر.

قال ملتزما الألف ص ٢٧٠ .

أنـا ابـن الـسـابـقـين إلى المـعـالي وأربـاب المـعـالـك والمـسـاعـي
حـللنـا مـن ربـيـعـة في ذراهـا وجـاوزنـا الـفـروع إلى الـفـراع
وقـد عـلمـت نـزار أن قـومى سـيـوف ضرابهـا يـوم المـصـاع

وقال ملتزما الواو ص ٢٥٤ .

ألا يـالـقـوى الأكـرمـين مـتى أرى بنـا الخيـل تهـوى مـطبقـات صروعهـا
مـقـدمـة أسـلافـهـا في ظـعـائـن حسـان المجـالى طيـبـات ردوعـهـا
عـليـهـن منـافـتيـة عـبـدلـيـة جـرِئٌ مُـزَجّـاهـا جـوادٌ مـنـوعهـا

وقال ملتزما الياء ص ٦٤٩ ـ ٦٥٠ .

يـاعـاشقـا تلفتْ في العشق مهجتـه كـتـمانـك الحب في الأحشـاء يؤذيهـا
بح بـالهـوى واصحب العشـاق منتهكـاً ولاتـطع غـير غـاويهـا ومـغـويهـا
واضرب عن التيـه صفحا والـغ صحبتـه مـاأحمق العـاشق المستصحب التيـهـا

والتزم في عشر قصائد تسكين الحرف الذي قبل الروى.

قال ص ٣١٦ .

إليكـن عـنى فـانصر فـن عـلى مـهـل فـلسـت بمـرتـاع لهـجـر ولا وصْـل
ومـاذاك عـن بـغض لـكـن ولاقـلـى ولـكن قـلبى عـن هـواكـن في شـغـل
أبتْ لى وصـال البيض همات مـاجـد بعيـد الحـمايـا غـير نكس ولا وجـل

وبعد هذا وقبله سلمت له قافيته سلامة شبه تامة من عيوب القافية

كالإيطاء والإقواء والإصراف والسناد وغيرها[١٤].

وإنما احتطنا فقلنا: إن قافيته قد سلمت سلامة شبه تامة، لأن محقق الديوان قد نسب إليه الإقواء في قوله مادحا الأمير باتكين ص ١٩٤.

ملك لايعد مالاً سوى ما حاز أجراً به وأَوْدَى معاد
للإجازات والجوائز يمنا ه وبيض الظبا وسمر الصعاد

حرف الروى مكسور في القصيدة كما نرى، لكن المحقق الفاضل يقول عن (وأَوْدَى معاد): ـ «كذا بالأصل، وقد اضطرته القافية إلى كسر الدال»[١٥].

فهو يرى أنها كان يجب نحويا أن تكون (معاديا) لأنها اسم منقوص، والاسم المنقوص المفرد تظهر الفتحة على يائه في حالة النصب، وبالرجوع إلى مادة (ودي) في أساس البلاغة ص ٤٩٥ قرأنا: «وديتُ القتيلَ: أديتُ ديته واتدى ولىُّ القتيل: أخذ ديته» وعلى هذا المعنى لايستقيم المدح لابن المقرب، إذ كيف يمدَح باتكين بأنه يدفع دية أعدائه الذين قتلهم؟ إن هذا الدفع ـ على فرض حصوله ـ يكون ضعفا منه، لأنه يأتى كالاعتذار عما تم من قتلهم، أو كالتعويض المالي عنهم، وهما أمران لايليقان بمقام المدح، ويصح المدح مع استقامة الوزن لو قرأنا (وأُوذي) من الإيذاء وهو إلحاق الضرر بالأعداء، وتكون (معاد) مرفوعة، نائب فاعل للفعل المبنى للمهجول (أُوذي) أعلت إعلال (قاض)[١٦]ويكون معنى البيت على هذا أن باتكين لايعد مالا سوى:

---

(١٤) انظر في ذلك العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ١٥١ ـ١٧٣. والسنجرجى ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(١٥) ص ١٩٤ هامش ٣٤.

(١٦) قاض أصلها: قاض يُ نْ.

استثقلت الضمة على الياء، فحذفت الضمة، فالتقى ساكنان هما الياء والنون فحذفنا =

(أ) ماحاز به أجراً، أي مابذله في وجوه الخير والبر وفي الهبات.
(ب) مـا أنفقه في الإعـداد لإلحاق الأذي بـالأعداء من قـوة ومن رباط الخيل ونحوها.

ويكون بين أ، ب شبه طباق أو طباق ضمنى.

وإذا قيـل: إن الممدوح يحـوز الأجر أيضـا بالمـال المبذول في إيـذاء الأعداء، سلمنا بذلك وقلنـا: لأنه ليس خيـراً صراحة، أو لأنـه خير في شكل شر، ذكر خيريته مرتين وبطريقين.

مرة عن طريق ذكر الخاص بعد العام.
ومرة عن طريق التفصيل بعد الإجمال.
وبهذا التخريج لايكون في البيت إقواء.

***

وتحت عنوان (هنات هينات) سجل الأستاذ عمران العمـران عَلىَ ابن المقـرب إقواء في قصيـدته رقم ٨١ ص ٥٥٤ قـال عند رقم ١٢ من الهنات الهينات:

« وكالإقواء في قصيدته التي يمدح بها الأمير أبا عـلي مسعود بن محمـد بن أبي الحسين أحمد بن أبى سنان محمد بن الفضل والتي مطلعها:

أنـخ فـهـذى قبـاب الـعـز والكـرم وقِـلْ فـكـل الـعـلا في هـذه الخيـم

فحرف الروى كما ترى جاء بالكسر، ولكن الشاعر ماعتم أن تحول من الكسر إلى الضم وذلك في البيت الرابع والأبيات الثلاثه التي تليـه، فهو يقول:

= أولهما وهو الياء فصارت قاض ن وتكتب قاضٍ وانظر مقالات للمؤلف ص ١٦٠ طبعة الانجلو المصرية سنة ١٩٧٤ القاهرة.

هـم المـلوك وسـادات المـلوك هـم ومـاربى المـلك إلا في بـيـوتهم

ثم عـاد إلى الـروى المكسـور واستمـر عليـه حتى البيت الخـامس والخمسين حيث جاء الـروى فيه مضمـوما، وبعـده عاد مـرة أخرى إلى الروى فاستمر عليه حتى منتهى القصيدة(١٧).

والأستاذ عمران ـ مع احترامى لـه ـ غير محق فيـما ذهب إليه من أن في القصيدة إقواء، فهي مبرأة منه، وهـذه هي الأبيات الأربعـة أذكرهـا مـع البيت الذي قبلهـا، وأذكر البيت ٥٥ مـع البيت الذي قبله ليكـون الشعر مفهوما.

قال ابن المقرب:

فـما وراء بـنى فـضـل فـتـطلبـه غـنى لـراج ولاعـز لمـهـتـضم
هـم المـلوك وسـادات المـلوك هـم ومـاربى المـلك إلا في بـيـوتهم
وقـد نـزلـت بـأسراهـم وأنـبـلهـم عـلى سراواتهـم فـيـنـا ونـبـلهم
فـانـظر بعينـك هـذافهـو سيـدهم طـرًّا وسـيـد عـدنـان وغـيرهـم
هـذا الهـمام عـماد الـديـن أكـرم من يُـدعى ويُـرجى وخـير النـاس كلهـم
ومن يبـاري ابن فضـل في مكـارمـه أبـاسنـان غيـاث النـاس في القـحـم
وخـير قـيس بن عـيـلان خـوء ولـتـه فمن بـغى الـفخـر فـليفـخـر بمثلهـم

حـرف الروى في القصيـدة مكسـور كـما نـرى، لكنـه في الأبيـات المقصودة للأستـاذ عمران مضبـوط بالضم، ومسبـوق بالهـاء التي تكوِّن معه ضمير الغائبين (هم)، وهي من هذه الناحيـة تشبه قـول الله تعالى في فاتحه كتابه العـزيز: «اهـدنا الصراط المستقيم صراط الـذين أنعمت عليهم».

---

(١٧) ابن المقرب: حياته وشعره ص ١٦١ ـ ١٦٢.

وقد ذكرتْ الروايات أن في (عليهم) هذه عشر قراءات سبعة منها برواية ابن مجاهد، وثلاثة برواية الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، والقراءات العشر هي :

(١) عليهِمْ بكسر الهاء وتسكين الميم .
(٢) عليهِمُ بكسر الهاء وضم الميم من غير بلوغ واو.
(٣) عليهِمُو بكسر الهاء وضم الميم مشبعة إلى الواو.
(٤) عليهِمِي بكسر الهاء وبكسر الميم مشبعة إلى الياء .
(٥) عليهُمْ بضم الهاء، وسكون الميم .
(٦) عليهُمُ بضم الهاء وضم الميم من غير بلوغ واو.
(٧) عليهُمُو بضم الهاء وبضم الميم مشبعة إلى الواو.

تلك هي القراءات السبع التي رويت عن ابن مجاهد أما القراءات الثلاث التي رويت عن الأخفش فهي :
(٨) عليهُمِ بضم الهاء وكسر الميمم غير مشبعة إلى الياء .
(٩) عليهُمِى بضم الهاء وكسر الميم مشبعة إلى الياء .
(١٠) عليهِمِ بكسر الهاء وبكسر الميم من غير بلوغ ياء[١٨] .

وبالنظر في هذه القراءات نجد أن مايصلح منها للاستدلال على أن القصيدة ليس فيها إقواء إنما هي قراءة :

عليهِمِي بكسر الهاء وبكسر الميم مشبعة إلى الياء وهى إحدى القراءات التي رواها ابن مجاهد.

ثم القراءات الثلاث التي رواها الأخفش (عليهُمِ) (عليهُمِي) (عليهِمِ) .

---

(١٨) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جنى جـ ١ ص ٤٤ الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ.

فكل مايهمنا أن تكون الميم مضبوطة بالكسر، وهذا متحقق في القراءات الأربع، ولا تهمنا في شيء حركة الهاء، وهذا يعني أن القصيدة ليس فيها إقواء.

والأستاذ العمران معذور فيما ذهب إليه، فقد ضبط محقق الديوان الميم في الأبيات الخمسة بالضم وفي غيرها بالكسر، ولم يكن موفقاً في ذلك، فالضبط المسموح به في القصيدة إنما هو كسر الميم لا غير، مراعاة لحرف الروى في قافيتها وهو الميم المكسورة في جميع الأبيات، وقد كان في سعة من أمره إذ له أن يدخل إلى هذا الضبط لا من أوسع الأبواب، بل من أربعة أبواب.

ومن شعر ابن المقرب بعامة إلى قصيدته التي معنا بخاصة لنقول : إنها من بحر الكامل (متفاعلن) ست مرات وهو بحر فيه من الجلبة والضجيج بمقدار مافيه من الحركات قالوا : سُمِّى كاملاً لكماله في الحركات، فالتام منه يشتمل على ثلاثين حركة، وليس في البحور ماهو كذلك كما قال الخليل بن أحمد(١٩).

وإذا كان ابن المقرب قد وقع عليه بشاعريته الملهمة، فلأنه كان في موقف جد يقتضيه أن يكون من شعره الذي يعبر به عن نفسه في موكب موسيقى كله جيشان وصخب، وقد جاء ذلك عرضاً لا قصدا، فالشاعر لا يختار بحره، كما لا يختار قافيته، إنما هو انفعال اللحظة، يلبس الشعر رداءه فيه، ويطلع على صاحبه به دون أخذ رأيه.

وقافية القصيدة جاسية صلبة، ولا عجب، فالهمزة حرف حلقى

---

(١٩) السنجرجى ص ٦٤.

عميق، وهـو صوت انفجـاري ينقطع النفَس معـه لحظة لتنفـرج الأوتار الصوتية عنـه فجأة، لكن خفف من وقعـه مجيئه بـين لينين سـاكنين هما ألف المد قبله، وياء الإشبـاع بعده، وتـرتب على ذلـك أن طالت نغمـة الأنـين وعلت نبرة الشكـوى في مطلع القصيـدة، ثم جاء الهجـاء لاذعاً موجعاً يجرح مثلما يقول وأكثر.

***

بقيت الموسيقى الداخلية، وهي كما قلنا واضحة وخفيـة والموسيقى الداخلية الواضحة في القصيـدة كثيرة ومتنـوعة، وقـد وقفنا عنـد بعض ما فيها من تصريع وترصيـع وطباق ومقـابلة، ونجد التجنيس في البيت الثـاني عشر بين (المِحـال) بكسر الميم و(المُحـال) بضمهـا، هـو جنـاس نـاقص إذن، وإذا كانت الكلمـة الأولى ثقيلة يتتعتـع اللسـان بهـا عنـد نطقها، فإن الكلمة الثانية قد جاءت خفيفة سهلة.

ومهـما يكن من أمر المـوسيقى الداخليـة الواضحـة، فإنها تقف من موسيقى الشعر عامة على الأعراف بين الأصوات المسمـوعة والأصـوات المحسـوسة، ولعلهـا ـ لـوضـوحهـا وإمكـان الإمسـاك بهـا ـ أقـرب إلى مـوسيقى الوزن والقـافيـة منهـا إلى المـوسيقى الـداخليـة الخفيـة، وهى المـوسيقى التي نستروحهـا ونستمتع بهـا عن طريق مـايسمى بـالحـاسـة السادسة، أجل فالموسيقى الداخلية الخفية لا تنبـع من تفاعيـل الوزن، ولا من إيقاع القافية، ولا من تشابه أصوات الحـروف في الكلمات، ولا من تضاد الكلمات نفسها، فهذه كلها أدوات مـادية يجـرى الشاعـر فيها على سليقته التراثية، وإذا كـانت الموسيقى الـداخلية الخفيـة لا تنبع من هذا كله فإنها لا تضاده ولا تخاصمه، بل تقف وراءه، ونراها نحن بعين بصيرتنا فنعجب ونـطرب ونندهش من قـوة تأثـيرها فينـا وشدة هيمنتهـا علينا حتى لنفضل هذا الشعر على غيره، وقد يكون غـيره مثله أو يفوقـه

في الجودة وتمام الصنعة لكن لا نجد له ذلك الأريج النفسي، ولا سبب لذلك إلا الموسيقى الداخلية الخفية.

⋆⋆

ونسأل : أوجدنا أنفسنا كذلك مع قصيدة ابن المقرب ؟ ونجيب : لا ؛ ربما لأنها تتردد بشكلها ومضمونها بين النثرية والشعرية، إنها لا تنتمي إلى المثالية الشعرية انتماءً كاملاً، إذ فيها من التحليل والتعليل، ومن الفكر والمنطق، أكثر مما فيها من التركيب والتشكيل، ومن الرؤية الشعرية المبهمة هذا فضلاً عما نحسه نحو بعض صورها من افتراضية تمحلية كصورة مالك خازن النار الذي أخرجه خيال الشاعر من الآخرة إلى الدنيا لا لشيء سوى أن يرى ويرثي ويتعجب.

⋆⋆

ومن موسيقى الشعر في القصيدة إلى ألفاظها وتراكيبها.

وهي من هذه الناحية تقع في المنطقة الوسطى بين الحضارة والبداوة، ولأن ابن المقرب كان صادقاً مع نفسه، ومع قومه وبيئته جاءت بعض كلماته بطينها الاجتماعي فقالها كما هي غير متحرج ولا محتشم، وماظنك بكلمات مثل (عذرة) و(است) و(الخرا) و(الجواميس) ؟ !! نحن لا نقول : إنها كلمات غير شعرية، فالكلمات في اللغات لا تنقسم إلى شعرية وغير شعرية، ولكنا نقول :

إن بعض الكلمات في المجتمعات الدنيا قد صارت حقيقة عرفية على أشياء قبيحة أو سيئة، وعلى الشاعر حيئنذ أن يلمح ولا يصرح، وأن يسلك إلى مايريده منها سبل المجاز ومأأكثرها، قال الله تعالى : « أولا مستم النساء ».

وقال سبحانه : « إنما المسيح عيسى ابن مريم وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام » صدق الله العظيم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصيـــدة الثانيـــة(*)

وقـال أيضـاً فـي غـرض لــه

وهو عابر في دجلة وسمع صوت حمام يسجع

(١) صبـا شـوقـا فحنَّ إلى الـديـار ... ونـازعـه الهـوى ثـوب الـوقـار
(٢) وهـاج لـه الـغـرامَ غـنـاءُ ورق ... هـواتـف في غـصـون مـن نـضـار
(٣) صـد حن غُـديـةً فـتركن قلبي ... وكـان الـطودَ كـالشيء الـضِّـمار
(٤) رويـداً يـاحمـام بمـسـتـهـام ... مـشـوق مـنَّـه طـول الـسـفـار
(٥) بـراه الشوق بـرى القدح جـدا ... فـغـادره بـقـلب مـسـتـطار
(٦) فـوا عجباً لكُنَّ تنحن خـوف الـ ... ـفـراق ومـابـدت خـيـل المـعـار
(٧) ولم تُـصـدع لـكـن عصىً بـبـين ... ولم تـعـبـث لـكـن نـوى بـغـار

(*) الديوان وهي القصيدة رقم ٣٣ ص ٢١٤ .

(٢) النضار : شجر الأثل أو الطويل منه المستقيم الغصون، أو مانبت منه في الجبل.

(٣) صدحن : رفعن أصواتهن، والغدية : تصغير الغداة، والطود، الجبل، أما الضمار فهو الشيء لا يُرجى رجوعه.

(٤) رويداً : اسم فعل أمر بمعنى تمهل أو ترفق، ومنَّه أي أضعفه نقول : ذهب السفر بمنة فلان أي بقوته.

(٦) المعار : الفرس الذي يحيد عن الطريق براكبه.

(٧) صدْعُ العصا : كناية عن التفرق والانشقاق، والبين : الفراق والنوى : البعد. أما الغار فهو المكان المنخفض، ولأن البئر كذلك سمى غاراً ثم أطلق على كل شيء عميق مستخف ومن ذلك سبرتُ غور فلان أي باطنه ومكنونه والغار : وقت القيلولة أو مكانها قال جرير :

أنـخـن لـتـغـويـر وقـد وقَـدَ الحصى ... وذاب لـعـاب الـشـمس فـوق الجـماجـم

والغار : البطن أو الفرج يقولون : فلان يسعى لغاريه أي لبطنه ولفرجه قال الشاعر :

ألم تـر أن الـدهـر يـوم ولـيـلة ... وأن الـفـتى يـسـعـى لـغـاريـه دائـماً

(٨) وأنتن النواعم بين بانٍ ... وخيرى يرف وجلنار

(٩) وبين بنفسج يزداد حسناً ... كلون القَرص في وجُن الجوارى

(١٠) تردن نمير دجلة لا لغب ... بطانا من بواكير الثمار

(١١) لدى أو كاركن بحيث تاج الـ ... خليفة لا بأجواز البرارى

(١٢) فكيف بكن لونيطت شجوني ... بكن ونار وجدى وادكارى

(١٣) مُنيت من الزمان بعنقفير ... قليل عندها حزُّ الشفار

(١٤) فراق أحبة وذهاب مال ... وضيم أقارب وأذاة جار

(١٥) فلا والله ماوجد كوجدى ... ولا عُرف اصطبار كاصطبارى

(١٦) ولائمة وأحزنها مسيرى ... وقد شرقت بأدمعها الغزار

(١٧) تقول وقد رأت عيسى ورحلى ... وصدى عن هواها وازورارى

(١٨) علامَ تجشم الأهوال فرداً ... بُغبر البيد أو لجج البحار

(١٩) أمالاً ماتحاول أم علوا ... هُديتَ أو اجتواءً للديار

(٢٠) أتقنع بالعلاة من العلالى ... بديلا والمثار من الوثار

(٢١) فقلت لها غشاشاً والمطايا ... إلى التجليح حاضرة الحضار

(٢٢) ذرينى لا أبالك كيف يرضى ... بدار الهون ذو الحسب النضار

---

(٨) البان : شجر معتدل القوام لين. والخيرى : نوع من النبات أو الزهور، والجلنار : زهر الرمان.

(٩) الوُجن : جمع وجنة.

(١٠) شربتُ غبا : أي شربتُ يوماً ويوماً لم أشرب.

(١٣) العنقفير : الداهية، وشفرة السيف : حده.

(١٩) اجتوى الدار : كرهها وفارقها.

(٢٠) العلاة : حجر يجُعل عليه الأقط ليبس وكالعلبة يحُلب بها والعلالى الغرف، والوثار : الفراش الوطىء.

(٢١) غشاشا : معجلا، والتجليح : الإقدام والتصميم، وأحْضَر الفرسُ أي نشط، وما أشد حُضْرَه أي نشاطه ومن هذا قولهم : « ماالسبق في المضامير إلا للجرد المحاضير ».

(٢٢) النضار : الذهب أو الفضة، وحسَبٌ نضار أي نفيس.

(٢٣) فظل السدر عند الذل أولى ... بأهل المجد من ظل السِّدار
(٢٤) فكم أفني على التسويف عمُرا ... أتى في إثر أعمار قصار
(٢٥) وحتام الخلود إلى مكان ... على مضض به أبداً أدارى
(٢٦) ولو أني أداري قرمَ قوم ... كريم المنتهى حامى الذمار
(٢٧) عُذِرت وقلت للنفس اطمئنى ... ومِلت إلى التحلم والوقار
(٢٨) ولكنى أدارى كلَّ قَرٍّ ... يُجَل إذا يعُد من القرار
(٢٩) كليل الطرف عن سبل المعالي ... بصير بالمآبر والإبار
(٣٠) تعلق من عُرى قومى بسبٍّ ... ضعيف ليس بالسبب المغار
(٣١) فأصبح كالحَباري مقذحراً ... بحذرية له لا كالحِذار
(٣٢) فياشر الدهور جزيت شر الـ ... ـجزاء وذقتَ فقدان الشرار
(٣٣) لترأم كلَّ ذي شرف قديم ... وتذرو مابرأسك من ذِرار
(٣٤) فقد كلفتنى خططا أشابت ... قذالى قبل خط في عِذاري
(٣٥) ولو أجْرضْتُ منك بغير ريقي ... لكان بأعذب الماء اعتصارى

---

(٢٣) السدر: شجر النبق، والسدار: شبه الخدر.
(٢٦) القِرم: السيد.
(٢٨) القَر: الفروجة، والقَرار: الغنم.
(٢٩) المآبر: النمائم، والإبار: إصلاح النخل، يريد أنه نمَّام جاهل لايعرف إلا إصلاح النحل.
(٣٠) السَّبُّ: بالفتح: السبب وبالكسر: الحبل، والسبب المغار يعنى القوى.
(٣١) الحباري: طائر، والمقذحر: المتهيىء للشر والسباب والقتال، والحذرية: عفرية الديك وهي ريش عنقة المنتفش، والحذار: المحاذرة.
(٣٢) الشرار: جمع الشرر وهو ماتطاير من النار، عنى فقدان بأسه وقوته.
(٣٣) ذر الشيء يذروه: ذهب به، والذرار: الغضب والانكار نقول: ذارتْ الناقة إذا ساء خلقها.
(٣٤) القذال: جماع مؤخر الرأس، وخط عذاره أي خرج شعر وجهه، يريد أنه لم يبلغ مبلغ الرجال.
(٣٥) أجرضت منك أي غصصتُ، والاعتصار: أن يغَصَ إنسان بالطعام فيعتصر بالماء أي يشربه قليلاً قليلاً ليسيغه.

(٣٦) فقل للشامتين بنا علانا هنيئا بالمهانة والصغار
(٣٧) مكانكمُ فسخوا فالمعالي صعاب ليس تدرك بالسِّرار
(٣٨) فقد نلت المنى غضا بِجِد وعزم لايقر على قرار

---

(٣٧) سخت الجرادة: غرزت ذنبها في الأرض.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصيدة ومحاورها

ليس الشعراء شعراء في كل ماينظمون . كلمة حق قالها الناقد هـ . ب . تشارلتن في كتابه ««فنون الأدب»[1]، وهي تنطبق ـ إلى حد ما ـ على هذه القصيدة من شعر علي بن المقرب، لأنها في رأيي ـ لاتبلغ من حيث الجودة مبلغ روائعه التي يزخر ديوانه بها، وقد اخترتها لطرافة ابتدائها، وهي طرافة نسبية أساسها شعر ابن المقرب وحده، وليس الشعر العربي جملة، ومن منّا لايتغنى برائعة أبي فراس :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا هل تشعرين بحالي
معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببالي

وليس معنى ما سبق أن هذه القصيدة غير فنية أو أنها قليلة الأهمية، لا . ليست المسألة كذلك، كل ماهنالك أننا لانجد فيها ماعهدناه في غيرها من قعقعة الكلمات ومن تحدر الأبيات حاملة في أعماقها أو على سطوحها ابن المقرب بدكادكه وسوافكه[2] .

أما هنا فقد دارت أبيات القصيدة ـ حول محاور ستة هي : الحمائم، والشاعر، وزوجته، ومهجوه، ودهره، والشامتون به .

---

(١) ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥ ص ١٠٢ .

(٢) إشارة إلى مطلع إحدى قصائده قال :
أمن دمنة بين اللوى والدكادك ... شغفت بتذراف الدموع السوافك
الديوان ص ٣٠٥

والقصيدة بعدُ يتيمة في ديوانه، فلا أخت لها فيه من حيث أنها دفقة شعورية واحدة، ومع أنها كذلك فقد حَّملها مفاتيح حياته ورؤوس موضوعاته، بل مضامين شعره كله.

وما فيها من نثرية يجعلنا نظن أنه ارتجلها مستجيباً بها للموقف الخارجي الذي وجد نفسه إزاءه، وقد عوضنا صدقها وترابط أجزائها ومابها من تلقائية وعفوية عما افتقدناه في بعض أبياتها من فنية وشاعرية.

إنها شريط تسجيلي لحياة ابن المقرب، وحديث مرسل عن نفسه حرك لسانه به صدح الحمائم.

ولنقم الآن بتوزيع الأبيات على شخصيات القصيدة فيما يشبه عمل المخرج أو مساعد المخرج في الأعمال الفنية الحديثة.

(١) **الورق الهواتف**: فقد صدحن بما سماه الغناء في البيت الثاني والنواح في البيت السادس، ولا تناقض بين الاثنين لأنه لاحدود نفسية أو فنية تفصل أحدهما عن الآخر، بل إن الغناء الصادق هو ما عبر عن فرح مرقص أو حزن فادح، وهو يجود كلما زاد الحزن أو الفرح لدى المغنى حقيقة أو تلبسا.
وقد تفرد الورق بالأبيات من ٦ ـ ١١ وشاركها الشاعر في الأبيات من ٢ ـ ٤ وفي البيت ١٢.

(٢) **زوج الشاعر**: وقد جاءت في الأبيات من ١٦ إلى ٢٠ حائرة متسائلة، وفي البيتين ٢١، ٢٢ مجفوة مشتومة، ثم ساهمة واجمة إلى البيت ٣١ وربما إلى آخر القصيدة.

(٣) **مهجوه حاكم الدولة العيونية**: وقد شغل البيت ٢٦ والأبيات من ٢٨ إلى ٣١.

(٤) **دهـره**: وقد شتمه ودعا عليه مبينا سبب ذلك في الأبيـات من ٣٢ إلى ٣٥.

(٥) **الشـامتـون به**: وقـد سخر منهم وأيـأسهم في الأبيات من ٣٦ إلى آخر القصيدة.

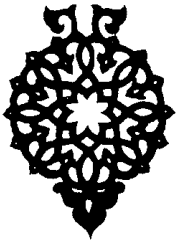

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التحليـل

(١)

الشاعـــر والحمائـــم

١ ـ ١٥

مطلع القصيدة مـرآة تعكس صورة ابن المقـرب، وهو فيهـا مشوق عـاشق، تصبّاه هـواه فأفقـده اتزانـه وألهاه عـما ينبغى لـه أن يلتزمـه من ضوابط الوقار والرزانة، وإذا كان من حقـه وهو بعيـد عن وطنه أن يحن إلى دياره، فإن من غير المسموح له به، لأنه لا يتناسب مـع سنه ولا يليق به في غربته، أن يراوده الهـوى عن وقاره وحسن سمتـه، لكن ماحيلتـه وقد غلبه غناء الورق على أمره فـأهاج غرامه ونكـأجرحـه، ولأنه غنـاء مـظروف بمكانـه المتموج بـه (غصون من نضـار) وبزمـانـه المعمق لـه (غدية) فقد كان تأثيره عليه أقوى من أن يقدر على دفعـه، ولهذا ذهب بلبه، وباعد بينه وبين قلبه حتى لم يعد لديه أمل في رجوعه إليه.

***

ومن النمنمـة البيانيـة في هذه الصـورة الأدبية تشبيهـه الوقـار وهـو معنـوى بالثـوب وهو حسى، وهـو تشبيه بليـغ من إضافـة المشبه بـه إلى المشبـه، وليس المهم أنه تشبيـه بليغ، بـل المهم أنه أبرز الوقـار وجعله ملموساً مرئيا، ولما كان الشأن في الثوب أنه فضفاض سـابغ، فقـد بهت ذلك على المشبه وهو الوقار، وجعلنا نتخيله هو أيضاً فضفاضاً سابغاً.

وإذا كانت الصورة الشعرية في هذا التشبيه قـد جمعت بين معنـوى

ومادي على صعيد واحد وفوق مائدة واحدة، فإن الشاعر قد سلَّط عليها ريح خياله، وقد جاءت لحسن حظه ـ رخاء طيبة فلم تزد على أن نازعته ثوب وقاره، نازعته عليه ثم تركته له، ولم يستغرق ذلك سوى لحظة شعورية واجدة، ولاعجب فهى الهوى الذي شخصه وجعله يثير في داخله صراعاً حاداً.

وفي البيت الثالث تشبيهان : أحدهما في صلب الكلام هو:

(فتركن قلبى كالشيء الضمار)

والآخر في تلك الجملة التي اعترضت استرسال الكلام لفائدة هي بيان حال قلبه قبل حبه وأنه كان طوداً أي جبلاً.

ويحسن التنبيه على أن الأصل في التشبيه ـ بليغاً كان أو متوسط الدرجة أو متدنيا ـ أنه يقوم على نوع من التقارب أو التوحد بين المشبه والمشبه به في جزئية واحدة من مكوناتهما المادية أو المعنوية، أما بقية الأجزاء فيهما فتظل منفصلة ومستقلة ولها عالمها الخاص بها، وهذا يعنى أن الخيال في التشبية خيال جزئى محدود، وأن الصورة التشبيهية وهي التي تنهض على التشبيه ولاتتجاوزه صورة خيالية من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهذا مالم تتناولها يد الفنية تناولا مبدعا فيه طرافة وجدة، فإنه عندئد يكون صورة خيالية متقدمة، نقول ذلك ومثاله حاضر في ذهننا بل في قصيدتنا وعلى وجه التحديد في البيت التاسع منها، إذ وفق الشاعر في الجمع بين بنفسج يزداد حسنا، ولون القرص في وجن الجواري، وبحسبه أنه جمع هذين الطرفين الجميلين مبنى ومعنى في مدار واحد.

***

وقد سلك ابن المقرب في انتقاله من البيتين الأول والثاني إلى الثالث مايعرف في البلاغة بالالتفات ـ ومن البلاغيين من يسميه (شجاعة

العربية)[٣] وهو تحوله في حديثه عن نفسه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، وما هو إلا بيت واحد ثم يرجع ثانية إلى ضمير الغائب، مستعطفا الحمام ومتمنيا عليه الرفق به، لأنه مستهام مشوق شفته الأسفار الطويلة وذهبت بقوته الرحلات المتعددة، وقد فعل ابن المقرب ذلك جريا على عادة العرب من افتنانهم في الكلام وتوسعهم فيه، فالكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان أكثر إثارة لنشاط السامع وأدعى لإصغائه من إجرائه على أسلوب واحد.

والسرُّ في تسمية الالتفات بشجاعة العربية أن الأديب يقتحم مختلف الدروب ولغته الشجاعة معه لاتتخلى عنه ولاتخذ له، بل تسبقه إلى وجهته الجديدة لتهبه القدرة على الإبداع والتفنن، ولتتيح لمتلقى أدبه قدراً أكبر من اللذة والمتعة.

ولم تكن الأسفار الطويلة وحدها هي التي أضعفت الشاعر وأسقمته، بل كان الشوق معها، وهو الذي براه وصيره مثل السهم قبل أن يُراش وينصل.

والصورة التي في صدر البيت مركبة من صورتين : صورة كلية أساسها التشبيه البليغ في (براه الشوق برى القدح)، وصورة جزئية أساسها الاستعارة المكنية في (براه الشوق) وقد جاءت الثانية متلفعة بالأولى وداخلة في تكوينها النحوى أو البلاغي بإسناد البرى إلى الشوق بلاغياً، وبجعل الشوق فاعلاً للبرى نحويا، وهي تشخيص للشوق

---

(٣) انظر الخصائص لابن جنى طبعة مطبعة الهلال بالقاهرة ١٣٢١ هـ، ١٩١٣ م جـ ١ صفحات ١٤٨ - ١٨٨، ٢٢١ - ٢٢٣، ٢٤٦ - ٢٦٠، ٢٦٦ - ٢٧٩، ٣٣٩ - ٣٥١، ٥٣٧ - ٥٦٩.
والجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير الصفحات من ٩٨ إلى ١٢٢.

بجعله شخصا يبرى أو شيئا يُبرى به، ونلاحظ أن الخيال هنا قد غاص بنا قليلا تحت السطح.

ولم يترك ابن المقرب البيت حتى أنهكه بكثرة ما تخرقه من سهام خياله، ولاعجب، فالشوق قد فعل بجسمه وبقلبه، الأفاعيل، أما جسمه فقد أنحله حتى صار مثل السهم، وأما قلبه فقد جعله قلقا غير مستقر، وما أشبهه في ذلك بطائر حائر يحط على شجرة مثمرة فيهيجه حارسها، وينتقل إلى غيرها فيجد عندها ماوجد عند سابقتها وهكذا، يطير ليحط ويحط ليطير، وقد بلغ من خوفه وهلعه أنه صار يطير بعد كل حط، على توهم حارس مطارد، ولما كان طيرانه أكثر من حطه سموه مستطاراً.

إلى هذا أو إلى شيء قريب من هذا صار قلب ابن المقرب، فهو مستطار دائما، لأنه مثار دائما، وقد كان صدح الحمائم مثيراً له أيما إثارة.

والصورة هنا بيانية أساسها الاستعارة المكنية، وهي أدخل في باب الخيال من الاستعارة التصريحية، فالاستعارة التصريحية أساسها الخيال البسيط، أما الاستعارة المكنية فأساسها الخيال المركب، ولعله لهذا كان مجيئها أكثر من أختها في شعر ابن المقرب بخاصة، وفي الشعر العباسي بعامة.

وتتبدى النثرية في البيت السادس، وفيه يتعجب الشاعر من نوح الحمائم خوف الفراق الذي لم تبد نذره.

ولايجد ما يقوله في البيت السابع سوى التأكيد على أن هذه النذر لم تطرق حياتهن بعد، فالبيت بشطريه عطف بيان على (وما بدت خيل المعار) في نهاية البيت السادس.

هذا من حيث المضمون، أما من حيث الشكل فقد وفق الشاعر في التعبير عن عدم ظهور النذر في سماء الورق، والفضل في هذا لخياله

الـذي كان قـد تخلى عنـه في البيت السابق، ومـظهره في الشـطرة الأولى صورة كنائية مستمدة من البيئة البدويـة التي من لوزامهـا العصا ومـا في معناها مما يحل محلها عند غيابها أو مما تحل هي محله عند غيابـه من سيف آو رمح ونحوهما ومظهـره فى الشطرة الثـانية استعـارة مكنية قـائمة عـلى تشخيص النوى وجعلها عابثة لاهية.

***

ونصل إلى الرقعة الأرجوانية في القصيدة بـالأبيات من ٨ ـ ١٢ إنها بيت القصيـد وواسطة العقد بكلماتها الشعرية الرقيقة، وبنغمها العميق العذب، وبلوحاتها التي رسمتها، وباللحظ الذكي للصلة الجـامعة بـين البنفسج الذي يـزداد حسنا كلما زدتـه نظراً من جهـة، وأثر القـرص في وجوه الحسان من جهة، ثم هذه الكناية المعبرة عن نعمة الورق وترفها، دليل ذلك ورودها ماء دجلة متى شاءت، وامتلاء بطونها من بواكير الثمار التي لا تـوجد إلا عنـد المـترفـين من ذوي النعمـة واليسـار، وهن يقمن أوكارهن في رءوس الأشجار بحيث، تـاج الخليفة أي في بغـداد وربما في قصر الخليفـة نفسـه، أو في حـديقـة هـذا القصر، ويمكن أن نفهم أنهن يقمن أو كـارهن في رءوس الأشجار عـلى مستوى تـاج الخليفـة فـأغلب الظن أنه لم يكن يوجد في بغـداد أعلى من رءوس الأشجـار علوا ماديـا، كما لايوجد في بغداد ولا في غيرها أعـلى من رأس الخليفة علوا معنـويا، وقـد توزع هـذا (الأعـلى) فـأخـذ منـه الخليفـة المعنى وراحت الـورق بالمبنى، تلك حال الحمائم النائحة، أما الشاعر المسكين فيعيش في أجواز البرارى، ويالها من مفارقة لاذعة موجعة أمسـك بها ولم يفلتهـا بل مضى معها إلى نهايتها حين سألها عن حالها لو نيطت شجونه بها، وانتقلت نـار وجده منه إليها، وهي صورة قائمة على تبادل المواقف افتراضا لاحقيقة.

وإذا كـانت كلمة (جـداً) في البيت الخامس لاتعجبنـا لنثريتهـا أو

لابتذالها، فإن كلمة (عنقفير) في البيت الثالث عشر لاتعجبنا لحوشيتها وثقلها، لكنها ـ والحق يُقال ـ جاءت في موضعها ووافقت سياقها، فالكلمة بشعة بتركيبها، وكتلتها الصوتية توحى بمضمونها، ويظهر أن حد السيوف قليل عندها مضمونا وشكلا.

والبيت الرابع عشر مثل للإطناب المحمود بذكر الخاص بعد العام، أو بالإيضاح بعد الإبهام، وكان الله في عون الشاعر، فكل داهية من دواهى هذا البيت تهد الجبال.

ولم يكن بحاجة إلى البيت الخامس عشر ليقرر مقسماً أنه لا وجد كوجده، ولا اصطبار كاصطباره، والتشبيهان توضيحيان ومع أنهما كذلك فقد استطاع الشاعر بهما ومن خلالهما أن يرسم أكبر صورتين لمعاناة إنسان ومصابرته.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشاعـــر وزوجتـــه(*)

١٦ - ٢٥

وفيما يشبه المحاورة التي دارت بين أبي نواس وزوجته لما هم برحلته إلى مصر، نجد ابن المقرب ينتقل إلى ذكر حكايته مع زوجته لما هم برحلته إلى بغداد، مع ملاحظة رقة أبي نواس في تكنيته عن زوجته بأنها التي من بيتها خف مركبه، أما ابن المقرب فيومىء إليها بكلمة مقتضبة غير محببة هي (ولائمة)، ولم تكن لائمة بل متحيرة متوددة فمثل ابن المقرب في اعتداده بشخصيته ورجولته وهو الربيعي البراهيمي العبدلي العيوني، لا ينتظر منه أن يسمح لزوجته بلومه، بل لا تفكر زوجته في لومه فضلاً عن أن تقدر على لومه.

وأيضاً مع ملاحظة ملاينة أبي نواس لزوجته في محاولة مخلصة منه لإقناعها بل لإغرائها برحلته كما يظهر من قوله :

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

جنباً إلى جنب مع مخاشنة ابن المقرب لزوجته عملاً : بصده عن هواها وازوراره دونها وقولاً : برده عليها معجلاً عنها وغير مبال بها بل داعياً على أعز إنسان عندها وهو أبوها قال ويالهول ماقال :

(*) في أساس البلاغة مادة زوج ص ١٩٧ « هو زوجها وهي زوجه وزوجته ».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ذرينـــى لا أبـــالك

(ذرينى) هي (ذرينى) النواسية لكن شتان بين مابعدها والفرق بين الكلامين هو الفرق بين الرجلين، وهو هو الفرق في ذلك الوقت بين حضارة بغداد وحضارة البحرين.

ولا يشفع لابن المقرب تبرير موقفه من زوجته بأن ذا الحسب النضار من أمثاله لا يرضى بدار الهون، وبأن ظل السدر عند الذل أولى بأهل المجد من ظل السدار، إلى آخر ما استطرد إليه واسترسل فيه حتى نهاية القصيدة، أجل لا يشفع له ذلك كله في معاملة زوجته المحزونة لفراقه بل الباكية من هذا الفراق تلك المعاملة القاسية.

لقد كانت تهواه وتدعو له بالهداية حتى يسمع كلامها ويبقى إلى جوارها، وقد استخدمت في سبيل ذلك كل أسلحة المرأة من أدمع غزار شرقت بها ومن إغراء بالمتعة التي لعله نسيها وهو المعنى الثاني لقولها :

أتقنع بالعلاة من العلالى بديلاً والمثار من الوثار ؟ !

إنها ـ فيما حكاه عنها ـ عبأت طاقتها الأنثوية كلها، فذكرته بالعلالى وهي الغرف الفوقية البعيدة عن فضول أهل الدار وإذا كان في شغل عن العلالى وذكرياتها بما هو فيه من مطاياه المحلجة حاضرة الحضار، فلتمض في استنفاد كل وسائل المرأة ولتلمح له بما يشبه التصريح بالفراش الدافىء المبهج.

تلك كانت هي، فماذا كان هو ؟ كان رجلاً فظاً غليظ القلب وبدلاً من أن يرق لزوجته فينزل على رأيها أو يحاول إقناعها كما فعل سابقه نراه

يهملها بل ينهرها ويشتمها، وهو غير مسامح في هذا حضارياً ولا اجتماعياً ولا دينياً، وكل ما نعتذر به له أو عنه أنه كان مغضباً والغضب ريح تطفىء نور العقل أولا وتميت الحب ثانياً.

***

هذا كان مضمون الحوار الذي دار بين ابن المقرب وزوجته.
فماذ عن شكله.

أول مايستوقفنا من ذلك صورة زوجته التي شرقتْ بدموعها لرحيله الذي لم تذعن له ولم تتقبله، والصورة كناية عن غلبة البكاء عليها وعن كثرة دموعها، ولما كانت تجاهد في إخفائها والإمساك بها فقد رجع بعضها إلى مجاريه الداخلية ووصل إلى حلقها فشرقت به، وعرف ابن المقرب ذلك من تقطع كلامها ومن نشيجها، جاء في التبيان للعكبرى « والشرق بالدمع أن يقطع الانتحاب النَّفَسَ فيجعله في مثل حال الشرق بالشيء »(٤).

وإن قلبها لينفطر عليه من تجشمه الأهوال فرداً، وقد جاءت كلمة (فرداً) هذه متحملة بكل حرص المرأة على رجلها، ومن إيحائها أو من ظلالها أنها أفصحت عن مكنون حبها له وعن مدى خشيتها عليه لكونه وحده في طول رحلته وعرضها، وقد أخذنا هذين البعدين الضاربين في قلبها قبل أن يضربا في رحلة زوجها من مقابلتها بين (غبر البيد) و (لجج البحار).

ونمضى نتلمس البعد الثالث في استشفافها سبب رحلته وحيرتها في تحديد هذا السبب : أهو المال ؟ أهو المجد ؟ ولا تستقر على أيهما فتضيق

---

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبى بشرح أبي البقاء العكبرى جـ ١ ص ٨٨ الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ، ١٩٥٦ م مصطفى البابى الحلبى بمصر.

ذرعاً بنفسها، وفي قمة انفعالها يرد على بالها احتمال جديد فحواه أنه يكره وطنه وقومه.

وبرغم اضطرابها وحزنها وبكائها وتزاحم أفكارها، نراها لا تنسى الدعاء له، وما أحسن مادعت به (هُديت) التي اعترضت بها كلامها، وهي جملة دعائية حانية.

وإذا كان قد بدأ البيت الثالث والعشرين وهو مهتاج غضباً على زوجته، لأنها حاولت إثناءه عن رحلته، فإنه قد ختمه منتفخ الأوداج فخراً بحسبه الخالص من شوائب الهجنة.

والاستفهام في (كيف يرضى بدار الهون ذو الحسب النضار) استفهام بلاغي غرضه النفي أي لا يرضى ذو الحسب الأصيل بذلك.

وإنه ليشرع لنفسه ولغيره ممن هم على شاكلته بقوله :

فظل السدر عند الذل أولى بأهل المجد من ظل السدار

وقد أكثر من المطابقة المتحملة للجناس، أو من الجناس المتحمل للمطابقة منذ (العلاة) والعلالى (والمثار) و(الوثار)، وها هو ذا يستطرد إلى (السدر) و(السدار) وسيستطرد في البيت ٢٦ إلى (قرم) و(قوم)، وفي البيت ٢٨ إلى (قَر) و(القرار) وفي البيت ٢٩ إلى (المآبر) و(الإبار)، وفي البيت ٣٠ إلى (السِّب) و(السَّبَب)، وفي البيت ٣١ إلى (الحِذْرية) و(الحِذَار)، وفي البيت ٣٢ إلى (جزيت شر الجزاء) و(ذقت فقدان الشرار)، وفي البيت ٣٣ إلى (تَذْرو) و(ذِرَار)، وهي صور بديعية وصل الشاعر إليها لخبرته بمظاهر بيئته، ولمعرفته مسمياتها في لغته، لكنه كثفها، وقد نقول : تكلفها وحشدها في حيز ضيق من قصيدته، وهو عمل لا ترضاه الفنية، لأن النغم الصادر عن الحروف المتجانسة إنما هو نغم حسي سطحي يصافح الأذن، وينصرف عنها دون أن يستقر فيها، وعسى أن يشغلها عما قد يكون ثمة من نغم هامس عميق.

***

ونحس لذع يأسه وأساه على نفسه وعلى تفلت عمره من بين يديه في قوله (فكم أفنى على التسويف عمرا)، كما نستشعر إحساسه المؤلم بأن مراحل صباه، وفتوته وشبابه، كانت قصيرة، وبعدها ـ على قصرها ـ لم ترحمه الحياة، بل عجلت إليه بمتاعبها، وأناخت عليه بكلكلها. اسمعه يصف عمره الذي وأده تسويف قومه له بأنه (أتى في إثر أعمار قصار).

وكأنما يقر الحدس الثالث لزوجته، ويشهد بصدقها فيه، وبذكائها في الوقوع عليه فيقول في اتجاهها كالمعتذر لها عن رحلته أو كالمعترف لها بسبب رحلته :

وحتَّام الخلود إلى مكان على مضض به أبداً أدارى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(٣)
الشاعـــر والحاكـــم
٢٦ - ٣١

ثم يسترسل قائلاً : ولو أني أداري سيدا قد يقسو على قومه أو بعض قومه ريثما يحمي ذماره ويؤمِّن دياره، ثم بعد ذلك يعفو فيتحلم ويتكرم، لو أني أداري سيدا هذا شأنه لعذرت نفسي بل لطمأنتها وملت بها إلى الموادعة والمسالمة، لكن من أداريهم أفراخ ترفع من قدرهم إذا عددتهم غنما، لا يرون سبل المجد بعيونهم، وهم إلى ذلك بصراء بالإيقاع بين الناس عن طريق الدس والنميمة وإذا مارسوا عملاً فليس إلا تأبير النخل وإصلاحه.

ونفهم من ذلك أنه كان عمل الطبقة الدنيا في المجتمع البحراني.

هذا الذي نصب نفسه سيدا ليس سيدا حقيقة، فليس عبد لِّ النسب ولا ربيعيَّ الأرومة، أجل إنه يمت إلينا بصلة، لكنها صلة ضعيفة لا تسمح لصاحبها بأن يتملكنا ويتحكم فينا، وصدوراً عن إحساس هذا الحاكم بالنقص، أو تطبيقاً لقانون التعويض نجده دائماً متحفزاً للشر كأنه طائر الحبارى الذي لا يُرى إلا منتفخاً متوتراً كأنه ذاهب إلى معركة.

ذلك كان ابن المقرب مع مهجوه في الأبيات من ٢٦ إلى ٣١ وقد وقع فيها على صور خيالية مختلفة.

فـ (كريم المنتمى) كما أرجح أن تكون - ولو أنني عاملتها على أنها

(المنتهى) كما جاءت في الديوان المحقق ـ (كـريم المنتمي) هذه كنـاية عن عراقة الأصل التي افتقدها ابن المقرب في حاكمه ومهجوه، وكذلـك (حامي الذمار) لكنها كناية عن الشجاعة والأنفـة، وفي (قلت للنفس اطمئني) حوار داخلي يكلم الشاعر فيه وبه نفسـه، وهو نـوع من الفنية في إجراء الأسلوب على أنماط مختلفة، أما التعبير عن السيـد بأنـه (قر) يعنى: دجـاجـة فهـو من حيث الشكـل استعـارة تصريحيـة، ومن حيث المضمون سباب فاحش فالفروجة تـطلق في بعض البيئات البـدوية عـلى الرجل الذي يلاط به، وإذا كان الحاكم هكذا حقيقة أو ادعاءً فهـو يُجل حتما إذا عددته من الغنم، وفي هذا مافيه من الهزء به، والمخرقة له، وفي (سبل المعالي) تشبيـه بليغ أفـاد إخراج المعنـوي وهو (المعـالي) مخرج الحسى وهـو (السبل)، والمقـابلة واضحة بـل صارخـة بـين الشـطرين المكّـونين للبيت التـاسع والعشرين، وهي تقلل من شـأن مايعـرفـون، وتكبر من شأن مايجهلون، وهذا يعنى أن ميـزانهم في المرتـين مختل، وأن صفقتهم مع الحياة خاسرة والبيت الثلاثون وهو:

تـعـلق مـن عـرى قـومي بـسَـبٍّ ضـعـيف لـيس بـالـسبـب المغـار

هذا البيت قائم على نوع من الخيال التركيبى المكثف.

نتخيل أولا أن قومه يلبسون ملابس ذات عرى.
ونتخيل ثانياً أن بهذه الملابس أكثر من عروة لم تُشغل بأزرارها، ونتخيـل ثالثاً أن السيد المهجو قد جاء بحبل طويـل وربطه في هـذه العرى ربـطا محكما ثم علق به نفسه.

والخـلاصة أنـه قد تعلق من عـرى قـوم ابن المقـرب بحبـل لكنـه لايلبث أن يسقط، لأن هذا الحبل ضعيف الفتل.

ولما كان هذا كله تخييلا فإن من الممكن تفسيره بالمصاهرة والمصاهرة شيء عارض يطرأ ثم يثبت أو يزول، وعلى فـرض صحة الاستنـاج أولا

ثم على فرض ثبات المصاهرة ثانياً فهي لا تعطي صاحبها الحق في إرث المجد، لكن هذا الصهر قد ملك، ولأنه لاحق له في ذلك نجده دائماً خائفا من أن يهجم أصحاب الملك عليه ليقتلوه أو ينحوه، وهو درءًا لذلك يفتعل الجدية ويتظاهر بالقوة، ولا يظهر للناس إلا في هيئة المتأهب للنزال والشر، إنه كالديك يمشي في خيلاء وقد نفش ريش عنقه، لابل كالحباري التي لاحذرية لها تنفشها، ولأنها كذلك تتوهم أن لها هذا الريش المنتفش فتمشي مشية الديك وهي قرعاء.

والمحصلة صورة (كاريكاتورية) مضحكة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(٤)

الشاعـــر ودهـــره

٣٢ ـ ٣٥

لما كان الدهر منذ أقدم العصور هو المشجب الذي يعلق عليه الناس همومهم ومتاعبهم، بل أخطاءهم وذنوبهم، فقد مشى ابن المقرب في الموكب وجعل يسب دهره ويرجمه بحجارة من سجيل شعره.

هاهو ذا يعلن الحرب عليه فيسميه أولا شر الدهور، لكأنه عاشه كله وخبره ليصدر عليه هذا الحكم المطلق، ثم لا يلبث أن يشخصه ويدعو عليه بأن يُجزى شر الجزاء، وبأن يفقد جبروته وقوته، لماذا؟ ليصحح أخطاءه بأن يعيد إلى كل صاحب حق حقة، وبأن يحقق لكل ماجد مجده، وليتخلى نهائيا عما زحم رأسه به من حمق وسفه، وشاهده على أن دهره يخبط خبط عشواء هو (ابن المقرب) نفسه، فقد ابتلاه بالمحن التي بيضت شعر رأسه قبل أن ينبت شعر وجهه أي قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، والبيت محمل بكنايتين: الأولى عن شدة وقع المصائب عليه، والثانية عن صغره وحداثة سنه.

وداهية الدواهي أن الأسلحة التي استخدمها دهره ضده لم تكن متوقعة أبدا، لأنها ليست أسلحة أصلا، إنه يعرفها جيدا، فهي ليست غريبة عليه، إنها أهله وقومه، لقد غص بريقه إذن، ولو غص بغير ريقه لاعتصر بما شاء من ماء، كما أنه لو حورب بغير أهله لاستعمل معهم ماقدر عليه من أسلحة.

وهي حكمة قديمة سبقه إلى نظمها عدي بن زيد العبادي قال:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(٥)

الشاعر والشامتون به

٣٦ ـ ٣٨

ويمضي في الاتكاء على غيره بقوله:

فقل للشامتين بنا علانا هنيئاً بالمهانة والصغار

والشطرة الأولى تثب إلى ذهننا بقول عمرو بن كلثوم في معلقته.

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

والقصيدتان بعدُ من بحر واحد هو الوافر، أما الشطرة الثانية فتقع من ذواكرنا على قول الله تعالى ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾. وفي تهنئته الشامتين بالمهانة والصغار مافيها من تهكم بهم وتقريع لهم.

ويمضي فيوئسهم ويسخر منهم بقوله:

مكانكمُ فسِخُوا فالمعالي صعاب ليس تدرك بالسرار

والصورة الخيالية بارزة بروزا قويا في (مكانكم فسخوا) ومعناها اقعدوا على أذنا بكم حيث أنتم، لأن المعالي صعبة عليكم.

والبيت كله منظور فيه إلى قول الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وقد كان ابن المقرب صاحب دربة وخبرة وهو ينبه على أن « المعالي

صعـاب ليس تدرك بـالسرار »، فالسرار هـو الخفاء كـما جاء في أسـاس البلاغة مادة (سرر)، وإذا كان الأمر كذلـك فإن الـوصول إلى المعـالي يستلزم الوضوح ليعمل الإنسان دائما، أما العمل في خفاء فلا يكون إلا متقطعا، وابن المقرب نفسه خير شاهد على ذلك، فقد كون نفسه غضًّـا بجده وعزمه.

***

هكذا تنهى القصيدة وهي نهاية مبتورة لا تُشعر بخاتمة.

وهذا يصدق ماسبق أن قلناه من أنها سجـل لحياة ابن المقـرب وقد زاد فأطلعنا على ماكان بينه وبين زوجته قبيل رحلته.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الموسيقـــى

القصيدة من بحر الوافر ألـين البحور، يشتـد إذا شددتـه ويرق إذا رققته، وأكثر مايجود به النظم في الفخـر كمعلقة عمـرو بن كلثوم. قـال الخليل بن أحمد: « سمى وافراً لوفور أجزائه وتداً بوتد » وقال الدماميني « لوفور حركاته باجتماع الأوتاد والفواصل في أجزائه ».

وإذا كان لم يستعمل كاملا في الشعر العربي(٥):

مفـاعـلتن مفـاعـلتن مفـاعـلتن مفـاعـلتن مفـاعـلتن مفـاعـلتن

فإنه قد استعمل تاماً ومجزوءًا، والفرق بين كامـل الوافـر وتامـه أن عروض كامل الوافر وهي التفعيلة الأخيرة من الشطرة الأولى تظل كاملة (مفاعلتن) وكذلك ضربه وهو التفعيلة الأخيرة من الشطرة الثانية، أما عروض تام الوافر فتأتى مقطوعـة وكذلـك ضربه، والقـطف هو اجتـماع الحذف مع العصب. فالحذف إسقاط السبب الخفيف من آخر التفعيلة (تن) من مفـاعلتن، والعصب إسكان الحـرف الخـامس، وبـالقـطف تتحول التفعيلة الثالثة في كل من الشطرين إلى (مفاعلْ) بإسكان اللام وتُنقل إلى فعولن هكذا.

صبـا شـوقـن فـحنـن الـد ديـار مـفـاعـلتـن مـفـاعـلتـن فـعـول
ونـازعـهـل هـواثـوبـل وقـار مـفـاعـلتـن مـفـاعـلتـن فـعـول

(٥) العمدة جـ ١ ص ١٣٦ وأسس النقد الأدبي لأحمـد أحمد بـدوي ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ الطبعـة الثالثة سنة ١٩٦٤ والمدخل للسنجرجي ص ٧٢ وأصـول النقد الأدبي لأحمـد الشايب ص ٢٩٢ طبعة الاسكندرية سنه ١٩٤٠ ومقدمة ترجمة الإلياذة للبساني ص ٩٧.

ولنذكر أن بحر الوافر هو الرابع في تسلسل البحور التي أكثر ابن المقرب من النظم فيها، ولايسبقه في ذلك إلا الطويل، والبسيط والكامل على الترتيب السابق، وهذه البحور مع الخفيف هي التي كان لها الغلبة على الشعر العربي حتى عصر النهضة، لتلاؤمها تلاؤما عفويا مع موضوعاتها من جهة، ولإرضائها أذواق الناس في البيئات العربية من جهة.

***

والقصيدة ـ من حيث القافية ـ رائية، أعنى أن حرف الروى فيها هو الراء، وقد رأينا أن ترتيبه السادس في حروف الروى التي بنى عليها ابن المقرب شعره، وعددها عشرون.

وحروف الروى التي تسبق الراء في شعره كثرة هي الميم واللام والباء والدال والنون على التوالى، ثم هي من القصائد الثلاث والثلاثين التي التزم ابن المقرب قبل رويها حرف مد وهو هنا الألف.

***

ونقف من الموسيقى الداخلية الواضحة عند التصريع في مطلع القصيدة، وعند حسن التقسيم في:

فراق أحبة وذهاب مال وضيم أقارب وأذاة جار

فالبيت ـ كما نرى ـ مقسم إلى أربعة أقسام متساوية، وكل قسم قائم بنفسه، ويعدل سابقه أو لاحقه بلازيادة ولا نقص[٦] وطالما وقفنا عندما فيها من طباق وجناس ومقابلة.

أما الموسيقى الداخلية الخفية فلا نحسها فيها بدرجة كافية ولعله

---

(٦) انظر في التقسيم العمدة جـ ٢ ص ٢٠ ـ ٣١ والإيضاح ص ٥١٠.

لهذا قلنا ماقلناه في صدر الكلام عن « القصيدة ومحاورها الستة » .

وإذا كان لى أن أستدرك على نفسى فإنني أقول : إن الجزء الأول من القصيدة (الشاعر والحمائم ١ ـ ١٥) هو أكثر أجزائها سيولة وشاعرية ، لاسيما الأبيات من ٨ ـ ١٢ فهي تتمتع بقدر كبير من الموسيقى الداخلية الخفية ، ولو رحنا نتلمس مظاهرها أو بعض مظاهرها ماقدرنا ، ونتمحل المعرفة أو نتكلف الذوق فنقف مثلا عند النون المنغمة في ضمير المخاطبات (أنتن) والنون المشددة في (النَّواعم)، والنون المفتوحة في (بينَ) والنون المنونة بعد ألف المد في (بان)، ثم هذه الراء وتلك الياء المكررتان في الشطر الثاني ، وناهيك بطرافة ودقة تشبيه البنفسج المتنامي الجمال بالأثر المتزايد للقرص في وجن الجواري .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصيدة الثالثة

وقال في ذي الحجة الحرام سنة ٦١٦ هـ

يمدح الرئيس محمد بن عبدالله بن سنان رحمه الله تعالى[١].

(١) أتعبتَ سمعي بطول اللوم فاقتصر ... ماذا أهمك من نومي ومن سهري

(٢) عدمت رشدك كم نوم على ضمد ... قل لي: أمن حجر صورت أم بشر

(٣) ياجاثما لسهام الذل ترشقه ... ما أنت إلا قتيل العجز والخور

(٤) ثب قائما واركب الأخطار مقتحما ... فإنما يركب الأخطار ذو الخطر

(*) هي القصيدة رقم ٣٨ ص ٢٤٠.

(١) هكذا في الديوان، وهو كلام مبتسر وغير دقيق، فالممدوح هو الرئيس محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله.

(١) الضَمَد: الحقد والغيظ قال النابغة:

ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

ومن المجاز ضمدت فلانة: جمعت بين زوجها وخدنها أو اتخذت خدنين قال الهذلي:

أردت لكيلا تضمدي بي وصاحبي ... ألا لا أحبي صاحبي ودعيني

(أساس البلاغة ص ٢٧١) مادة ضمد.

(٣) جثم يجثم جثوما وجثما فهو جاثم: لزم مكانه والجثوم للإنسان بمنزلة البروك للإبل، في القرآن الكريم « **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** » أي أجساداً ملقاة في الأرض، قال أبو العباس: أي أصابهم البلاء فبركوا فيها والجاثم البارك على رجليه (انظر في اللسان مادة جثم).

(٤) الاقتحام هو الدخول في الأمور التي لايطيقها كل أحد، يقُال: ركب قحمة الطريق أي ماصعب منها على سالكه وقَحمَّ الفرسُ راكبه تقحيما أي رمي به على وجهه، وتقحمتْ به الناقة: ندَّت فلم يضبطها وفلان مقدام مقحام ليس معه إحجام (أساس البلاغة ص ٣٥٦) (مادة قحم).

(٥) ولاتكن مثل ماقد قال بعضهم غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

(٦) أفي القضية أن أبقي كذا تبعا والقوم قومي وأرباب العلا نفرى

(٧) كم ذا انتظارىَ والأنفاس في صعد والظلم في مدد والعمر في قصر

(٨) على حسامي وعزمي لا عدمتهما وردي ولكن على ربِّ العلا صَدَرى

(٩) وكيف أرهب موتا أو أخاف ردي وحامل الميت محمول على الأثر

(١٠) ولست ممن إذا نابته نائبة أحال عجزاً وإشفاقا على القدر

(١١) ياضيعة العمر في قوم تخالهم ناساً ولاغير أثواب على صور

(١٢) لو أن ذا الحلم قيساحلَّ بينهمُ لودَّ منهم ذهاب السمع والبصر

(١٣) ولو يعمر نوح فيهم سنة لقال يارب هذا غاية العمر

(١٤) فآه مني بحجاج يزول به ماكان من عجر عندى ومن بُجر

(١٥) أدن النجيبة للترحال وارخ لها زمامها واخلط الروحات بالبكر

---

(٥) يشير إلى بيت أبي العلاء المعرى:

والمرء مالم يفد نفعا إقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

(٧) الصَّعَد: الشدة، وتصعُّدُ الأنفاس: ارتفاعها في ضيق.

(٨) الورد هو الورود على الماء أو الماء الذي يورد، والصدر: الرجوع عن الماء أو رجوع المسافر من مقصده.

(١٢) هو قيس بن عاصم المنقرى التميمى أحد أمراء العرب وحلمائهم وأحد الشعراء الفرسان ساد في الجاهلية والإسلام. كان ممن حرم على نفسه الخمر في الجاهلية قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بنى تميم فأسلم وصحب رسول الله حتى لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وعاش بعده مدة، نزل البصرة في آخر أيامه وبها توفي سنة ٢٠ هـ (انظر الديوان هامش رقم ٤٣ ص ٥٦، وهامش رقم ١٧ ص ١١٧ وهامش رقم ١٦ ص ١٤٢، وهامش رقم ٢٢ ص ٢٢١).

(١٤) يشير إلى الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الأمويين على العراق ومخضد شوكة الفتن فيها وهو أحد الجبارين القساة، والعجر والبحر: العيوب والأحزان، وما أبدى الإنسان وما أخفى.

(١٥) النجيبة هي النشطة السباقة في السير من النوق والخيل، وخلْط الروحات بالبكر كناية عن المداومة على السير، لأن الروحات مع العشى والبكر مع الغداة.

(١٦) وخطها الخط إرقالاً وأول قلى أوال لانادما واهجر قرى هجر
(١٧) أماكنا لعبت أهل الفساد بها فدمروها بلا فكر ولانظر
(١٨) لم يبق في غيرها فضل ولاسعة عن العدو لذى نفع ولاضرر
(١٩) أما ولولا ابن عبدالله لاكذبا لاستهلكت بين ناب الشر والظفر
(٢٠) لولا الهمام ابن عبدالله لانقلبت حَصَّاءَ نابٍ بلا هلب ولاوبر
(٢١) لكنه لم يزل يجلو بهمته عنها غياهب من ذل ومن قتر
(٢٢) كم نار شر علت فيها فأخمدها من بعد أن عمت الآفاق بالشرر
(٢٣) وكم أخي ثروة أودي بثروته تحامل من صروف الدهر والغير
(٢٤) أهدى إليه الغنى من غير مسألة كذا يكون فِعال السادة الغُرَر
(٢٥) وكم من مضيم تمنى من مضامته موتا يؤدي إلى الفردوس أو سقر
(٢٦) أغاثه وأزال الضيم عنه فما يخشى سوى الله في بدو ولاحضر
(٢٧) فحبب العيش والدنيا إليه وقد تحلو الحياة لفقد الخوف والضرر
(٢٨) وكم غشوم شديد البطش ذي جَنفَ بالكبر مشتمل بالتيه مؤتزر

---

(١٦) الخط: القطيف، والإرقال: الإسراع، والقلى: البغض وأوال هي التي يطلق عليها الآن مع جزر صغيرة تجاورها اسم إمارة البحرين. وهجر: هي إما مدينة الأحساء الحالية، أو كانت تقع قريبا منها، وتطلق أيضا على البحرين في الاصطلاح القديم وكانت تشمل المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

(٢٠) حصَّأت الناقة: اشتد أكلها أو شربها أو كلاهما، يقصد أن الدولة العيونية أصبحت طعاما لنهم أكول، والهلب: الشعر أو مانبت منه على أجفان العينين أو ماغلظ من الشعر أو شعر الذنب، والوبر للإبل كالصوف للغنم.

(٢١) القتر: الغبار، وبوجهه قَتَرو قَتَرة وهو مايغشاه من غبرة الكرب والموت.

(٢٣) الغير: أحداث الزمان.

(٢٤) الغرر: الأخيار من أحاسن الناس، وغرة المال: الجمال والخيل والعبيد أي خياره قال ذو الرمة: ويوم بذى قار أغر محجل.

(٢٥) المضيم: المظلوم.

(٢٨) غشم الوالي الرعية وهو غشوم إذا خبطهم بعسفه وأخذ ماقدر عليه، وغشم الحاطب أي احتطب ماقدر عليه دون تمييز، والجنف: الميل عن الحق أي الجور.

(٢٩) لايذكر الله إلا عند رابية يرقى وعند ارتجاس الرعد والمطر
(٣٠) يلقى الرياح إذا هبت بساحته مجرد السيف من جهل ومن أشَر
(٣١) يتلوه كل غوى حين يندبه أجرى من السيل بل أشْرى من النفر
(٣٢) لايعرف المنع في شيء يحاوله ولا يراجع في عرف ولانُكر
(٣٣) قد عودته ذوو الأمر النزول على ما شاء عادة مقهور لمقتهر
(٣٤) أراد منه الذي قد كان يعهده منهم فصادف ألوى طامح البصر
(٣٥) مماحكا للعدى عقاد ألوية أقضى وأمضى من الصمصامة الذكر
(٣٦) فعاف من كان منته مطامعه وانقاد بعد طُموح الرأس والصَّعر
(٣٧) لو غيره ولِّى البحرين لانتهُكت وخبر القوم عنها أسوأ الخبر
(٣٨) فقد تولت رجال أمرها وسعت فيها فلم تبق من شيء ولم تذر
(٣٩) وأيُّ سائس ملك وابن سائسه وأي عدة أملاك ومدَّخر
(٤٠) أغرينميه من شيبان كل فتى حامى الذمار جواد ماجد زمر

---

(٢٩) الرابية: ما ارتفع من الأرض، ورجست السماء أي رعدت رعداً شديداً.
(٣٠) الأشرَ: البطر والزهو، يوصف البرق بالأشر إذا تردد في لمعانه ويوصف النبات به إذا مضى في غلوائه قال نصيب الأصغر:
إن العروق إذا استَسرَّ بها الثري أشر النبات بها وطاب المنزع
(٣١) النعر: ريح تأخذ في الأنف فتهزه، وذباب أزرق يلسع الدواب وربما دخل أنف الحمار فيركب رأسه ولا يرده شيء.
(٣٤) ألوي: شديد الخصومة.
(٣٥) رجل محك: لجوج عسر، والصمصامة الذكر هو السيف القاطع.
(٣٦) عاف عن الورد: رجع عنه فلم يشرب، وصعر خده: تكبر وتجبر.
(٤٠) ينميه: ينسبه، والذمار: مايلزمك حفظه ورعايته، والزمر: الشجاع.
أما شيبان فقبيلة عربية شمالية وهم بنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ينتهى إلى بكر بن وائل، وفتيان شيبان كثر منهم على سبيل المثال لاالحصر:
(١) هاني بن مسعود بن عمرو الشيباني من سادات العرب وأبطالهم في الجاهلية.
(٢) ابن ذي الجدين بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني سيد شيبان ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، ذكره الجاحظ في الفارس يبلغ الغاية والذروة ولايرزق الذكر والتنويه ثم قال: وهم يضربون المثل بعمرو بن معدى كرب =

(٤١) سمح يعد وفور المال منقصة ... عند الكريم إذا ماالعرض لم يفر

(٤٢) لو لم يكن لبنى شيبان منقبة ... إلا أبوه لطالت كل مفتخر

(٤٣) ولم يمت من صفى الدين وارثه ... إن الغصون لقد تُنمى على الشجر

(٤٤) جود الأكارم إخبار وجودهما ... شيء تراه وليس الخبر كالخبر

(٤٥) يفديك ياذا العلا والمجد كل عم ... عن المكارم بادى العىِّ والحصر

(٤٦) إذا يلم به خطب ذكرت به ... تلك النعامة لم تحمل ولم تطر

(٤٧) فإنه والذي تعنو الوجوه له ... لولاك لم يبق للعلياء من وزر

(٤٨) قالوا: نهنيك بالعيد الكبير فقد ... وافي وترك الهنا من أعظم الكبر

(٤٩) وهل تُهنَّا بعيد أنت بهجته ... لولاك لم يحل في سمع ولابصر

(٥٠) بقيت ظلا على كل الأنام ولا ... زلتَ المؤيد بالإقبال والظَّفر

(٥١) ولاخلت منك دنيا أنت زهرتها ... حتى يُقارن بين الشمس والقمر

***

= ولايعرفون بسطام بن قيس.

(٣) شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي أحد كبار الثائرين على بنى أمية، كان داهية طماحا إلى السيادة، خرج بالكوفة ونادى لنفسه بالخلافة فشل الحجاج في قتاله وتكاثرت عليه جيوش الشام فقُتل كثير من أصحابه ونجا بمن بقى منهم فمرَّ بجسر دجيل في نواحى الأهواز فنغربه فرسه فسقط في الماء وغرق سنة ٧٧ هـ.

(٤) مصاد بن يزيد بن نعيم الشيباني أخو شبيب، ثار معه وشهد أكثر حروبه، قتله خالدبن عتاب الرياحى على أبواب الكوفه قبل غرق أخيه شبيب (جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي تحقيق عبد السلام هارون القاهرة سنة ١٩٦٢ ص ٣١٧ والديوان هامش ٢٤ ص ٢٢٢ وهامش ١٩ ص ٣٧ وهامش ٤٦ ص ١٨٠ والبيان والتبين جـ ١ ص٢٠، ٢١، جـ٣ ص٢١ القاهرة سنة ١٣٦٧هـ.

(٤١) الوفر: الغني، ووفر العرض: صانه.

(٤٢) رجل نقاب: نافذ في الأمور، وذو مناقب وهي المخابر والمآثر وميمون النقيبة أي محمود المخبر.

(٤٤) الخُبرْ: ماعرفته بنفسك، والخَبرَ ماسمعته من الناس.

(٤٦) العرب تضرب النعامة مثلاً للضعيف الحيلة، إنها تشبه الطير وتشبه الإبل فإذا قيل لها: احملى. قالت: كيف أحمل وأنا طائر، وإذا قيل لها: طيرى قالت: كيف أطير وأنا مثل البعير (التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ٣٦٢ القاهرة ١٩٦١).

(٤٧) تعنو: تخضع وتذل، والوزر: الملجأ المستعصم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصيـــدة وموضوعهـــا

هذه القصيدة موضوعها الأصلي هو المدح « وسبيل الشاعر إذا مدح أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بـذكر الممـدوح، وأن يجعل معـانيه جزلة وألفاظه نقية ».

وإذا صلح هـذا الكـلام لابن رشيق[1] أن يكـون مقيـاسـاً لجـودة المدح، فإن ابن المقرب ـ في رأيي ـ قد الـتزمه وطبقـه في مدحـه بعامـة، وفي هذه القصيدة من مدحه بخاصة، وستعـطى دراستنا لهـا ـ بحسبانها تجربة شعرية صادقة وموفقة ـ حيثيات هذا الحكم، ونبدأ من ذلك بذكر خواطر الشاعر، وهي تدور حول:

١ ـ الشاعر ولائمه (الأبيات ١ ـ ١٠)
٢ ـ ضيقه بقومـه وتمنيه حجـاجا يخلصـه من عجرهم وبجـرهم (١١ ـ ١٤)
٣ ـ عزمه على مفارقة وطنه وتبرير هذا العزم (١٥ ـ ١٨).
٤ ـ المدح (١٩ ـ ٤٩).
٥ ـ الدعاء للممدوح بالبيتين ٥٠، ٥١ وهما ختام القصيدة.

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(١)
الشاعر ولائمه

على طريقة العرب في تجريد الشاعر من نفسه سخصا يخاطبه، ساخطا عليه أو راضياً عنه ـ والتجريد في ذاته خيال ابتكاري محض ـ نجد ابن المقرب يستهل قصيدته بتصور شخص يرصده، وقد لاحظ هذا الشخص سهره الكثير، ونومه القليل، فأشفق عليه ونصحه بأن يعطي جسمه حقه من النوم والراحة، ولما لم يستجب له لامه وكرر لومه، وها هو ذا الشاعر يتمرد عليه، ويجبهه بأنه قد أتعب سمعه بطول لومه له، ويطلب منه أن يسكت عنه ولا يشغل نفسه بنومه أو سهره، فهذه أمور خاصة به وحده ولا تهم صاحبه.

ونلاحظ أن كلمات المطلع حقيقية، وأن الشاعر بدأه بجملة خبرية ذات غرض بلاغي هو إظهار الضيق والتبرم بطول لوم صاحبه له، وبعد الجملة الخبرية جملتان إنشائيتان طلبيتان تنتمي أولاهما إلى أسلوب الأمر بصيغة فعل الأمر الذي جاء استعماله بلاغياً غرضه الالتماس إذا قلنا بديموقراطية ابن المقرب، وأنه سوى من خياله وعلى عينه رفيقا مشفقا عليه ومساويا له في درجته الاجتماعية، أما إن كان قد نفخ نفسه ولبس تاجه فتخيل تابعا له يمتثل أمره ونهيه، فإن الطلب في هذه الحالة يكون حقيقياً، لأنه صادر من أعلى إلى أدنى أولا، وعلى سبيل الإلزام ثانياً، والشطرة الثانية تكوِّن الجملة الطلبية الثانية وهي استفهام بلاغي غرضه التعجب من سلوك صاحبه معه وإنكاره عليه هذا السلوك.

وتراوح المطلع بين الخبرية والإنشائية قد أكسبه من الحيوية

والفاعلية ما عوضه عن الكلمات المجازيـة، وقد سبق القـول بأن البيت كله صورة خيالية تراثية.

ويـأتي البيت الثاني مبـدوءًا بجملة خبريـة لفظاً إنشـائيـة معنى هي (عدمت رشدك) فهو يدعو عليه بفقد رشده، وبمـا يترتب عـلى ذلك من عـدم تمييزه بـين الخير والشر، ومن عجب أن هـذه الجملة واقعـة وسط ست جمل، ثلاث قبلها وثلاث بعدها، وتـأخذ الجمـل الثلاث الثـانية ـ إلى حد ما ـ نوع وشكل وترتيب الجمل الثلاث الأولى هكذا.

جملة خـبرية غـرضها بـلاغي (أتعبت سمعي بـطول اللوم) فجملة إنشـائية من نـوع أسلوب الأمر بصيغـة فعـل الأمـر (فـاقتصر) ثم جملة استفهامية غـرضها بـلاغي (ماذا أهمـك من نومي ومن سهـري؟!) بعد ذلك تأتي الجملة ذات الوجهين (عدمت رشدك) وهي متلوة بثلاث جمل مناظرة للجمل السابقة.

(كم نوم على ضمد) يوبخه لكثرة نومه أو لطول نومه على ضمده.

(قـل لي) وهي جملة إنشائيـة من نـوع أسلوب الأمـر بصيغـة فعـل الأمر.

(أمن حجر صورت أم بشر) وهي جملة استفهامية غـرضها بـلاغي هو التعجب.

ونسأل: هل نحن أمام منظر مكتوب أو مرسوم؟

ثم هـذا النوم في كمـد على ضمـد، وهذا التخييـل بين الحجـريـة والبشرية، ثم هذه الموسيقى التطابقية بين كلمتي (حجر) و(بشر)!!!

إننـا من بيتي المطلع أمـام صورة شعـرية ذات أبعـاد متساويـة وقد شاركت في تكوينهـا بنسب شبه متعـادلة رمـوز لغويـة ودلالات بلاغيـة وروابط انفعالية.

وفي البيت الثالث يناديه بيا التي يُنادي بها البعيد حقيقة أو ادعـاءً،

وهو لا يناديه باسمه بل بصفته التي وصفه أو قل: وصمه بها، وهي أنه راقد على أرض العجز والخور في استسلام تام لسهام الذل التي ترشقه.

ولا يرجع الشاعر بدم صاحبه على تلك السهام، إنها ـ من وجهة نظره ـ لم تقتله بل هو الذي قتل نفسه بعجزه وخوره، وقد أكد ذلك بأسلوب القصر وهو أسلوب مزدوج الدلالة لكنه ينحاز إلى إحدى الدلالتين ملتصقا بها ومؤكداً لها، ليكون ذلك إبعاداً للدلالة الأخرى ونفيا لوجودها، فهذا الجاثم لسهام الذل ترشقه، يُظن أنه قتيل تلك السهام ولأن هذا الظن هو المتبادر إلى الذهن يأتي القصر فينفيه عن طريق إثبات غيره بأسلوب مؤكد، وما أفاده القصر هنا هو أنه قتيل العجز لا قتيل السهام، فما كانت السهام لتقتله لو لم يقتل هو نفسه بجعلها هدفاً سهلاً للسهام.

والنداء المصدر به البيت نداء غير حقيقي، فهو لا يقصد إقباله عليه بل يقصد زجره ولومه، ومن خلال الشطرين نرى صورتين: صورة الجاثم لسهام الذل ترشقه، وصورة قتيل العجز والخور، وإذا كان الموضوع مادياً في الصورتين فإن المحمول فيهما معنوي، فسهام الذل تشبيه بليغ أخرج المعنوي وهو الذل في قتله النفس مخرج الحسى وهو السهام التي تقتل الجسم، وإذا كان القتل في الأحوال العادية يتم بوسائله المادية المعروفة، فإنه هنا قد تم بالاستكانة والاستسلام وهما حالة سلبية تكون القدرة فيها متلاشية أو شبه متلاشية.

***

وبعد أن شخص داءه في البيت الثالث وصف دواءه في البيتين الرابع والخامس، ويتلخص علاجه له في كلمة واحدة هي الإيجابية، ومن مظاهرها الوثوب وركوب الأخطار في جسارة وجرأة، وإذا كانت الأمور السابقة تحليةً، فإن من التخلية ألا يكون رفيقه الذي هو نفسه

غيما يمنع الناس الشمس ثم لا يمطرهم ولا يسير عنهم.

وفي البيتين من الخيال الوثوب الذي استعمله في مكان النهوض على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية (ثِبْ) وتشخيص الأخطار بجعلها مركوبة على سبيل الاستعارة المكنية، ثم التشبيه المنهى عنه بقوله: ولا تكن مثل الغيم العقيم المقيم.

***

ولا يطيق ابن المقرب أن يتحدث عن نفسه من خلال غيره بأكثر مما سبق ها هو ذا يسفر عن وجهه بقوله في إنكار وتعجب: أمن المنطق أن أبقى تابعاً وأنا أمير من الأسرة الحاكمة؟!! ويمضي في تساؤله مستبطئا نفسه لطول انتظارها الفرصة المواتية لوثوبها مع أن هذا الانتظار مضر بصحته جسميا ونفسيا، وذلك فضلاً عن مساحة الظلم التي تتسع وتطول، ومساحة العمر التي تضيق وتقصر؟!.

وفي البيت من التطابق بين (في مدد) و(في قصر) ما مهد لما سبقت تسميته بالمطمع وبالتسهيم وبالتوشيج وبالإرصاد وغيرها، وسر الصنعة فيه أن يكون البيت مقتفيا قافيته وشاهداً بها دالاً عليها[٢].

وبأسلوب القصر للمرة الثالثة وبطريقة ثالثة (كانت الأولى هي النفي والاستثناء في «ما أنت إلا قتيل العجز والخور»، وكانت الثانية هي «إنما» في «فإنما يركب الأخطار ذو الخطر») نراه يؤكد معناه بتقديم ما حقه التأخير وهو الخبر (على لساني وعزمي) على المبتدأ (وردى) فاصلا بينهما بجملة دعائية دالة على حبه للسانه وعزمه، وعلى اعتزازه بهما واعتمادهما جناحين يحلقان به في سماء مجده، هذه الجملة هي (لاعدمتهما) وقد أفاد التقديم هنا تخصيص الورد بهما وقصره عليهما،

---

(٢) العمدة جـ٢ ص٣١ ـ ٣٢.

والمعنى: على لساني وعزمي وحدهما دون غيرهما وردي.

وفي مقابلة رائعة مطمعة يستدرك على نفسه بقوله: «ولكن على رب العلا صدرى».

وإذا كان الحسام أمراً مادياً فإنه لا يورد، أما العزم فليس مادياً وليس مما يورد، والخيال الذي فيه لذلك خيال مركب.

وابن المقرب لا يخشى الموت ولا يهاب الردى، إنه من هذه الناحية شجاع جداً، ولماذا يرهب الموت والموت مدرك كل نفس وحامل الميت اليوم محمول غدا؟!

وهو ممن يربط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها، وتفسيره لأحداث دهره لهذا تفسير صائب دائماً ومقنع دائماً، ليس ابن المقرب غيبيا ولا صوفياً وبعبارة مختصرة ليس قدريا يحيل في تبرير أخطائه على القدر، وإنما هو كما قال الله تعالى: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك».

والاستفهام في البيت التاسع بلاغى غرضه النفى وهو ينعى إلى كل إنسان نفسه بشطرته الثانية فهي حكمة عامة، وفي البيت من النثرية هذا التكرار المعيب في شطرته الأولى لأن (أخاف ردى) هي هي (أرهب موتا) لم تثر تجربته الشعرية هذه الإعادة غير المفيدة، ولم تتقدم خطوة نحو هدفها وهو التأثير بها، بل إنها تعطلت عن ذلك هذه الخطوة نفسها، ولو أنه قال (عِدًى) بدل (ردًى) لكان ـ إلى حد ما ـ أحسن وأتقن.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(٢)
ضيقه بقومه

وقف ابن المقرب من قومه موقف أصحاب الرسالات من أقوامهم، فهو لا ينفك ينصحهم ويقوِّم معوجهم متمنيا بقاءهم، فهم أولاً وأخيراً قومه وعشيرته ودولتهم دولته، أجل. إنه نقدهم نقداً لاذعاً وهجاهم هجاء مقذعاً، بل أكثر من ذلك فكر في الثورة عليهم وأخذ السلطة منهم، وكانت هذه وغيرها محاولات يائسة لإصلاح قومه وإطالة عمر دولته، لكن الحتمية التاريخية كانت أكبر منه ومن محاولاته التي استنفدت وقته وجهده، وها هو ذا يندب عمره الذي ذهب أدراج الرياح، والصورة التي أعطاها لقومه صورة تهكمية تحقيرية، وهي بعد صورة مؤلمة، لأنها تقتلع رجولتهم وإنسانيتهم من جذورها، إنهم ليسوا ناسا وإنما أثواب على صور، هم تلك العصى التي يغرزها الزراع في حقولهم ثم يلبسونها ثوب رجل تخشاه الطيور فترة ثم تأكل منسأته، وهو يستحضر التاريخ منتقيا منه الشخصيات التي صارت حقيقة عرفية في بعض الصفات الإنسانية و الظواهر الاجتماعية، ويضعها ـ فيما تميزت به ـ موضع الابتلاء بقومه، فإذا بها تضعف عن احتمال أذاهم وتسرع بالانصراف عنهم كما لو كانت شخصيات عادية، فقيس بن عاصم المنقرى وهو ممن يُضرب المثل به في الحلم، هذا الرجل ذو القلب الكبير والصدر الرحب لو حل بين قومه ورأي أعمالهم وسمع كلامهم لتمنى لفظاعة ما رأى وما سمع أن يفقد سمعه وبصره مضحيا بهما في سبيل نفسه كلها ولا عجب فبعض الشر أهون من بعض، ونوح الذي مكث

في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لو أن الله أرسله إلى قوم ابن المقرب وأمضى معهم سنة واحدة، لا كتفى من عمره بهذه السنة ولدعا الله أن يقبضه، وابن المقرب ـ وهو ليس بقيس ولا نوح ـ معذور في أن يتألم ويتوجع لأنه لم يجد بعد حجاجا ينقذه من النتوءات السياسية والأخلاقية والاجتماعية في الدولة العيونية بعامة وفي حكامها قوم ابن المقرب بخاصة.

وفي تمنى قيس ذهاب سمعه وبصره، كما في اكتفاء نوح من عمره بسنته التي عُمرها في قوم ابن المقرب، مبالغتان من نوع التقصي وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء[٣].

والمبالغتان كنايتان عن أن قوم ابن المقرب قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من السوء والشر، وإذا كانت الكناية بمفهومها البلاغي أقرب إلى العقل، لأنها الدعوى والبينة معا، فإن المبالغة التي أفرزتها كسر لحدود اللغة وتخط للدلالة المباشرة، والمحصلة الناتجة عن اجتماع المبالغة والكناية ومجيء الأولى مقدمة للثانية والثانية نتيجة للأولى المحصلة نوع من التعادلية الفنية بين الانفعال والعقل، حتى لنرى الانفعال في إطار حسيٍّ وهو هنا بشرى بل حقيقة عرفية فيما شُهر به، وقد جعلنا ذلك نرى انفعالات الشاعر بمقدار ما نحسها، بل أكثر مما نحسها، نراها مجسمة في الأشخاص الذين تمثل بهم واتخذ من رفضهم لقومه وعشيرته تبريراً لموقف الرفض الذي وقفه هو من قبل، وتكأة يتكيء عليها وهو ينشد حَجَّاجا يشرع في حصد رءوسهم التي أينعت وحان قطافها، وإنه (الحجاج المنشود أو ابن المقرب نفسه) لصاحبها.

وينبغي التنويه بكلمة (عُمِّرَ) في البيت الثالث عشر، فقد قرنها

---

(٣) العمدة جـ٣ ص٥٥.

الشاعر بسنة واحدة ليوحى بأن متاعب سنة في قوم ابن المقرب تعدل متاعب قوم نوح في خمسين وتسعمائة سنة.

(٣)
عزمه على مفارقة وطنه

ومادام السيل قد بلغ الزبى وجاوز الحزام الطبيين كما قال الإمام على رضى الله عنه، فليرحل ابن المقرب وليغذ السير وهو يرحل حتى ليسير سيرا متصلا، ولعله لذلك قد طلب من رفيقه أو من نفسه أن يُحضر الناقة النجيبة وأن يرخى لها زمامها فلا يعوقها بالإمساك به وجذبه، وإذا كانت العجر والبجر كناية عن الفساد المستشرى في قومه، فإن خلط الروحات بالبكر كناية عن مداومة السَّفر إمعاناً في البعد عن قومه، وفي الروحات والبكر من تداعى المعاني مايرهص بما سميناه التسهيم والمطمع وغيرهما من تسميات أخرى.

ولانفصاله النفسي عن حواضرٍ بلاده (الخط) و(أوال) و(هجر) نراه يركض بجسمه وراء نفسه مبتعداً بكليته عن مسرح الأحداث التي آدته وأثقلت كاهله، وقد ركب في التعبير عن ذلك موجة هادرة من الجناس المكثف، طوعه له بل أغراه به توافق أسماء هذه الحواضر مع أفعال الأمر القابعة في لغته وذاكرته والدالة على مايريده، وقد تم له ذلك في سهولة ويسر، وبدون عنت أو تكلف قال : أدن النجيبة . . . ثم قال : وخطها الخط مسرعاً، وأول أوال بغضا، واهجر قرى هجر.

ولو لم يقل ذلك فماذا كان يقول ؟ إن غير ذلك هو المتكلف وهو الصعب، وقد حاولتُ استبدال (خطها) و(أول) و(اهجر) بغيرها فلم

أوفق إلى خير منها، ووضح لي أن ماقاله هـو الطبيعي جلبتـه من معجمه اللغـوي وأسرعت به إلى شعـره أسماء الحـواضر فالخط هـو الذي جلب (خـطها) وأوال هي التي جلبت (أَوْل) وهجـر هى التي جلبت (اهجـر) وقد جاءت هـذه الأفعال كـأنها رجع الصـدى للأسـماء التي اقترنت بهـا مجانسة لها ولا بأس فمع التجانس التآنس.

لكن لماذا هذا الانفصال النفسي والجسمي عن حواضر بلاده ؟

يجيب الشاعر عن هـذا التساؤل بصـورة بيانيـة أساسهـا الاستعارة المكنية، وهو يبلور هذه الحواضر ويجعلها أشياء نفسية، ومع أنها كـذلك فقد لعب المفسدون بها فحطموها ومـازالوا بهـا حتى خربـوها وأتـوا على خيرها فلم تبق فيه بقية يثاب منها النافع ويعاقب بها الضار، وبين النفع والضرر من تداعى المعاني بالطبـاق مايقـدرنا عـلى التنبؤ ـ في حالـة ذكر طـرف واحد ـ بـالطرف الآخـر، وفي جعل البـلاد شيئاً يلعب بـه أهـل الفساد مايدل على استهـانتهم بها وإهـدارهم مصالحهـا ومصالـح أهلها وقـد بـاءوا من أجـل ذلـك بغضب ابن المقــرب عليهم، وإسراعـه في الرحيل عنهم.

(٤) المــدح

وبلا فواصل متكلفة يلج الشاعر المـدح مسترسـلاً فيما كـان فيه من ذكر حواضر البحـرين وأماكنهـا المختلفة، فيقـرر أن العنايـة الإلهية قـد ادخرت ممدوحه ـ وقد نماه رأسا إلى جده الأعلى عبد الله مؤسس الدولة ـ ليكـون منقذهـا ومخلصها من محنتهـا، فلولاه حقا لاستهلكهـا الشر عن آخـرها، وهـو يقول ذلـك صادقـاً لا منافقـاً، وقد شخص الشر وزوده

بأسلحة الفتك الحيوانية من ناب وظفر، وهي صورة بيانية قائمة على الاستعارة المكنية بما لها من فاعلية وحيوية وبما فيها من خيال مركب، أجل لولا همة ابن عبد الله لصارت البحرين لقمة سائغة لهذه الدواب النهمة الشائهة، وقد جرد الشاعر أهل الفساد الراتعين في خيرات البلاد من القيم الذاتية ومن الوجاهة الاجتماعية بل من جوهر الإنسانية حين صورهم بهذه الصورة المزرية، صورة حيوان مبطون سائب، ثم هو قبيح الخلقة نكرة فلا شعر له ولا وبر عنده نستدل به على نوعه أو فصيلته.

وتحول البلاد إلى كلأ مباح لحيوانات مريضة قبيحة صورة بيانية أساسها تشبيه التمثيل، ونحن به ومعه أمام منظرين متقاربين أو أرادت الفنية أن تجعلهما كذلك : منظر الحكام الجشعين المهطعين في الشر وقد جعلوا بلادهم نهبا لهم ولبطانتهم، ومنظر الحيوانات القرعاء المصابة بشدة الجوع والعطش، فهي لاتنى تأكل وتشرب لأنه لاهم لها إلا أن تأكل وتشرب.

والوصول بالبلاد تحت حكم العيونيين إلى هذه الدرجة من الفساد لم يكن أمراً واقعاً بل متوقعاً وقد دهمتها طلائعه وكادت تقضى عليها لولا ابن عبد الله الذي سل همته من غمدها وجلابها ظلمات الذل والقتر.

وفي البيت من الخيال تشخيص الهمة واتخاذها وسيلة لإجلاء الذل عن ديارها وهو ذل يشبه الغياهب في شدة إطباقه على النفس إشاعة لليأس فيها وتضييعاً لطريقها منها، وإذا كان هذا إجمالاً فإن من تفصيله أنه أطفأ كثيراً من نيران الشروفتنه المهلكة، وقد أخرج الشر مخرج النار ليجعله محسوساً وليوحى بضرره وشرره، وأنه أهدى الغنى إلى كثير ممن أخنى عليهم الدهر، وقد فعل ذلك دون مسألة، وهذا هو المثل الأعلى في الكرم حفظاً لماء الوجه أولا، وليكون الكرم تلقائياً عفوياً ثانياً، وأنه

أنصف كثيراً من المظلومين الذين بلغ من ظلم الناس لهم أنهم كانوا يتمنون الموت مهما تكن عاقبته، ولما أغاثهم وأزاح الظلم عنهم استعادوا ثقتهم بأنفسهم وبالحياة وازدادوا إيماناً بالله حتى صاروا لا يخشون سواه، وتقدم بهم على طريق السعادة خطوة ثانية حين حبب إليهم عيشهم ودنياهم، ثم ختم البيت بحكمة صادقة فحواها أن الحياة تحلو بالأمن والسلامة أو كما قال هو :

« تحلو الحياة بفقد الخوف والضرر »

وهو إطناب محمود لأنه تذييل جار مجرى المثل.

***

وإذا كان الضعيف عنده قوياً حتى يأخذ الحق له، فإن القوى عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه، والشق الثاني هو موضوع الأبيات من ٢٨ ـ ٢٦ قال : إن الرئيس محمد بن أبي الحسين أحمد قد اصطدم في أثناء حكمه بكثير من الأشرار، ترى الواحد منهم ظلوماً غشوماً يأخذ ما يقدر على أخذه من غيره بحقه أو بغير حقه ولا عجب فهو جبار جائر متكبر تيَّاه ينظر فلا يرى أحداً فوقه فيمعن في عجبه وكبره، نسى الله أو كاد فلا يذكره إلا عند الشدائد، ثم هو مغرور لا يأخذ للأمر أهبته ولا يعد له عدته، يلقى الأحداث أعزل جهلاً وطيشاً، يعتمد في طغيانه على أتباعه الذين هم أطوع له من بنانه، فإذا ندبهم لشر كانوا أسرع من السيل وأسرى من الريح، وقد ركب لذلك رأسه ولم يعد يعرف المنع في شيء يحاوله، مطالبه مجابة ورغباته محققة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، تلك كانت عادة الحكام السابقين معه، لا يراجعونه في خير ولا شر، كان قاهرهم وكانوا مقهورين له وظل هذا حاله حتى ملك الأمير محمد فجاءه طالباً منه ماجرت عادته بطلبه ممن قبله، لكن الأمير محمداً كان رجلاً شديد الخصومة وعراً صلباً يسير الجيوش بكثرة، وإذا

هم ألقى بين عينيه عزمه، فصدمه، ولم يكن منتظراً غير ذلك من رجل هذا شأنه. عندئذ ثاب إلى رشده فعاف ورده وأدرك أنه أمام طراز جديد من الرجال، لا يسعه إلا أن ينزل على حكمه، وإلا أن ينقاد لأمره، لأنه إذا ركب رأسه أو صعر خده فسيلقى حتفه.

هذا كان أحد مراكز القوى في الدولة العيونية قبل حكم الأمير محمد فلما جاء الأمير محمد خلع له نابه وقلم ظفره، جعله شخصاً عادياً ينشد السلامة ويرجو الموادعة، ولابن المقرب الحق في أن يعلق على ذلك وهو يسترسل مادحاً :

لو غيره ولي البحرين لانتكهت ... وخبَّر القوم عنها أسوأ الخبر
فقد تولت رجال أمرها وسعت ... فيها فلم تبق من شيء ولم تذر

يريد أن الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد قد غير وجه التاريخ في البحرين، وكان نقطة تحول لمصلحة شعبه ووطنه.

وقبل أن نمضي في مدحه للأمير محمد نقف عند الصور الخيالية في الأبيات السابقة وهي حافلة بالعديد منها.

من ذلك صورة الغشوم المشتمل بالكبر، فالاشتمال لا يكون بالكبربل بالثوب، جاء في أساس البلاغة مادة (شمل) : « اشتمل بثوبه، وهو أن يدير الثوب على جسده كله، والرحم مشتملة على الولد، ومن المجاز : اشتمل عليه : وقاه بنفسه، قال عبد الله ابن زياد للمنذر بن الزبير : إن شئت اشتملت عليك ثم كانت نفسي دون نفسك ».

ونتقمص شخصية الزمخشري لنقول معه أو بعده : ومن المجاز أيضاً اشتمل بالكبر، وهي صورة بيانية من قبيل الاستعارة المكنية : شبهنا الكبر بالثوب ثم حذفنا المشبه به وهو الثوب ورمزنا إليه بشيء من

لوازمه وهو الاشتمال الذي نسبناه إلى الكبر، بل قصره ابن المقرب على الكبر بتقديم ماحقه التأخير، والصورة مكررة في بقية الشطرة (بالتيه مؤتزر).

وتطالعنا في البيت ٢٩ صورة خيالية مكررة أيضاً، وهي هذه المرة كنابة عن الشدة التي لا يذكر الغشوم الله إلا عندها، وقد مثل لها ابن المقرب بعندين هما (عند رابية يرقى) و(عند ارتجاس الرعد والمطر)، والعندان متطابقان، فأحدهما أرضي، والآخر سماوي، وقد تعاون العندان على خلق قشرة دينية للرجل الغشوم وهبوب الرياح بساحته في البيت ٣٠ هو أيضاً كناية عن الشدة ولقاؤه الرياح الهابة مجرَّدَ السيف كناية عن الغفلة أو عن الغرور بحسب الأحوال.

ومع أن (أجرى من السيل وأسرى من النعر) من باب أفعل التفصيل وهو يدل على اشتراك شيئين في صفة وزيادة أحدهما على الآخر في تلك الصفة، فإنه متحمل كذلك لتشبيه ضمني، وهذا التشبيه يتبلور ويظهر أكثر إذا انتمى أحد الشيئين إلى جنس أو نوع مختلف عن الجنس أو النوع الذي انتمى إليه الشيء الآخر كما هنا.

فالغوى يندبه صاحبه فيسرع إليه إسراع السيل بل أكثر، ويصل إليه في خفاء الريح التي تأخذ في الأنف فتهزه بل أخفى. وفي البيت ٣٢ كنايتان ذهبت كل شطرة بكناية، فالشطرة الأولى (لا يعرف المنع في شيء يحاوله) كناية عن قوة الشخصية وصلابة التصميم، والشطرة الثانية (ولا يراجع في عرف ولا نكر) كناية عن نفوذ الكلمة وعلو الجاه وأنه فوق النظم والأعراف والقوانين.

والطباق الموجود بين (عرف) و(نكر) يدخل فيما يسمى بالإرصاد والعرف والنكر معا كناية عن الشمول والعموم أي لا يُراجع في شيء مطلقاً، وماقلناه في (أجرى من السيل . . . .) نقوله في (أقضى وأمضى

من الصمصامة الذكر).

والشطر الأول من البيت ٣٦ مشتمل على استعارتين : الأولى في (فعاف) وهي تمثيلية، والثانية في (منّتْهُ مطامعه) وهي مكنية، والاستعارتان ـ التمثيلية والمكنية ـ تضربان بقدم راسخة في الفنية، الأولى لكثافة الخيال فيها والثانية لتشعبه وعمقه.

ويفخم ابن المقرب ممدوحه تفخيماً مطلقاً وهو يمجد سياسته لرعيته، ويذكر أن حنكته السياسية قد ورثه إياها الحكام العظام من آل بيته وهم : أبو سنان محمد بن الفضل بن عبد الله بن على والفضل بن عبد الله بن على وعبد الله بن على، وفي تكرار (أي) مضافة مرة إلى (سائس) أي (مدبر) ومرة إلى (عدة) وهى (سلاح التدبير) جمع لطرفي التفخيم والتعظيم وهما العقل والقوة في شخص الأمير محمد، ولا عجب، فهو من خيار بنى شيبان بن ذهل بن ثعلبة، ويصل الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد بشيبان عدد من الفتيان الشجعان، منهم مصاد بن يزيد الشيباني، وشبيب أخوه وذو الجدين بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني وهانىء بن مسعود الشيباني . . . . وابن المقرب هنا يؤصل ممدوحه ويمجده بأنه واحد من هؤلاء الفتية.

ومحمد بن أبي الحسين أحمد رجل سمح كريم ينقص من قدره في نظر نفسه وفور ما له دون عرضه، ويرى أن هذا هو ديدن الكرام ولو لم يكن لبنى شيبان إلا أبوه لكفاها فخرا، و(أبوه) هذا مقصود به أحد أجداده الثلاثة : الأدنى أبو سنان محمد، والأوسط : الفضل، والأعلى عبد الله، فكل واحد من هؤلاء أب للممدوح، أب وإن علا كما يقول الفقهاء، أما أبوه المباشر وهو أبو الحسين أحمد فلم يحكم، وحظه من فخر بني شيبان به ـ لهذا ـ يأتي تالياً لحظ الثلاثة الذين ذكرناهم، وعلى

كل فقد استقطب الممدوح ـ وقد لقبه الشاعر بصفى الدين ـ مجد أبيه وأجداده فهم أحياء في شخصه، والشطرة :

(ولم يمت من صفى الدين وارثه) تعني مانعنيه نحن بقولنا في تأصيل مجد من نخاطبه (ما مات من أنجبك)، أما الشطرة الثانية (إن الغصون لقد تنمى على الشجر) فقد أتت على حد الإطناب المفيد، لأنها تذييل جار مجرى المثل، ولجريانها مجرى المثل فهى متحملة لاستعارة تمثيلية.

وقوله : جود الأكارم إخبار وجودهما . . . شي تــراه

هو هو قول المتنبى في هجاء الإخشيديين :

جود الرجال من الأيدي وجودهم . . . من اللسان

وإذا كان المتنبى قد ختم بيته بالدعاء على مهجويه بقوله (فلا كانوا ولا الجود) فإن ابن المقرب قد ختم بيته بتذييل جار مجرى المثل (وليس الخبر كالخبر) وهو حزمة ضوء تنير أكثر من موقف وتقطع الشك باليقين المستمد من التجربة العملية.

***

وفي التفات من الغائب إلى المخاطب وهو التفات يدل على قوة استحضار الشاعر لممدوحه وشدة التصاقه به يتوجه إليه بالخطاب داعياً على معارضيه بأن يكونوا فداءه، وقد وزع بيته على الأمير وعلى المعارضين فمدح الأمير بأنه صاحب الرفعة والمجد، وهجا المعارضين بأنهم عمى عن المكارم لا يرونها وبناءً عليه لا يزاولونها، وبأنهم لا يفهمون ما يسمعون بل يعيون أي يعجزون عن فهمه، وبأنهم لا يحسنون التعبير عما يفهمون بل يحصرون أي يحبسهم العى عن ذلك، فالحصر العىُّ أيضاً لكنه يغلب على الناحية الأدائية أعياه الأمر : لم يضبطه، وعاياه صاحبه معاياة إذا ألقى عليه كلاماً لا يهتدى لوجهه،

وحصر : حبس، الحصير، المحبس « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » أي محبسا، وأحصر الحاج إذا حبسوا عن المضى « فإن أحصرتم »، ولا تتقدم الحياة بهؤلاء المعارضين لعجزهم، دليل ذلك أنهم إذا ألم بهم خطب لم يهبوا لدفعه، بل لم يحركوا ساكناً، وسلبيتهم هذه تذكرك بسلبية النعامة التي يضرب المثل بها في ضعف الحيلة، فالنعامة تشبه الطير وتشبه الإبل فإذا قيل لها : احملى. قالت : كيف أحمل وأنا طائر، وإذا قيل لها : طيرى. قالت : كيف أطير وأن مثل البعير ؟ ! أعذار متعارضة متناقضة لا تقدم ولا تؤخر في قليل أو كثير، والشاعر مع الأمير لقد كشف عن ميوله السياسية بقسمه بالله الذي تعنو الوجوه له على أن الأمير محمداً وحده هو الذي يمكن للعلياء أن تلجأ إليه وأن تستعصم به.

ويمضي في مخاطبة الأمير قائلاً : وفي اجتماع لمحبيك ومؤيديك استقر رأيهم على التوجه إليك لتهنئتك بعيد الأضحى المبارك، فقد وافى، والتقصير في حقك بترك تهنئتك به من أعظم الكبائر، هذا كان رأيهم، وقد خالفتهم، إذ كيف نهنيك بعيد أنت معناه ومضمونه، إنه لولاك لم يحل في سمع ولا بصر، وإذا كانت التهنئة لازمة فلتكن للعيد بك وليست لك بالعيد، وهي مبالغة ثقيلة نقبلها لموقعها من القصيدة فهي تأتي خاتمة لها، ولم يبق إلا الدعاء له بأن يبقى ظلا ظليلاً على شعبه، وبأن يظل المؤيد بإقبال الدنيا عليه وظفره بها إلى يوم القيامة الذي كنى عنه بالقران بين الشمس والقمر أي بطلوعهما وإضاءة الكون بهما في وقت واحد.

وسر الدعاء له بأن تعمر الدنيا به أنه زهرتها مثلما كان في البيت الأسبق بهجة العيد، والمبالغة هنا أمثل وأفضل من سابقتها لأنه جعله زهرة الدنيا على إطلاقها، أما هناك فقد جعله يَفْضُل العيد الكبير في معناه وهو مناسبة دينية لا ينبغي لها أن تأتي في فضلها أو تفضيلها تالية

لغيرها.

واستعصام العلياء بالأمير تشخيص وهبة حياة للعلياء وتفخيم وتعظيم للأمير، وحلاوة العيد في السمع والبصر ضرب من تراسل الحواس، فالحلاوة يناسبها الذوق أكثر مما يناسبها السمع والبصر، لكنها تمضي في السمع والبصر حتى تنتشر بهما وعن طريقها في سائر الحواس وفيما وراء الحواس من باطن حافلٍ بأفراح العيد، أما بقاؤه ظلا على الأنام فتشبيه بليغ جاء المشبه به حالاً من ضمير المشبه وهو تاء المخاطب في (بقيت) وهو تشبيه رطب بندى الشاعرية في البيئة البدوية واقعاً أو تراثاً، ومن هذا القبيل جملة (أنت زهرتها) في الشطر الأول من البيت الأخير، أما (حتى يقارن بين الشمس والقمر) فكناية عن يوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الشمس والقمر كما يجمع بين الآباء والأبناء منذ آدم وحواء.

***

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الموســـــيقى

هذه القصيدة من بحر البسيط، وفيما أجاب به الخليـل الأخفش لما سأله عن أسباب تسميات البحور بأسمائها التي أطلقهـا عليها أنـه سمى البسيط بهذا الاسم لأنه انبسط عن مـدى الطويـل، وجاء وسـطه فعلن وآخره فعلن[1].

أما الزجاج فقد علل ذلك بقوله «سمى هذا البحر بسيطاً لانبسـاط الأسباب في أوائل أجزائه السباعية»، وقـد وضح الـدكتور السنجـرجي كلام الزجاج بأن من تفعيلات هذا البحـر تفعيلات عـلى سبعة أحـرف (مستفعلن) وقد بدأت هـذه التفعيلة بسببين خفيفـين، فلما كانت هـذه الأسباب الخفيفة موجودة ومنبسطة في أوائل هـذه التفعيلات سمى هـذا البحر بالبسيط[2].

ويستعمل هذا البحر تاماً، وتفاعليه حينئذ هي:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ويستعمل مجزوءاً فتحذف التفعيلة الرابعة من كل شطر من شطريه وتصير التفعيلة الثالثة في الشطر الأول عروضاً، كما تصير التفعيلة الثالثة في الشطر الثاني ضربا، وقصيدتنا من تام البسيط هكذا:

---

(١) العمدة جـ١ ص١٣٦.

(٢) المدخل في علم العروض ص٧٥.

أتعبتسمْ / عيبطو / للومفق / تصرى
مستفعلن / فاعلن / مستفعلن / فعلن
ماذا أهم / مكمن / نوميومن / سهرى
مستفعلن / فعلن / مستفعلن / فعلن

وبحر البسيط هو ثاني بحر بعد الطويل أكثر ابن المقرب من النظم فيه، وقد رأينا أن ما جاء منه في شعره تبلغ نسبته ٢١,٦٢٪ والبحران الطويل والبسيط يأتيان في مقدمة البحور التي كانت لها الغلبة على الشعر العربي إلى مطلع عصر النهضة لتلاؤمها تلاؤما عفويا مع موضوعاتها من جهة، ولإرضائها أذواق الناس في البيئات العربية من جهة.

ولأن القصيدة رائية فإن ما قلناه في سابقتها ينطبق عليها ومن موسيقاها الداخلية الواضحة التصريع في مطلعها، والترصيع في البيت السابع، ثم ما في القصيدة كلها من المحسنات البديعية وما أكثرها.

أما الموسيقى الداخلية الخفية، فنحن نحسها فيها بدرجات متفاوتة لكنها في جملتها متوسطة، ونعجز عن تعليل هذا الإحساس ـ وهو صادق ـ لأن متعلقه إنما هو الموسيقى الداخلية الخفية، وقد سبق القول بأنها من الأمور التي تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة.

تعقيب

رأينا أن كل قصيدة من القصائد الثلاث السابقة تكوِّن تجربة شعرية ناجحة، وإذا كانت المقومات الأساسية للتجربة الشعرية قد شاركت في تكوينها وتشكيلها وتلوينها، فإن هذه المشاركة قد تمت بنسب مختلفة ومتفاوتة، وهذا طبيعي، فمرة يبرز عنصر العاطفة، ومرة يبرز

عنصر الخيال، ومرة تسود الفكرة، أجل. فلم يكن ابن المقرب يمتاح الفراغ وهو ينظم شعره، بل كان يستمد واقعه الخاص به ومجتمعه المعايش له، ودولته المنفعل بها إلى أقصى المدى، وقد أسلم انفعاله إلى خياله فجسمه وأخرجه في صور فنية غاية في الشاعرية.

ومع أنه شاعر ذاتي بل مغرق في الذاتية فقد التزم القضايا الكبرى لقومه وهي قضايا إيجابية وعادلة، ونجح في إقناعنا بها وتحميسنا لها كلها، وهذا يعنى أن عواطفه أو انفعالاته الشعرية لم تكن مبعثرة أو مرسلة دون خطة تحكمها ودون منهج يضبطها ويرتب نتائجها على مقدماتها ولو كان الأمر غير ذلك لخلا شعره من مضامينه المحسوسة أو المفهومة ولجاء ثرثرة فارغة.

بقيت الموسيقى وهي متحققة بداهة في الموسيقى الخارجية موسيقى الوزن والقافية، وفي الموسيقى الداخلية الواضحة، أما الموسيقى الداخلية الخفية فهذه متروكة لنا نحسها ونستبطنها وهي متفاوتة عنده تفاوتاً واضحاً وبها تفضل قصيدة من شعره قصيدة أخرى، ومقطوعة في القصيدة مقطوعات غيرها قبلها أو بعدها.

وعلى الجملة فالتجارب الشعرية لعلي بن المقرب تجارب حية، وهي تتردد بين أن تكون ذاتية وموضوعية لكن بلا حدود صارمة، فكثير من شعره الذاتي موضوعي بمعنى أن ذاته هي موضوعه الشعري، وكثير من شعره الموضوعي ذاتي من حيث أنه جزء من كل هو أمته ودولته ووطنه، وقد خاض بحور الشعر المختلفة بلا فارق واضح بين ما هو خاص به، وما هو خاص بقومه، ولا نستغرب ذلك من شاعر يمزج بين (الأنا) و(النحن) في شعره.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصـــل الثالـــث

مضمـون تجربتـه الشعريـة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مضمـون تجربتـه الشعريـة

مضمون التجربة الشعرية هو محتواها فكـراً كان أو عـاطفة، وهـذا المحتوى ـ في الغالب ـ لا يكون شيئاً واحـداً بل أشيـاء عدة، وقـد أدانا اجتهـادنا إلى تسميتهـا خواطـر الشاعـر (انظر في الفصـل الثـاني تحليـل القصيدة الأولى)، وإذا كانت هذه الخواطر تتوزع في التجربة الشعـورية على بؤرة الشعور وعلى هامشه، فإنها في التجربة الشعرية تتوزع على مـا يمكن أن نسميه بالخـاطر الأصـلي وبالخـواطر الفـرعية، ونتجـوز فنعنون القصيدة بخاطرها الأصلي ونسميه غرض القصيدة وموضوعها، وتتبادل الخواطر الأصلية المواقف مع الخواطر الفرعية في القصائد المختلفة، فبينا نجد الغزل خاطراً فـرعياً في قصيـدة، إذا به الخـاطر الأصـلي في قصيدة أخـرى، وبينا نجـد الشكوى أو العتـاب أو الوصف خـاطـراً أصليـاً في تجربة شعرية، إذا بنا نجده خاطراً فرعياً في تجـربة شعـرية غـير الأولى، وهكذا.

على أن ثمة أغراضاً أو خواطر أصلية لا تصلح أن تكون أغراضاً أو خواطر فرعية في أية تجربة شعرية كالمدح والهجاء والرثاء، فـأي من هذه الثـلاثة لا يـأتي تبعاً غـالباً، ويمكن أن نـطلق على كـل منها لـذلك اسم (الغرض العمدة)، وأما الأغراض من فخر وحماسة وحكمة، ومـا سبق التمثيل به من غزل ووصف وعتاب وشكوى، فهذه أغراض أو خواطـر متحركة، يصلح الواحد منها لأن يكون خاطراً أصليا يحتل بؤرة الشعور من الشاعر، ويكـون واسطة العقـد في القصيدة، كـما يصلح لأن يكون خاطراً فرعياً يعيش عـلى هامش الشعـور في التجربـة الشعوريـة، وعلى حدود التجربة الشعرية مطلعاً أو مقطعاً.

وما ذكرناه ليس استقصاء ولا استقراءً، ولأنه ليس استقصاءً ولا استقراءً، فإن ما رتبناه عليه لا يطرد حتما، إنما هي ملاحظات جزئية وأحكام تقريبية، وإذا كان العلم لم يقل الكلمة النهائية في أية قضية علمية، فأولى أن تتطامن الفنون، وأن يتواضع أربابها فيما يقولون عنها، ولن يمنعنا ذلك من أن نعتمد الخاطر الأصلي غرضاً رئيساً للتجربة الشعرية وموضوعا عاماً لها، ومن أن نصنف القصائد تبعاً لذلك فنقول:

قصيدة المدح أي وإن لم تخلص القصيدة للمدح.
قصيدة الهجاء أي وإن لم تخلص القصيدة للهجاء.
قصيدة الفخر والحماسة والشكوى، أي وإن لم تخلص القصيدة لهذه الأغراض مجتمعة.

على ضوء ما تقدم وصدوراً عنه نشرع في الفصل الثالث من هذه الدراسة وهو مضمون التجربة الشعرية عند ابن المقرب، ولأن المضمون جنس تندرج تحته أنواع كثيرة من المضامين المختلفة، فقد كنا بين أن نوردها مرتبة على حسب الكم، وأن نوردها مرتبة على حسب الكيف، ثم آثرنا الأول، لاتفاق كل الناس عليه، وتسليمهم به، أما الثاني ففيه أخذ ورد، وقبول ورفض، ما يراه بعضهم أفضل، قد يراه غيرهم مفضولا وبالعكس.

ومع التسليم بأن الكثرة من الغرض لا تستلزم جودة القول فيه فإنها تدل دلالة مفهومة على أن الشاعر يرتاح إليه ويجد نفسه معه ومن هنا كان لنا أن ننتظر مواكبة الجودة للكثرة وسنرى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصيـــدة المـــدح(*)

استأثر المدح بنصف شعر ابن المقرب تقريبا، والممدوحون به إما في وطنه وإما خارجه، ولما كنا قد ألممنا بمدحه وبممدوحيه خارج وطنه في الفصل الأول، فإننا سنقتصر هنا على مدحه داخل وطنه.

(١) وأول مانجده من ذلك قصيدته رقم ٤ ص ٢٦.

قدم لها جامع ديوانه بقوله « وقال في غرض له يمدح فيها الأمير محمد بن ماجد بن علي بن عبدالله بن علي، وقد ملك الأحساء من البحرين يستعطفه سنة ٦٠٥ هـ » وهي القصيدة التي مطلعها:

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب ... لنسأل ذاك الحى ما صنع السرب

وهو مطلع غزلي كما نرى، وقد استمر في غزله إلى البيت ١٨، وبعده فخر بربيعة بعامة وبآل إبراهيم منها بخاصة، يمضى فيه إلى البيت ٤٠ ثم ينتقل من الفخر بهم إلى الفخر بنفسه في البيت ٤١ وما بعده، إذ يقول:

أولئك قومي حين أدعى وأسرتى ... وينجبنى منهم شمارخة غلب
وما أنا فيهم بالمهين وإننى ... إذا عُدَّ فضل فيهم الرجل الضرب
لى البيت فيهم والسماحة والحجا ... وذو الصبر حين البأس والمقول الذرب

(*) أوردت المدح تحت عنوان (قصيدة المدح) لأنبه على أنها غير متمحضة للمدح، وقد اقتضانى ذلك توزيع أبياتها على غرضها الأصلى وهو المدح، وعلى الأغراض الفرعية التي جاءت قبله أو معه أو بعده أو كل ذلك في (قصيدة المدح).

ثم يحكى قصة اغترابه في رحلة سابقة إلى العراق، ولايصل إلى ممدوحه إلا في البيت ٥٢ فيمدحه به وبما بعده إلى البيت ٦٦، ومن مدحه له قوله:

همام علت هماته فكأنما ... يحاول أمراً دونه السبعة الشهب
علا كل باع باعه وتواضعت ... لعزته وانقادت العجم والعرب
سليل علاً من دوحة طاب فرعها ... وطالت ذري أغصانها وزكي الترب
هو البدر لكن ليس يستر نوره ... حجاب ونور البدر يستره الحجب
هو الليث لكن غابه البيض والقنا ... هوالمتن لكن كل متن له قرب
هو الموت لكن ليس يقتل غيلةً ... هو البحر إلا أن مورده عذب

وابتداءً من البيت ٦٧ يدخل في الاستعطاف بقوله:

أبا ماجد انظر إلى ذي قرابة ... بعين رضا يغضى لها الخائن الخب

وفي البيت ٧٧ يعاتبه بقوله:

فإن امتداحى غيركم كهجائكم ... وذلك منى إن تحريته عتب

ويقرظ شعره في البيتين ٧٨، ٧٩، أما الأبيات من ٨٠ إلى ٨٢ فمسألة صريحة ومطالبة سافرة برد بعض أمواله المصادرة إليه:

فصن حروجهى عن سؤال فإنه ... علىَّ ولو عاش ابن زائدة صعب
وردَّ يسيراً من كثير تقت به ... فراخاً قد استولى على ربعها الجدب
فبحرك للوراد ذو متغمط ... وربعك للوفاد ذو سعة رحب[1]

هذه أولى قصائد مدحه لقومه، عدد أبياتها ٨٢ وقد بدأ مدحها بالبيت ٥٢ وانتهى بالبيت ٦٦ أي أن عدد أبيات المدح فيها ١٥ بيتا بنسبة ١٨٪ إلى بقية الخواطر الفرعية، إنه يلف ويدور حول المدح،

---

(١) متغطمط: مضطرب عظيم الأمواج كثير الماء.

ولايقتحمه من أول الأمر، أو يطول نفسه فيه بعد أن بدأه، يقول صاحب مقدمة الديوان: « فلما أنشده القصيدة وعده وعداً جميلاً وكان له على قضاء حاجته كفيلا، واستنجزه للوعد السابق، وما لفظ به لسانه الناطق، بالقصيدة الكافية التي أولها:

أمن دمنة بين اللوي فالدكادك

وهاتان القصيدتان يذكر فيهما القرابة ويستعطفه بما يلين قلبه من الملق والخلابة، ولاحظى منه بغير الوعد، ثم طال عليه المطل والكد وقوى عزيمة الأمير في المنع والحرمان من يلوذ به من الخواص والأخدان . . . . . ثم عاد إلى الأحساء وترك مراجعة الأمير الأجل محمد بن ماجد في أمر منا شدته في أمرما[٢].

والكافية سبعون بيتاً المدح فيها ٢٤ بنسبة ٣٤٪ من بقية الأغراض الفرعية[٣].

(٢) القصيدة رقم ٧ ص ٤٧

وهي في مدح أميره الأثير لديه محمد بن أبي الحسين أحمد، مطلعها حماسي هو:

منال العلا بالمرهفات القواضب وسمر العوالي والعتاق الشوازب

أما مدحها فيبدأ بالبيت الخامس ويستمر إلى آخر القصيدة الذي جاء دعاءً للمدوح هكذا:

فلا عدمت يوماً ربيعة مثله لتشييد عز أو لبذل مواهب
ولا برحت أيامه في سعادة ولا زال محروس الحمى والجوانب

---

(٢) مقدمة الديوان ص ٨ ـ ٩.
(٣) هي القصيدة ٤٧ ص ٣٠٥.

فجملة المدح والدعاء ثلاثة وأربعون بيتاً من سبعة وأربعين هي كل أبيات القصيدة.

(٣) القصيدة رقم ٨ ص ٥٢.

في مدح الأمير أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي، مطلعها إلى نهاية البيت الثلاثين منها فخر بنفسه وحسبه ونسبه هكذا:

أتدري الليالي أيَّ خصم تشاغبه ... وأي همام بالرزايا تواثبه

ويصل إلى ممدوحه وإلى غرضه من مدحه له في البيت الواحد والثلاثين وما بعده.

ففي عقر دارى من ملوك بنى أبي ... همام إلى الخيرات تجرى مآربه
إذا لم أنط مستعصما برجائه ... رجائى وتروى ترب أرضى سحائبه
فأي مليك أرتضى وتؤمه ... ركابي وأمشي نحوه وأخاطبه
سل الخيل عنه والمنايا كأنما ... يناهبها أرواحها وتناهبه

ويستمر في مدحه له إلى أن يختم القصيدة بالبيت ٥٧ هكذا:

ومن تلكم آباؤه وجدوده ... فمن ذا يسامي فخره أو يقاربه

فعدد أبيات المدح في القصيدة كلها سبعة وعشرون بيتاً.

٤ - **القصيدة رقم ١١ ص٧٤** في مدح الأمير أبي شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين أحمد، ونرى ابن المقرب في مطلعها متشبثاً بالعلياء قالياً في سبيلها وطنه وقومه هكذا:

بيني فما أنت من جدى ولا لعبي ... مالي بشيء سوى العلياء من أرب
لا تكثرى من مقالات تزيد ضنى ... ما الخط أمي ولا وادى الحساء أبى
في كل أرض إذا يممتها وطن ... ما بين حرٍّ وبين الدار من نسب

أما المدح فيها فيبدأ بالبيت الثلاثين منها، ويظل مدحاً خالصاً إلى البيت الواحد والستين كقوله:

مقدم كاسمه في كل مكرمة ... فإن نبابك دهر فادعه يجب
وأين مثل أبي شكر إذا استعرت ... نار الوغى واتقى المسلوب بالسلب
مردى حروب ترى تحت العجاج له ... في الخيل وقعا كوقع النار في الحطب

ثم يأتي المدح متلفعا بالنصح ابتداءً من البيت الثاني والستين على الوجه الآتي:

يا ابن الملوك الأولى شادوا ممالكهم ... بسلة البيض والخطية السلب
نماك من آل إبراهيم كل فتى ... مهذب طاهر الأخلاق منتخب
لم يبق إلاك فاذكر ما يقال غداً ... وإن هممت بضعف العزم فانتسب
لا تركنن إلى من لاوفاء له ... الذئب من طبعه إن يقتدر يثب
ولا تكن لذوى الألباب محتقرا ... ذوا للب يكسر فرع النبع بالغرب
وغر على الملك من لعب الرجال به ... فالملك ليس بثبات على اللعب

وينتقل من نصحه لممدوحه إلى تقريظ شعره بالبيتين ٧٥، ٦٧ ويختم القصيدة بالبيت ٧٧ وهو دعاء للممدوح على ما جرت به عادته في مدحه.

٥ ـ **القصيدة ١٢ ص٨٤** في مدح الأمير أبي منصور على بن محمد بن علي بن عبدالله بن علي. مطلعها غزلي يتغزل الشاعر فيه ببعيدة وقريبة، يتغزل بالبعيدة أولاً قائلاً:

صدت فجذت حبل وصلك زينب ... تيها وأعجبها الشباب المعجب
ولطالما فعلت تطيل مرورها ... وتجيء عمداً كي تراك وتذهب

ويتغزل بالقريبة ثانياً قائلاً:

وكريمة الطرفين ذروة وائل ... آباؤها وجدودها إذ تنسب

ويخلص من هذه وتلك إلى وصف الصحراء التي أقحمها ناقته وفرسه وهما مع سيفه وقلبه كل أصحابه في الحياة، ولا يبدأ المدح إلا فى

البيت الواحد والعشرين قائلاً:

انـزل عـلى الملك الـذي بـفـنـائـه تُـلقى الـرحـال ويـسـتريـح المتعب
انـزل عـلى البحـر الخضم فـما بـقى مـلك سـواه بـه تُـنـاخ الأركـب

وهـو مدح متكلف ثقيـل الظل، ربمـا لأنه مـدح لعيـوني من البيت الثاني بيت أبي المنصور علي بن عبدالله، يقـول صاحب مقـدمة الـديوان وهو يترجم لابن المقرب «فبعد مضيـه (إلى العراق) نهض الأمـير الأجل علي بن ماجد بن محمد بن علي بن عبدالله، وعـاد من العراق فـامتدحـه بقصيدة أولها.

صـدت فجـذت حبـل وصلك زينب

ولم يمتدحه رغبة في رفده ولا طمعا في إعادة أملاكه وردها عليه بـل قصد إفحام ألسنـة الحساد لئـلا يقولـوا: لم يمتدحـك كما امتـدح الإخوة والأنداد، ولم يرضك بشعر، ولا أهلك لنفع وضر»[٤].

وعـلى كـل فهـو يمضى في مـدحـه لممـدوحـه إلى البيت الـواحـد والخمسين، وابتداءً من البيت الثاني والخمسين إلى نهاية القصيدة بالبيت ٦٧ ينصح ممدوحه ويتعتبه بل يتهدده بالرحيل عن البحرين ثم يعـود إلى نصحه خاتماً بالدعاء له هكذا:

واقبـل نصيحـة مـاجـد بـاعـدتـه عنكم لضعف الـرأي وهـو الأقـرب
أبـقـى لـكـم في كـل دار حـلهـا شرفـا يشرق ذكـره ويـغـرب
يشرى عـدوكـم المـداجـى بـعـده عـنكم بـأنفس مـا يبـاع ويـطلب
تـرد الكـلاب الـواسعيـة حـوضكم وأذاد عـنـه كـما يـذاد الأجـرب
وتجـلنى أسـد الشرى في أرضـهـا وبـأرضكـم يسـطو عـلىَّ الـثـعلب
لي في بـلاد الله عـمـن لا يـرى حـقي مـراح كـيف شئت ومـذهـب

---

(٤) المقدمة ص٩.

فـاحـفظ وصـاتـي يـا عـليُّ ولا تشـع ... مـا قـد وليت فحـول شـاتـك أذؤب
وعـليـك بـالعـدل الـذي أحـييتـه ... فـدعـاء بـاك في الـدجى لا يحجب
وبـقـيـت مـعـمـور الجنـاب مـؤيـداً ... مـا قـام داع بـالـصـلاة يـثـوب

٦ ـ القصيـدة رقم ١٤ ص١٠٠ في مـدح الأمـير حسن بن مسعـود ومطلعها غزلي هو:

أراه الهـوى مـا لم يكـن في حسـابـه ... فـأقـلقـه عـن صـبره واحـتسـابـه

ونـلاحظ أن ابن المقرب حـين يجرد من نفسـه شخصاً أو شخصـين، يعنف عليه أو عليهما، رأيناه يعنف على الشخص الذي جرده من نفسه في القصيدة الثالثـة من قصائـد الفصل الثاني، وهو في القصيدة التي معنـا يعنف على الشخصـين اللذين جردهمـا بقولـه لهما:

أعـيـذ كـما مـن وجـده وغـرامـه ... ولـوعـاتـه يـوم الـنـوى واكتئـابـه
فـهـل لكـما أن تـذهـبـا لا شفيتـما ... لـشـأنكـما أو تـقصرا عـن عـتـابـه

ويستهل القصيدة رقم ٩٣ ص٦٢٣ بشتمهما قال:

عـلام وفـيـم ظـلما تـلحـيـانى ... ذرانى لا أبـا لـكـما ذرانى

وهو يبرر ذلك بانقلاب أصحابـه عليه وسـوء سلوكهم معه، واقـرأ هذين البيتين له:

يـا صـاحـبـيَّ ولا أرى لي صـاحـبـا ... إلا إذا أوقـدت نـارا أخمـدا
قـد كـنتـما عـونى وقـد أصبـحتـما ... عـونـا عـليَّ فـما عـدا ممـا بـدا[٥]

---

(٥) الـديوان ص١٦٨ ومن أخبـار عليٍّ رضي الله عنـه أنه قـال لطلحـة يـوم الجمـل: عـرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق فما عدا مما بدا؟
وذلك أنه كان بايعه بالمدينة وجاء يقاتله بالبصرة. أي ما الذي صرفك ومنعك وحملك على التخلف بعد ما ظهر منك من التقـدم في الطاعـة والمتابعـة، وقيل معنـاه: ما بـدا لك مني فصرفك عني. =

ويصل إلى ممدوحه في البيت الرابع عشر، وقد وصل إليه بلطف وحسن تخلص، إذ أتى بتشبيه مقلوب طلباً للمبالغة في وصف جود ابن مسعود قال:

رعى الله أيام الشباب فإنها ... هي العمر يا طول الأسى باستلابه
وجاد ديار الحى من أيمن الحسا ... مُرِبٌّ يوارى الهضب دانى ربابه
كجود ابن مسعود الفتى الواهب اللها ... ومخجل منهل الحيا في انسكابه
همام من الوسمى أغزر ديمةً ... إذا لج في تهتانه وانسكابه[٦]

ويمضي فيمدحه بالشجاعة والبلاغة والبصيرة النافذة، وينص في البيتين ٣٧، ٣٨ على أنه يمدحه للمدح لا للعطاء قال:

نظمت له مدحى وما جئت طالبا ... نداه ولا مستمطراً من سحابه
ولكن هزتني لذاك ارتياحة ... وعجت لمحمود الثنا مستطابه

ويتصور من يسأله عن سبب زهده في عطاء ممدوحه فيجيب:

لأن عبابى دفقة من عبابه ... وهضبة عزى تلعة من هضابه
وآباؤه الغر الكرام أبوتى ... وآساد غابى من رآبيل غابه

ويختم مدحته بالأبيات من ٤٦ إلى ٤٨ وهي دعاء لممدوحه قال:

فلا زالت الأعداء قتلى سيوفه ... وأقلامه في أرضها وحرابه
وعز به الدين الحنيف وحللت ... محارم دار الشرك حمرقبا به
ولا برحت عين الإله تحوطه ... وتحفظه في مكثه وذهابه

= = وقيل: معنى ما عدا مما بدا. أي ما عداك عما كان بدا لنا من نصرك، أي ما شغلك؟ وانظر اللسان ١٥/٤٢ والديوان ص١٦٨ هامش رقم ١٤.

(٦) الرباب: السحاب الأبيض واحدته ربابة، واللها: المقدار الكثير من العطاء، والوسمى: أول مطر الربيع، والديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق، والتهتان: نحو من الديمة.

(٧) القصيـدة ١٥ ص ١٠٥ .

في مدح الفضل بن محمد ومطلعها حماسي تقريعي قال :

سـقـهـا ولـو ذهـب السرى بسراتها ... كـم ذا تـرد الـنفس عـن عـزمـاتهـا
سفهـا لـرأيـك إن سررت بـروضـة ... لمـزنـم الـعـدان غض نـبـاتهـا
أعـربـت حـين دعـوت إلا أنـه ... لايـبلغ الأمـوات صـوت دعـاتهـا(٧)

ويشرع في تمجيد نفسه بتعداد أياديه على قومه، ثم يدير حـواراً بينه وبـين صديق لـه لامه لأنـه مبتئس لقومـه ومشغول بهم عن نفسـه وهم الـذين آذوه وسلبوه مـاخولـه الله من نعمه، وقـد انتهى الحوار بـالقـرار الذي اتخذه ابن المقرب .

فـلأرحـلن عـنهـا رحـيـل مـفـارق ... ولأزجـرنَّ الـنفس عـن لـفـتـاتهـا

وهو لايرحل قبل أن يزور قبور العيونيين السابقين .

ولا يفقـد ابن المقرب الأمـل جملة، هاهـو ذا يجعل ذلـك مـدخـلاً مباشراً لمدحه الفضل في الأبيات من ٣٦ إلى ٤٤ .

ورجـاى في فـضـل الـنـدى بـن محمـد ... إدراك مـا في الـنفس مـن حـاجـاتهـا
الـسـابق الـقـوم الـكـرام إلى الـعـلا ... سـبـق المـبرز في مـدى حـلبـاتهـا
والـسـالـب المـلك المـعـظم تـاجـه ... ومـذيـقـه المكـروه مـن كـاسـاتهـا
والـواصـل الـرحـم الـتي أوصى بهـا ... ذو العـرش في الآيـات من سـوراتهـا

وينتقـل من مدحـه للفضل إلى رثـائه لـوالده محمـد بن أبي الحسين أحمـد ابتـداء من البيت الخـامس والأربعـين وانتهـاء بـالبيت السـادس والخمسين، ثم يعود إلى ماكان فيـه من مدح الفضـل من البيت ٥٧ إلى

(٧) العدان: أصله: العتدان فأدغمت التاء في الـدال وهو جمـع العتود، والعتـود: الحولى من أولاد المعز، ومزنم العدان: كرامها يقطع شيء من أذنها ويترك معلقا تمييزًا لها .

٧٤، ومن البيت ٧٥ إلى انتهاء القصيدة بالبيت ٨٧ يعرض شكاته ويبسط قضيته طالبا إنصافه بل قوته، وقد حذره من عاقبة الغبن في البيتين الأخيرين وهما؛

وأقول إن الأسد إن هي أخرجت ... خرجت إلى الأصحار من غاباتها
والغبن يوطي الحرَّ كل عظيمة ... ويفتش الحلماء عن إحناتها

(٨) القصيدة ٢٣ ص ١٦٠.

في مدح الأمير عماد الدين أبي علي محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي ومطلعها غزلي فخرى إلى نهاية البيت الثاني والعشرين، ومن البيت الثالث والعشرين إلى البيت الستين مدح خالص للممدوح ولآل الفضل بن عبدالله بن علي.

ولى الأمير أبو علي ذو العلا ... مولي به أرد الخطوب وأورد
الواهب الأموال تأبى كثرة ... من أن يعد لجينها والعسجد
ينميه عبدالله والفضل ابنه ... وأبو سنان للفخار وأحمد
وأبوه مسعود الطعان وعمه ... ذو البأس والكرم الأعم محمد
بيت الرئاسة في نزاركلها ... آباؤه وملوك من يتمعدد[٨]

وفي الأبيات الخمسة الأخيرة من القصيدة تعريض بنفسه، وتقريظ لشعره.

(٩) القصيدة ٢٤ ص ١٦٧.

وقد مدح بها أبا علي بن عبدالله بن إبراهيم بن غرير بن إبراهيم أبي مروان لمودة بينهما وخلطة ولحمة نسب أجل فهو من عبد قيس مثله بدليل ماجاء في البيت ٥٧ من هذه القصيدة وهو:

---

(٨) تمعدد: تزيا بزى معد.

آباؤه من عبد قيس خيرها حسبا وأكرمها وأوسعها ندي

وهذه القصيدة ليست خالصة للمدح فقد استهلها بمجموعة كبيرة من الحكم الصائبة، ثم شكا وهجا ونصح.

ومن الشقاء إقامتي في بلدة لله جد عدوها ما أسعدا
ما بين قوم لايصان لجارهم عرض ولايرجى لغيهم هدى
سوداء مومسة أجل لديهم من عالم حبر وأدني مقعدا
وبمصلح لابل بألفي مصلح لايعد لون خبيث أصل مفسدا
لو قيل كن هودًا لأشرف رتبة منهم ودونك درهما لتهودا

ولا يأتى المدح إلا في البيت الثالث والأربعين، ويستمر إلى البيت الثاني والستين وهو مدح تشيع فيه المبالغة المفرطة إلى حد كبير قال:

ذاك الذي لم تعل راية سؤدد منذ احتبى إلا وبل بها يدا
ذاك الذي أحيا البلاد وقبله كانت ومن فيها رماداً أرمدا

ومن البيت الثالث والستين إلى البيت ٧٧ وهو آخر القصيدة يعود مرة ثانية إلى النصح وإلى الهجاء الجماعي ويرتضى ممدوحه أباً روحيا له ويعطيه ولاءه ابناً بل خادماً يود لو يستطيع فداءه.

فلقد رضيتك والداً وأخاً وعما وابن عم ما حييت وسيدا
واستصفني ولداً كذلك خادماً لو يستطيع فداك من صرف الردى

والبيتان ٧٤، ٧٧ تقريظ لشعره، أما البيتان ٧٥، ٧٦ فدعاء لممدوحه ولولده.

(١٠) القصيدة ٢٩ ص ١٩٨.

وهي في مدح علي بن ماجد بن محمد بن علي بن عبدالله أمير الأحساء، عدد أبياتها واحد وسبعون، ومطلعها حماسي فخرى قال:

ذريني فضربا بالمهندة البتر ولا لوم مثلي يا أميم على وتر

فقد كنت آبي الضيم إذ ليس ناصر ... سوى عزمتي والعيس والمهمه القفر
فكيف أقر اليوم ضيما وناصرى ... عديد الحصى ما بين بصرى إلى مصر
إذا ما دعوت ابني نزار أجابني ... كتائب أنكي في العدى من يد الدهر

ويمضي في الفخر بنفسه وبأجداده إلى البيت ١٨، أما المدح فقد استغرق الأبيات من ١٩ إلى ٥٣، وبعد أن قرظ شعره بالبيتين ٥٤، ٥٥ استرسل فوصف واحدا ممن يترفع بشعره عنهم، ثم عاد إلى الفخر بنفسه وإلى توثيق صلة القرابة التي تربطه بممدوحه، وختم داعيا له بالعيش في حفض وفي دولة مؤيدة بالأمن والنصر، وداعيا على عدوه بأن يعيش خائفاً يروح ويغدو بالمذلة والصُّغْر.

ومن غلوه في مدح ممدوحه قوله:

له هيبة ملء الصدور فلورنا ... إلى الموت مزورا لمات من الذعر
ولو قال للأفلاك في سيرها قفى ... لباتت ركوداً لاتدور ولا تجرى
فتى لو لليث الغاب بأس كبأسه ... لأغناه عن ناب حديد وعن ظفر
ولو أن للعضب اليماني جوهراً ... كعزمته لم ينب عن قلل الصخر

(١١) القصيدة ٣٠ ص ٢٠٧.

في مدح الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد، وهي آخر قصيدة قالها فيه، وذلك حين تحالفت عامر على حربه سنة ٦٠٢ هـ وقد هجم فيها على غرضه بقوله:

رماح الأعادي عن حماك قصار ... وفي حدها عما تروم عثار
وكل امريء ليست له منك ذمة ... يضام على رغم له ويضار
وما عزَّ من أمسى سواك معاذه ... ولو عصمته يعرب ونزار

وقد جمعت القصيدة بين مدح الأمير ونصح المعادين له مع تحذيرهم من مغبة خروجهم عليه وقيامهم ضده:

فخلوا العمي والغيَّ والطيخ واركبوا ... طريقا عليها للرشاد منار
ولا تبعثوه بالنكال عليكم ... فآجال من عادي علاه قصار
فما الرأي إلا أن تذلوا لحكمه ... فليس عليكم في المذلة عار
وتمسوا كما كنتم جميعا رعاءه ... عسى أن تنالوا نصفةً وتجاروا

ويختم قصيدته بالأبيات من ٣٣ إلى ٣٩ وهي آخرها بالدعاء للممدوحه ولأولاده منوها بولائه لهم وبصلة الرحم التي تربطه بهم.

سلام فتي يرضى رضاكم ولا يرى ... سوى مدحكم مذشد عنه إزار
تقربه رحم عطوف إليكم ... وأرحام قوم إذ تعد ظئار[٩]

(١٢) القصيدة ٣٤ ص ٢١٩ في مدح الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد عدد أبياتها واحد وأربعون بيتا، ومطلعها قسم على أن ممدوحه أعلى أهل الأرض همة وأعزهم نافلة وأشرفهم معشراً قال:

قسما بأعراف الجياد الضمر ... وبما أثرن من العجاج الأكدر
وبما حملن إلى الوغى من ماجد ... طلق المحيا من جبين أزهر
وبكل أبيض صارم ومُفاضة ... كالنهر سابغة وعال أسمر
لو قيل من في الأرض أعلى همة ... وأعز نافلة وأشرف معشر[١٠]
ما قيل إلا ذاك فضل في العلا ... حامى حمى الآباء سامى المفخر
الماجد الأحساب والملك الذي ... يغشى الوغى فرداً بوجه مسفر

وإذا كان قد مدحه بحسبه الماجد وبشجاعته التي جعلته يغشى

---

(٩) الطيخ: التكبر والانهماك في الباطل
والظئر: العاطفة على غير ولدها، المرضعة له فلا يكون كعطفها على ولدها صاحب لبنها.
(١٠) يجب نصب (همة) وكذلك (نافلة) و(معشر) لمجيء كل منها تمييزا، والضرورة الشعرية لا تتسع لهذا الخطأ النحوى.

الوغى فرداً بوجه مسفر، فإنه يمضي مزاوجاً في مدحه له بين الكرم والشجاعة وبين الحلم والوفاء قال :

وأحب يوم عنده يوم به ... يعطى الهنيدة للفقير المقتر
لسنانه من كل فارس بهمة ... مابين وجنة خده والمحجر
ولسيفه منه إذا مااستله ... مابين قلة رأسه والأبهر
ماحلم قيس ماوفاء سموءل ... ما جود أوس ماشجاعة جحدر
لو أنهم وزنوا به لم يعدلوا ... من كفه اليسرى بنان الخنصر[11]

أما همته فهو

ذو همة صعدت وأصبح دونها ... زحل وأوج عطارد والمشترى

وأما فتوحاته فإنه

مازال يجتاب البلاد مشمراً ... تشمير لاوان ولا متحير
حتى ظننا أنه في عزمه ... يسعى ليخرج عن مدى الاسكندر

ولا عجب بعد ذلك إذا

رضى الخليفة هديه واختاره ... وحباه بالحظ الجزيل الأوفر

---

(١١) الهنيدة : اسم للمائة من الإبل فما فوقها، والبهمة : الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه، والأبهر : وريد العنق، وعن أعلام البيت الرابع : فقيس هو قيس بن عاصم المنقرى، سبق التعريف به في الفصل الثاني، والسمو أل هو السمو أل بن عادياء من شعراء الجاهلية وحكمائها، وقد شهر بوفائه في قصة له مع الشاعر امرىء القيس، وأوس هو أوس بن حارثة بن لأم الطائى من أجواد العرب وساداتهم في الجاهلية، وجحدر هو جحدر بن ضبيعة البكرى الوائلى، قتل في حرب تغلب يوم تحلاق اللمم، وسر التسمية بهذا الاسم أن بكرا حلقوا فيه رءوسهم ليعرف بعضهم بعضاً إلا جحدر بن ضبيعة فقد قال لهم : أنا قصير فلا تشينوني وأنا أشترى منكم لمتى بأول فارس يطلع عليكم فطلع ابن عناق فشد عليه وقتله، وكان يرتجز في ذلك اليوم بقوله :

ردوا علىَّ الخيل إن ألمت ... إن لم أقاتلهم فجزوا لمتى

وقضى إليه أن حكمك نافذ ماض بأكناف العراق وتستر

لكن العجب أن ابن المقرب قد ختم مدحته بما يفيد أن ممدوحه قد خلف كسرى وقيصر جميعاً قال :

وجرت أوامرك الشريفة في قرى كسرى وسابور الملوك وقيصر

كيف ذلك ؟ لا ندرى. وهذه أول قصيدة يقصرها الشاعر على ممدوحه ويفطم نفسه عن أن يشاركه فيها أية مشاركة.

(١٣) القصيدة ٣٦ ص ٢٢٩ في مدح الأمير أبى سنان محمد بن الفضل بن عبد الله، عدتها خمسة وأربعون بيتا، ومطلعها حماسى، أربعة أبيات ويأتي المدح متدفقاً ورائقاً من كدرة غرض آخر، وهى كسابقتها مبرأة من تدخل الشاعر فيها بشكاة أو نحوها، وموقفه هنا مفهوم، فلم يكن قد صودر بعد، ولم يكن طموحه السياسي قد نتأ، ونورد هنا الأبيات من ٤٠ إلى آخرها قال :

يازينة الملك ياتاج الملوك ويا فخر الممالك بل ياغرة الغرر
أنت الصئول بلا خيل ولا دهش أنت القئول بلاعى ولا حصر
أنت الولى بلا خوف ولا رهب أنت السخى بلا من ولا كدر
بالله أقسم لا مستثنيا أبداً لولاك لم يبق للعلياء من وزر
ولا خلت باحة البحرين منك ولا زالت عداتك طول الدهر في قصر
وعشت في عزة قعساء نائية من الحوادث والآفات والغير

(١٤) القصيدة ٣٨ ص ٢٤٠ وقد حللناها في الفصل الثاني.

(١٥) القصدة ٤٧ ص ٣٠٥ وهي الكافية التي سبق الكلام عنها مع القصيدة رقم ٤ ص ٢٦.

(١٦) القصيدة ٤٩ ص ٣٢٦ ومع أن تقديمها ينص على أن الشاعر قالها يمدح بها الأمير الفضل بن محمد بن أبى الحسين أحمد، فإن

ماجاء فيها من مدح خالص للفضل لا يزيد عن بيت ونصف بيت من مجموع أبياتها البالغ ٦٦ بيتاً، وليس هذا فقط، بل إنه تأخر بهذا المدح إلى البيتين الأخيرين من القصيدة وهما :

فما المسك إلا من عقابيل نشره ... ولا الجوهر المكنون إلا خصائله
ورأيك أعلى والرضا مارضيته ... وكل امرىء غول المنية غائله

ولا نجد قبل ذلك مما يمس الفضل مباشرة إلا البيت ٤٧ وهو دعاء له قال :

أيا فضل لازالت لنعماك تلتقي ... بمغناك سادات الملا وعباهله

وإلا البيت ٦٣ وقد زحمه الشاعر بنفسه جنبا إلى جنب مع الفضل قال :

ومنصبك السامى إلى الفخر منصبي ... وربعك ربعي والعلا أنت آيله[١٢]

والقصيدة بعد من غرر شعر ابن المقرب، وفي مطلعها ـ كأغلب مطالعه ـ تجديد لا يقل في روعته وطرافته وصدقه عملياً وفنياً عن تجديد أبي نواس في مطالع قصائده قال :

ظننت حسودي حين غالت غوائله ... يريع إلى البقيا وتطوى حبائله
وقلت كفاه ماالقيت ونالني ... به الدهر مما كان قدماً يحاوله
فأغمضت جفنا والقذى ملء ناظرى ... وأبديت سلما ليس تُخشى دغائله
وأطفأت نار الجهل بالحلم بعدما ... غلى المرجل الأحوى وذيقت توابله
ووطنت نفسي للمدارة مارأى ... رأيت ومهما قاله أنا قائله
فما زاد ذو الأضغان إلا تماديا ... ولا بشرت إلا بشر مخائله
كذلك أحوال الحسود وخبه ... وماتقتضي أخلاقه وشمائله

(١٢) العباهل : الأقيال المقرون على ملكهم، وآل الملك رعيته يعني ساسهم.

فـلا تـرج يـومـاً في حسـود مـودة وإن كـنـت تـبـدى وده وتجـامـله

وفي رأيى أن لهذه القصيدة مطلعين، أولهما تجديدى هو مانوهت بـه وذكرت صدره، وقد شغل الأبيات من ١ إلى ٢٣، وثانيهـما تقليدي هـو مانجده في الحـوار الذي دار بينـه وبين أمـرأة لعلها زوجـه وقد اشتملت عليـه الأبيات من ٢٤ إلى ٣٥، ويـظهر أن ابن المقـرب كان راضيـاً عن المطلع الثاني بدليل أنه أنشده ابن الشعار الموصلى مع مجموعة من شعـره عند لقائه به في بغداد سنة ٦٢٣ هـ وهو مثبت في ترجمته.

(١٧) القصيدة ٥٠ ص ٣٣٤ وقد قـالها في بعض مـاجرى لأمـلاك بنى إبـراهيم في ملك أبي القـاسم مسعـود بن محمـد بن أبي الحسـين أحمد، وليس في هذه القصيدة التي بلغت الستين بيتـاً سوى بيتي مدح هما البيتان ٥٢ ، ٥٣ قال :

فـإن بـقـربى مـن رجـالى مـتـوجـا تـواصـل أسبـاب العـلا من يـواصله
منيـع الحمى لا يـذعـر القـوم سرحـه ولا يمـنـع الأعـداء شـيئـاً يحـاولـه

أما ماقبل ذلك فضيق وشكوى وعزم على الرحلة قال :

أفي كـل دار لي عـدو أصـاولـه وخـصم عـلى طـول الـليـالي أزاولـه
وطـاو عـلى بـغضـاى تصرُف نـابُـه عـلىَّ وبـالـشحنـاء تغـلى مـراجـله
كـأن أبـاه كـان قـاتـله أبى وهـا أنـا إن أوْفى بىَ الـعمـرُ قـاتـله
دعـونى وأرض الله فـهـى عـريـضـة فـإن يفلل العـزم الـذي أنـا حـامله
ستشهـد لى بـالسـير في كـل مـهمـه أواخـر لـيـلى إن أعش وأوائـله
سئـمـت مـداراة الـلـيـالي وغـرنى صـديـق أصـافيـه وخـل أواصـله

وأمـا ما بعـد ذلك فهـو مدح لشعـره، وتأصيـل لصلة الـرحم التي تربطه بممدوحه ثم دعاء له.

(١٨) القصيدة ٥١ ص ٣٤١ وقد هجم فيها على مدح الفضل، وربمـا كان ذلك تعويضاً منه له عن القصيدة رقم ٤٩ قال :

رويدك ياهذا المليك الحلاحل ... فما المجد إلا بعض ماأنت فاعل[١٣]
لقد جزت مقدار الشجاعة والندى ... وتربك في لعب الصبا متشاغل
وأدركت مافوق الكمال ولم يقل ... لمثلك في ذى السن : إنك كامل

ويمضي شعره متمحضا للمدح إلى البيت ٣٨ ومن البيت ٣٩ ينتقل إلى شئونه وشجونه، ويستمر على ذلك إلى البيت ٥٥ حيث يعود إلى المدح وإلى تقريظ شعره وإلى توثيق صلة قرابته بممدوحه من جهتى والده ووالدته قال :

وحق لمثلى أن يؤمل مثله ... وفي الناس مأمول يرجى وآمل
لأن عليا جده عمى الذي ... يطول به بيتي على من يطاول
وضبار جدى عمه وكلاهما ... خليصان والعم المهذب ناجل
ويجمعنا في الأمهات ابن يوسف ... على ونعمان الأغر الحلاحل
ولى دون هذا عند فضل وسيلة ... إذا انقطعت فيما سواه الوسائل
وعندى من المدح الذي ماهتدى له ... جرير ولا تلك الفحول الأوائل

ويختم بالدعاء لآل الفضل في الأبيات من ٧٦ إلى ٧٨ وهى آخر أبيات القصيدة.

١٩ ـ القصيدة ٥٢ ص٣٥٠ وهي في مدح الأمير محمد بن أبى الحسين أحمد، عدتها سبعون بيتا، ومطلعها حكم داعية إلى أخذ الأهبة والتزود بوسائل القوة قال:

صداق المعالي مشرفى وذابل ... وسابغة زغف وأجرد صاهل
وطعن إذا الغر المساعير أقبلت ... تخب مذاكيها بها وتناقل
وضرب إذا ما الصيد هابت وأحجمت ... وفرٌّ من الفرسان من لا ينازل[١٤]

(١٣) الحلاحل : السيد الشجاع أو الضخم الكثير المروءة أو الرزين.

(١٤) المشرفى: السيف ينسب إلى مشارف الشام أو إلى مكان باليمن، والذابل: الرمح الدقيق الضامر، والسابغة: الدرع الضافية، والزغفة: الدرع الواسعة اللينة المحكمة أو الرقيقة حسنة السلاسل، ومساعير الحرب: مهيجوها وموقدو نارها.

ويتخلص من ذلك تخلصا حسنا إلى غرضه بقوله:

فيا خاطب العلياء لا تحسبنها ... حديث العذارى أنشأته المغازل
تنح ودعها هكذا غير صاغر ... لملك همام ما اشتهت فهو باذل
أغر عيوني كأن جبينه ... صفيحة سيف أخلصته الصياقل

٢٠ ـ القصيدة ٥٣ ص ٣٥٩، جاء عنوانها في الديوان هكذا (في المدح) ولعلها في مدح الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد، فهي على قده، وهي مدح كلها منها:

فتى لم يزل مذكان يُخشى ويرتجى ... إذا قصرت عن يوم خطب رجالها
فيخشاه جبار ويرجوه خائف ... وأرملة قد مات هزلاً عيالها
يجذ مقالات الرجال بلفظة ... ويقصر عنه عند ذاك جدالها
تود ملوك الشرق والغرب أنه ... يمين وأن العالمين شمالها

٢١ ـ القصيدة ٥٥ ص٣٧٠: هذه القصيدة من الأدب الإنساني، فهي تعالج مأساة الإنسان مع نفسه ومجتمعه وزمنه من خلال رؤيته الخاصة به، وقد أثبتناها هنا لأنها تنتهي بمدح للجروانيين بعامة ولإبراهيم الجرواني منهم بخاصة وذلك في الأبيات من ٥٤ إلى نهاية القصيدة بالبيت ٧٢ قال:

وآل بني جروان لما رمتهم ... بداءٍ على غير الكرام عضال
أرادت عداهم نيل ما كان من علىٰ ... لهم يالقومي من عمى وضلال
فلم يمض إلا الحول ثم رأيتهم ... على رغم شانيهم بأنعم بال
ومن يلق إبراهيم يلق ابن تارح ... أخى العزم في نسك وعزم خلال
فتى حل من عليا لكيز وعامر ... بأعلى محل من ذرى وقلال
فيا بأبي أخلاقه الغر إنها ... لأعذب من صافي الثغاب زلال(١٥)

(١٥) ابن تارح: هو إبراهيم عليه السلام، أما الثغاب: فماء يجري في ظل الجبل لا تصيبه الشمس فهو بارد عذب.

٢٢ ـ **القصيدة ٥٧ ص٣٨٤** في مدح الأمير أبي سنان مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله، عدتها ٦٦ بيتا وهي مدح كلها إلا أربعة الأبيات الأخيرة منها فهي دعاء للممدوح ولأبنائه، وهذه أبيات متفرقة منها:

يا ساهر الطرف من خوف ومن وجل ... نم في جوار الهمام السيد البطل
فقد كفاك مقاساة الأذى ملك ... متوج بين فضل ذي الندى وعلى
أبو سنان حليف المكرمات ومن ... أناف سؤدده السامي على زحل
يا طيب أيامه يا حسن دولته ... لقد أبرت على الأيام والدول
به أنارت قرى البحرين وابتهجت ... بقاعها وتسمت قرة المقل
لوحلها آدم من بعد جنته ... لم يبغ عنها إلى الفردوس من حول

وفي البيت الأخير مبالغة صارخة لكنه لا يبعد في معناه عن قول شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

٢٣ ـ **القصيدة ٦٠ ص٣٩٥** في مدح الأمير أبي علي محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي، عدتها تسعة وسبعون بيتا.

وقد استهلها فرحا بعودته من العراق وبلقاء ممدوحه في البحرين ولم ينس وصف ما سلكه إليه من برو بحر قال:

لذا اليوم أعملت القلاص العبا هلا ... وأبقيتها تحكي الحنايا نواحلا
لذا اليوم كم نفرت عن زغبها القطا ... ونبهت ذؤبان الفلاة العواسلا
لذا اليوم كم من حوت بحر ذعرته ... وكم رعت ليثا أعصل الناب باسلا
لذا اليوم نكبت الجزيرة راجعا ... وإربل لم أعطف عليها وبابلا
لذا اليوم فارقت اختياراً أحبتي ... وأهل ودادي والملوك الأفاضلا
ولو لم أمن النفس في كل ساعة ... بذا اليوم لم تعدم من الهم قاتلا

فياسعده يوماً بلقياى سيدا أبر على السادات حزما ونائلا
بلقياى ملكازين الملك مذرقى ذراه وحلىً منه ما كان عاطلا
هماماً أبت هماته أن ترى له على الأرض في بأس وجود مماثلا

ويمضي في مدحه إلى أن ينصحه في البيتين ٦٧، ٦٨ بتفقد جنده، أما الأبيات من ٦٩ إلى آخر القصيدة فتتردد بين التوصية على نفسه والإدلال بوده وتقريظ شعره والدعاء لممدوحه.

٢٤ - **القصيدة ٦٢ ص٤١٣** في مدح الأمير الحسين بن مسعود بن أحمد بن أبي سنان، عدتها خمسة وستون بيتا ومطلعها حماسي يدعو فيه إلى مذهب القوة:

بالسيف يفتح كل باب مقفل وتحل عقدة كل خطب مشكل
فاقرع إذا صادفت باباً مرتجا بالسيف حلقة صفقتيه تدخل
وإذا بدت لك حاجة فاستقصها بالمشرفية والرماح الذبل
لا تسألن الناس فضل نوالهم والله والبيض الصوارم فاسأل
واجعل رسولك إن بعثت إلى العدا زرق الأسنة فهي أصدق مرسل
واقعد وأرضك ظهر أجرد سابح وسماؤك الدنيا غيابة قسطل

وبعد أن يجرد من نفسه شخصاً ينصحه بما سبق له قوله، يأمره - وهو في الحقيقة يأمر نفسه - بأن يكون مثل ممدوحه الحسين في الكرم والشجاعة، ويمضي فيمدح الحسين بما جرت عادته به في مدحاته من صفات الجسم والنفس، ويزيد فيكثر من التمثل بالرجال المبرزين في شتى الفضائل الإنسانية مستمداً الشعر الجاهلي والأموي والعباسي فقوله:

إغضاء قيس في شجاعة وائل وسخاء معن في وفاء سموأل

من قول أبي تمام:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

وبعد أن يفرغ من مدح الحسين بفضائله الذاتية يمدحه بانتسابه إلى آل الفضل بقوله:

من معشر بيض الوجوه أعزة ... جر يا مجاورهم بهم أو فاعدل
فضل أبوهم والمعظم عبدل ... من مثل فضل في الفخار وعبدل
وإذا عددت أبا سنان وابنه ... وابن ابنه فاشرب خصيمك أو كل

ولا ينتهي قبل أن يعتب على آل الفضل بقوله:

يا آل فضل دعوة من مخلص ... لكم المودة ليس بالمتجمل
لِمَ يرتعي القوم الجميمَ وما لنا ... غير الألاءة مرتعا والحرمل
ولم الشقائق والتلاع لغيرنا ... ولنا الخطائط قَسْم من لم يعدل
والبارد العذب الزلال لغيرنا ... ونخص بالملح الأجاج الأشكل
ولم العدو يروح قردزبيدة ... شبعا ومصفى الود كلبة حومل[16]
لولاك قلت وقلت لكني امرؤ ... أبداً أصون عن الشكاية مقولي

وهو لا يصون عن الشكاية مقوله كما قال، بل إنه شكاء بكاء في كثير من شعره.

٢٥ ـ القصيدة ٧١ ص٤٧٣ في مدح الأمير عماد الدين أبي علي محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي، عدتها اثنان وثمانون بيتا بدأها مادحا قال:

صعود العلا إلا عليك حرام ... وعيش سوى ما أنت فيه حمام
وكل غمام لم تثر غادياته ... رياح ندى كفيك فهو جهام

(١٦) زبيدة هي زوج الرشيد وأم الأمين توفيت سنة ٢١٦هـ وكلبة حومل يضرب بها المثل في الجوع، وحومل: امرأة من العرب كانت تربي كلبة لها للحراسة وتجيعها وتطردها بالنهار، فرأت ليلة القمر طالعا فنبحت عليه تظنه رغيفا لاستدارته، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها. ثمار القلوب ص٣١٥ والديوان ص٤٢١ هامش رقم ٦٢.

وما المجد إلا ما بنيت وشاده ... بعزمك بأس صادق وحسام
ورثت العلا عن أحمد ومحمد ... وفضل وكل في العلاء إمام
وما الناس إلا آل فضل بن عبدل ... إذا جل خطب أو تنكر عام

ويمضي في مدح عماد الدين بفضائله وفضائل بيته إلى البيت ٥٥، وفي البيت ٥٦ يبدأ بعرض قضيته الخاصة به فيعتب ويتظلم ويذل ويخضع قال:

أيجمل أن أجفى وأنفى وعندكم ... لمن ليس مثلي عيشة ومقام
ويقبل قول الخصم فيَّ تحاملا ... وأسهر خوفا منكم وينام
وتقطع أرحامي وتلغى مودتي ... ويُقعد بي ما بينكم ويقام
هبوني جاراً لابن عم مصافيا ... فللجار منكم حرمة وذمام
أليس أبي في الانتساب أباكم ... على أنني عبد لكم وغلام
أما اجتيح مالي في هواكم وأسهرت ... بذا السجن عيني والعيون نيام
فراعوا ذمامي قدر ظني فكلنا ... صدى عن قريب في التراب وهام

٢٦ - **القصيدة ٧٤ ص ٤٩٨** في مدح الأمير الفضل بن أحمد بن عبدالله بن علي حين ملك القطيف بعد الأمير أبي شكر مقدم بن ماجد، أبياتها ستون ومطلعها حماسي ضمنه سبب النزول أي مناسبة القصيدة قال:

عنى إليك حوادث الأيام ... ما كل يوم يستطاع خصامي
إن كان قد أدمى حسامك مفرقي ... ظلما لسوف ترين وقع حسامي
لا يطمعنك فيّ هلك مقدم ... فالقوس قوسي والسهام سهامي
يا شامتا جهلاً بيوم وفاته ... صبراً فما الدنيا بدار مقام
إن كان ذاك العرش تُل فقد رسى ... في إثره علم من الأعلام

ومن هذا البيت وهو البيت الثاني عشر في القصيدة يمدح الشاعر الفضل بمثل قوله:

هـل شـد عقـد التـاج بعـد مقـدم ... إلا فـتى قـومـى وسـلك نـظامـى
مـن في الملوك إذا تـعـد كـفـاضـل ... لـعـطا الـرغـائـب أو لضرب الهـام
يـومـاه يـوم نـدى ويـوم وغى فـما ... دامـت صـوارمـه فـهـنَّ دوام

وبعد أن يهنئه بملكه في البيت ٤٦ يبدأ فينصحه في الأبيات المتبقية من القصيدة:

واخفض جنـاحـك للعشـيرة وارعهـا ... بـرعـايـة الإجـلال والإعـظام
لازلـت محـروس الجـنـاب مـؤيـدا ... بـالـنصر محـبـوا بـكـل مـرام

٢٧ ـ القصيدة ٧٩ ص٥٢٠ وهي كسابقتها في مدح الأمير فضل ولنفس المناسبة وكأن الشاعر لم يقنع بما مدحه به في القصيدة رقم ٧٤ وقد هجم لذلك على مدحه بقوله:

أبت لـك العـزة الـقعسـاء والكـرم ... أن تقبـل الضيم أو تـرضى بمـا يصم
وطـالبتك العـلا إنجاز مـا وعـدت ... فيـك المخـائـل طـفـلا قبـل تحتلم
وأقـبلت نـحـوك الأيـام مـذعـنـة ... طـوعـاً لأمـرك وانقـادت لـك الأمم
فـانهض وسر وافتح الـدنيا فقـد ضمنت ... لـك المـهـابـة مـا تهـوى وتحـتكـم

ويـظهر أن الأمـير الفضل لمـا ولي الملك بعد مـوت أبي مقدم شكـر تـولاه بموضـوعية، فلم يسرف في اتخـاذ أعـوان ووزراء من آل الفضـل وتكلم بعضهم في ذلك، وها هـو ذا الشاعـر يورد كـلامهم ويرد عليهم بقوله:

وقـال قـوم تـولى المـلك مـنصرفـا ... عن آل فضـل لقـد ضلوا وقـد وهمـوا
ومـا دروا أن فـضـل الله يـكـذبهـم ... عـما قـليـل بمـا في زعمهـم زعـمـوا

وهو يشير إلى استنجاد الفضل بـالخليفة العبـاسي الناصر لـدين الله ليتمكن من الثأر لوالده بقوله:

بئس الأمـاني مـنـتـهـم نـفـوسـهـم ... جهـلاً ويـا قـرب مـا فـاجـاهم النـدم

منوا بأروع تتلوه خضارمة ... أماجد مارسوا الهيجا وما احتلموا
مسترعف بلواء النصر يحمله ... نهد المرا كل ممسود القرى زهم
مما حباه أمير المؤمنين به ... لما أتته به الوخادة الرَّسَمُ
أجابه حين ناداه وقربه ... أشم في راحتيه للندى ديم
أغر أبلج من آل النبي به ... يُستدفع البؤس والضراء والنقم[17]

وليست القصيدة طويلة فهي تنتهي بالبيت ٤٣ بعد الدعاء للفضل وتهنئته وبعد الثناء على دولته.

٢٨ ـ **القصيدة ٨١ ص٥٥٤ في مدح الأمير أبي على مسعود بن أحمد بن محمد بن الفضل، عدتها تسعة وستون بيتا بدأها بمدح آل الفضل، ووصل إلى ممدوحه في البيت الخامس فمدحه به وبالأبيات من بعده كقوله:**

لقد زهت خطط البحرين وافتخرت ... به على مأرب في الأعصر القدم
بعد له والدم المهراق حصنها ... ولا يقر دمٌ إلا بسفك دم
لله حدس أبيه إذ تأمله ... في المهد لما يبن عن لاولا نعم
قد قال وهو يناغيه لأسرته ... ثقوا بأبلج عالى الذكر والهمم
أعطته مملكة الأحساء همته ... وعزم مستبصر بالرأي غير عم

ويقطع استرسال المدح بالأبيات من ٤٧ إلى ٥١ وفيها يدعو ويشكو ويعتب قال:

يا آل فضل أمات الله حاسدكم ... بغيظه وكفاكم زلة القدم

---

(١٧) الخضارمة: السادة الكرام يحملون عظائم الأمور، والمسترعف: الفرس يتقدم الخيل، المراكل: ما تصيبه رجلك من الدابة، ونهد المراكل: أعاليها، والممسود: المجدول الخلق المحكم الفتل، القرى: الظهر، والزهم: الكثير الشحم السمين. والوخد للبعير: الإسراع، والرَّسَم: حسن المشي.

كم يمضغ الدهر فيما بين أظهركم لحمى ويشرب شرب الهيم فضل دمى
أفى المروءة أن أظما وحوضكم للكلب والذئب والجرذان والبهم
ويصطفى من أبوه كان عبد أبى دونى ويقطع فيما بينكم رحمى

وهو إذ يستأنف المدح في الأبيات من ٥٢ يعود فيقطعه ثانية في الأبيات من ٥٧ إلى آخر القصيدة بما قطعه به في المرة السابقة.

٢٩ ـ **القصيدة ٨٢ ص٥٦٢** في مدح أبى أحمد علي بن أحمد بن عبدالله بن إبراهيم بن غرير العيونى، عدتها ثلاثة وستون بيتا، ومطلعها غزلى أتى به على شكل حوار بينه وبين حمام قال:

رويداً بعض نوحك يا حمام أجِدَّك لا تنيم ولا تنام
أكلَّ الدهر تذكاراً وشوقا أما في اشتياقك والغرام
هتفت فهجت لى شوقا فقل لى حمام أنت ويحك أم حمام

ولا يصل إلى المدح إلا في البيت ٢٤ وهو يمضى فيه إلى البيت ٤٤، والأبيات من ٤٥ إلى ٤٧ اعتذار من الشاعر عن انقطاعه عن ممدوحه. ومن هجائه لعدو لممدوحه.

عبوس إذ يقابل وجه حر وبين المومسات له ابتسام
جواد حين يلعن والداه وتقرع أنفه وكذا اللئام
يعزمهينه ويهين لؤما مكرمه كذا النطف الحرام

والبيتان الأخيران في القصيدة دعاء للمدوح.

٣٠ ـ **القصيدة ٨٧ ص٥٨٠** في مدح الأمير الكبير أبى سنان مسعود بن محمد، عدد أبياتها اثنان وخمسون بيتا، ومطلعها غزلى رقيق وهو يمتد إلى البيت الثاني والعشرين منها، ويمكن النظر إليه على أنه قصيدة غزل مستقلة، خصوصاً وأنه خال من شوائب الأغراض الفرعية ومتمش مع القواعد الفنية لقصيدة الغزل قال:

من ذا أفتاك بسفك دمى يا غرة حىٍّ بنى جشم

فتعالى غير مدافعة نقصص رؤياك على حكم
أبنظرة عين عن خطأ عرضت بالعمد يراق دمى
إن كان جنى طرفى فلقد يكفيه مقالك: لا تنم

وهو يتغنى بالوصل في الأبيات من ١٣ إلى ١٧ قال:

يا طيب الوصل ودار الحِبِّ بحيث الأبطح ذو الحرم
والدهر بعينيه سدر عن شمل الحُبِّ الملتئم
نغدو ونروح ومذهبنا شرب الصهباء على النغم
كم ليل بت أفاكهه فحشا لحشا وفما لفم

ويأتي بالبديع المعجب من المعاني وهو يضيف إلى المال وظيفة طريفة قال:

والمال يمد رواق الستـ ـر على المثرين من التهم
فترى الرقباء طلائعنا وشهود العفة والكرم

ويختم هذا الغزل الذي يمكن أن يكون ـ كما قلنا ـ قصيدة مستقلة، يختمه بالدعاء لليالى اللهو بالسقيا وبالإشادة بها وبالتحسر عليها قال:

سقيا لليالى اللهو لقد كانت وتولت كالحلم
يا خضرتها يا نضرتها يا حسرتها إذ لم تدم

ويتخلص من ذلك تخلصا حسنا إلى المدح بقوله:

ساوت في الحسن زمان الملـ ـك عماد الدين حيا الأمم
ملك أحيا بمواهبه قتلى الإملاق من الرمم
وأقام بحسن سياسته شوش الأملاك على النقم
ملك تختال قرى البحريـ ـن به في الحسن على إرم
خلقت للنصل أنا مله والبذل الشامل والقلم

ويختم برفع قصيدته إلى سدته مشيدا بها ومنوها بإخلاص

صاحبها، وبما بينه وبين الممدوح بها من قرابة وثيقة.

٣١ ـ القصيدة ٨٨ ص٥٨٥ في مدح الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد أبياتها ثمانية وخمسون، ومطلعها غزل مزدوج، شقة الأول غزل في جوهره ومظهره، ومن أوله إلى آخره، ذهبت به الأبيات من (١):

ألا رحلت نعم وأقفر نعمان فبح باسمها إن عزَّ صبر وسلوان

إلى (٦):

نروح ونغدو لانرى الغدرشيمة وليس علينا للعواذل سلطان

وشقة الثاني غزل في المظهر لافي الجوهر، وفي الابتداء فقط، الأول وسيلة وغاية، والثاني وسيلة ومدخل إلى الفخر بنفسه وقومه، ولأنه كذلك فليس فيه من الغزل إلا بيته الأول وهو البيت السابع في تسلسل القصيدة:

ومبدية تيها عليَّ وقد رأت بياضا برأسي قد بدا منه ريعان[١٨]

أما بقية الأبيات إلى ٣٢ فليس لها بالغزل صلة، ومع أن صاحبته لم تزد على أن أبدت تيها، فقد هاج هائجه وأبدى عن ناجذى فخره وعنجهيته بقوله:

فقلت لها لا يا ابنة القوم إنني أعز إذا ذلت كهول وشبان
وإني لمن قوم أباة أعزة مصاليت ما خاموا قديما ولاخانوا[١٩]
لي النسب الوضاح قد علمت به معد إذا عد الفخار وعدنان

وهو موقف غير منطقي، بل متكلف ومصطنع.

---

(١٨) ريعان الشيء: أوله وشدته.

(١٩) المصاليت: الشجعان، وخاموا عن القتال: جبنوا عنه ونكصوا.

ويهمنا هنا مدحه الذي ابتدأه في البيت ٣٣ قال:

لـيـالىَ يحمـى الجـابـريـة منهـم ... إلى الـرمـل مـطعـام العشيـات مـطعـان
وإن سـلمـت نـفس الأمـير محـمـد ... شـكـت مـن سرايـاه عُـمـان وعَـمَّان
وسـارت إلى أرض الشـآم جيـوشـه ... ولم يمـتـنـع مـنـه زبـيـد ونـجـران
فـتى لم يـزل يسمـو إلى كـل غـايـة ... إذا راح حظ الـقـوم نحس ونـقـصـان

ويمضى فيعدد مآثر ممدوحه على وطنه وقومه إلى البيت ٥٦، ويدعو له في البيتين ٥٧، ٥٨ وهما ختام القصيدة.

٣٢ ـ القصيدة ٩٠ ص٦٠١ في مدح الأمير فضل بن محمد، عدد أبياتها ثمانون ومطلعها طللى ثم شكوى موجعة من الدهر، وهجاء مقذع للأهل، وهو يذكر قصته مع من يسأله عن قومه وسبب تركه لهم ومدحه لغيرهم، ويشغله ذلك كله عن مدح الفضل وآل الفضل إلا بالأبيات من ٦٢ إلى آخر القصيدة، وهذه أبيات متناثرة منها قال:

مـا أنـصف الـطلل الـعـافى بمـاوانـا ... لم نـشجـه يـوم سلمنـا وأشـجـانـا
عـجنـا نـحييـه إجـلالا وتـكـرمـة ... مـنـا فلم نبـكـه شـوقـا وأبـكـانـا
وكـنـت أحـسبـه والـدهـر ذو غـير ... لـو لم نـحىٍّ مـغـانـيـه لحـيـانـا
فـلسـت أدرى لإنـكـار تخـونـه ... أم بـالعقـوق عـلى عمـد تـوخـانـا
أقـول والـدمـع قـد بـلت بـوادره ... مـنـا خـدوداً وأذ قـانـا وأردانـا
مـا الـذنب للربـع في هـذا فنلزمـه ... عتبـا ولـكن هـذا الـدهـر لاكـانـا
إيهـا خـليـلىَّ من ذهـل بـن ثـعلبـة ... من لم يهن نـفسـه في حـقـهـاهـانـا
كـم ذا المـقـام عـلى ذل ومـنـقـصـة ... وكـم أجـرع كـأس الضيـم مـلآنـا
يـسـومنى الخـسـف أقـوام أبـوتهـم ... عـبـيـد آبـاى إقـراراً وإذعـانـا
يـرى الغنيمـة من يـرجـو نـوالهم ... ألا يـعـود إلى نـاديـه عـريـانـا
وجـالـب المـدح يستمـرى أكـفـهـم ... كحـالب التيس يـرجـو منـه ألبـانـا
وقـائـل عـد عن نـظم القـريض فقـد ... أسمعت من قبـل لـو نبهت يـقـظانـا

فليس بعد عماد الدين من ملك ... تخط فيه رواة الشعر ديوانا
فقلت لم نر فيه من خلال علاً ... إلا ونحن نراها في ابنه الآنا
حزم وعزم وبأس صادق وندى ... غمر وحلم وعقل فاق لقمانا
يافضل دعوة ذي قربي دعاك وقد ... أحسَّ للضيم في أحشاه نيرانا
أعيذ مجدك أن أشقى وتعرفني ... نيوب دهر ترد القَرْمَ حَلَّانا[٢٠]
نماك للمجد آباء بهم شرفت ... ربيعة الغر عدنانا وقحطانا

***

(٣٣) **القصيدة ٩٢ ص ٦١٨**: في مدح الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد، مطلعها غزلي طللي ماواني كسابقتها وقد امتد هذا المطلع إلى البيت الثامن قال: .

سائل ديار الحى من ماوان ... ما أحدثت فيها يد الحدثان
لما وقفت العيس في عرصاتها ... ذهب العزاء وأقبلت أجفاني
وذكرت أياما خلون وأعصراً ... ذكرى لهن لسلوتى أنساني
وكواعبا بذوى القلوب لواعبا ... بيض الخدود نواعم الأبدان

والأبيات من ٩ إلى ١٣ في وصف مشهد الرحيل رحيل أحبابه عنه وقد اتخذه الشاعر متكأ لينا لتخلص حسن قال:

لم أنس يوم البين موقفنا وقد ... حم الفراق وفاضت العينان
أقوت مغانيهم وكانت حقبة ... مأوى الحسان وملعب الفتيان
ومناخ ممتاح النوال وعصمة ... للخائفين وملجأ للجانى
بالبيض بيض الهند يحمى بيضه ... يوم الوغي وذاوبل المران
يوم النزال تخاله في بأسه ... ملك الملوك وآفة الشجعان
أعنى الأمير أبا على ذا العلا ... مردى العدى ومقطر الأقران

---

(٢٠) القرم: الفحل، والحلان: الجدى أو الخروف.

ويمضي الشاعر في مدحه لممدوحه إلى البيت ٥٥ ويجعل البيتين ٥٦، ٥٧ دعاء وهما ختام القصيدة.

(٣٤) **القصيدة ٩٤ ص ٦٣١**: هذه القصيدة ليس الغرض منها المدح كما جاء في النسختين الموجودتين بدار الكتب المصرية تحت رقمي ١٢٦ (أدب)، ١٠١٧ (أدب) وإنما هي رسالة شعرية من ابن المقرب إلى أبي علي إبراهيم بن عبدالله بن غرير بن إبراهيم بن أبي جروان يطلب منه فيها أن يقوم بدوره في ضبط أمن الدولة غير متكل في ذلك على أميرها مقدم بن غرير بن الحسن بن شكر، لأنه ليس أهلاً للحكم هاهوذا يقول له:

فلأنت لو أنصفت عين زماننا ... يابا على وعين كل زمان
ودع احتجاجك بالأمير فإنه ... مالا يجوز على ذوى الأذهان

(البيتان ١٠١، ١٠٢ من القصيدة)

وإذا كانت القصيدة ليست في المدح فلم أوردناها في قصائد المدح؟ نجيب عن ذلك بأنها قد اشتملت عليه عرضا لاقصداً، واستطراداً لا ابتداء وهذا ماحدا بالنسختين المذكورتين أن تقولا: إنها في المدح. لكن لمن كان المدح؟

كان لمحمد بن أبي الحسين أحمد وفي الأبيات من ٧٧ إلى ٨٣ قال:

فصلوا حبالكم بحبل محمد ... نجل المعظم عبدل بن سنان
تجدون ميمون النقيبة ماجداً ... متساوى الإسرار والإعلان
حمال أثقال ورب صنائع ... وملاذ مكروب وعصمة جان
أحنى وأرأف بالعشيرة من أب ... بروأعطف من رضيع لبان
حلم ابن قيس في سماحة عمه ... معن ويمن اسكندر اليونان
أحيا أباه ذا الندى وبنى على ... ماكان شيده من البنيان

وفيما عدا ذلك فمطلع القصيدة حماسي يستنهض الشاعر فيه وبه همم رفيقيه أولا، وعبد قيس كلها ثانياً قال:

كم بالنهوض إلى العلا تعدانى ... نامًا فمالكما بذاك يدان
ما أنتما من رهط جساس إذا ... ذكر الفعال ولا عشيرة هاني
لا تطلبا البيع الربيح فأنتما ... ممن يقوم بصفقة الخسران
أرجال عبد القيس كم أدعوكم ... في كل حين للعلا وأوان
فتراكم موتى فأسكت أم ترى ... خلقت رؤوسكم بلا آذان

وهو ـ كالعهد به ـ ينقد مجتمعه ويهجو قومه، وقد صار لشدة اندهاشه من سلوكهم ـ يشك في صحة مايقال عنهم من أنهم ليسوا من ربيعة بل ليسوا عربا أصلا، وإنما هم أولاد فعلة جلبوا في القديم من بلاد فارس لبناء حصن هجر، والحقيقة أنه في أعماقه غير مصدق ذلك لكنه من شدة غيظه يوشك أن يقول به، فلم يحدث أن ربيعة رضيت بهوان ولا أغضت على ضيم، وهو يخيرهم بين أن يحموا بلادهم أو يرحلوا عنها، هي دعوة دعاها في القصيدة رقم[1]:

أو هاجروا في الأرض فهي عريضة ... فالتيه خير من حمى الأحساء

وقال هنا:

والله لو نهر جرى بدمائكم ... وشربته غيظا لما أروانى
فاجلوا فما أنتم بأول من جلا ... واختار أو طانا على أوطان

(البيتان ٧١، ٧٢ من القصيدة)

وبعد أن يمجد عهد الأمير محمد وحكمه يصل إلى غرضه الرئيسى من رسالته إلى أبي علي إبراهيم أي من قصيدته هذه بقوله:

ياراكبا نحو الحساء شملة ... تنمى لموجدة القرى مذعان
أبلغ هديت أبا على ذا العلا ... عنى السلام وقل له ببيان
أتراك ترضى أن يحدث جاهل ... أو عالم من نازح أو دان

فيقول كان خرابَ دار ربيعة ... بعد العمار بنو أبي جروان
يأبي لك الطبع الكريم ونخوة ... عربية شهدت بها الثقلان
اعطف على أحياء قومك واحتمل ... ذنب المسيء وكاف بالإحسان
واعمل لما يحيى العشيرة واطرح ... قول الوشاة فكل شيء فان
واعلم بأن النسر يسقط ريشه ... حينا فيقعده عن الطيران
لاتحسبن الكلب يوماً دافعا ... بالنبح صولة ضيغم غضبان
واستبق مرة للعدو فمرة ... في الانتساب ومالك أخوان
وارفع خسيسة من تشكى منهم ... غبنا وكن لأسيرهم والعانى
واعلم بأن الرشد لوحاولته ... في طاعتى والغىّ في عصيانى

ويتأدب فيسحب مامر من نصح مستكثرا على نفسه أن ينصح مثل أبي علي قال:

والرأي عندي ماتقول وماترى ... لا مارأي قلبي وقال لسانى

(البيت ١٠٤) وهو آخر بيت في هذه القصيدة التي كانت إسهاماً إيجابيا من ابن المقرب في حل الأزمة السياسية التي أودت بدولته العيونية، لكنها للأسف كانت علما لاعملا، ومشورة لا أمراً، وتفكيراً لاسلوكا، وإذا كانت دولته قد ذهبت فإن قصيدته قد بقيت بل خلدت.

ملاحظات على المدح

(١) يأتى المدح متأخراً غالباً، وقليلة تلك القصائد التي استهلها بالمدح، أما معظمها فقد زحمه بشكواه وعتبه ونقده وحماسه وهجائه لقومه، كل ذلك أو بعضه يسبق أو يتخلل مدحه وقد يأتى بعده.

(٢) حاز الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد وابنه الفضل قصب السبق في مدح الشاعر لهما، وذهبا بما يقرب من ثلث مدحه لقومه ومدائحه فيهما نابعة من قلبه ومعبرة عن حبه.

(٣) رتابة مدحه بتكرار معانيه مع كل ممدوحيه، إنها دائما الشجاعة والكرم والحلم والعدل والتواضع والعفة والنخوة والنجدة والغلبة.

(٤) يقف ابن المقرب في المنطقة الوسطى بين التعفف والطلب ويتعفف أو يغلب عليه التعفف في مدحه لقومه، ويطلب أكثر مما يتعفف في مدحه لغير قومه، وتفسير ذلك مفهوم نفسيا، واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

(٥) معظم من مدحهم ابن المقرب يستحقون مدحه لهم من وجهة نظره، وبمقاييسه الخاصة به، ومدحه فيهم لهذا صادق مشبوب العاطفة، ومع هذا فقد كان يحمل مصباح ديوجين وهو يمدح، إنه يمدح بما في الممدوح من فضائل، لكنه كثيراً ما بالغ في تلك الفضائل، وهي مبالغات مقبولة إلى حد ماإذا كانت في الكم أي في عدد الفضائل، وغير مقبولة إذا كانت في الكيف أي في إنهاك الصفة الممدوح بها إلى حد استحالتها وعدم إمكانها كقوله :

ذاك الذي لو سار أعمى في الدجى ... بضياء غرته لأبصر واهتدى
لو أن للعضب المهند جوهراً ... من عزمه لفرى الجماجم مغمداً
لو سال ماسقى المهند من دم ... مذسله لرأيت بحراً مزبدا
ساد الورى طفلاً وبرز يافعا ... لم يثغر وبنى المكارم أمردا

(ص ١٧٢ - ١٧٣)

وكقوله :-

له هيبة ملء الصدور فلورنا ... إلى الموت مزوراً لمات من الذعر

ولـو قـال لـلأفـلاك في سـيرهـا قفى لـبـاتـت ركـوداً لا تـدور ولا تجـرى

(ص ٢٠٢)

وكقولـه :

لـو حلهـا آدم من بعـد جنتـهلم يبـغ عنهـا إلى الفـردوس من حـول

وكقولـه :

فـتى لـوصـك بـالـسيـف ضـاربـا شـما مـا لقـال النـاس : أين شـمام ؟

(ص ٤٤٧)

فهـذه الأبيات ونحـوها قـد تجـاوزت المبـالغـة المحمـودة إلى الغلو المذموم وهو مذموم، لأنه إفراط في الصفة.

(٦) ومـاذكرنـاه في الفقـرة السـابقـة لا يمنعنـا من القـول بـأن قنـاعتـه باستحقاق بعض ممدوحيه لمدحه كـانت قناعـة وقتية ولأسبـاب غير موضوعية، فهو قد مدح مـداراة أو مجاملة ثم مـالبث أن ندم عـلى مدحه، يدل على ذلك قوله :

إلى الله أشـكـو عـثرة لـو تـدوركـت بتمـزيق جلدى مـاأسفت عـلى جلدى

مـديحى رجـالاً بعـضهـم أتـقـى بـه أذاه وبـعـضـا لـلمـراعـاة والـود

فـلا الـود كـافي ذا ولاذا كـفـى الأذى ولانـظروا في بـاب ذم ولاحمـد

(ص١٣٥)

(٧) تلوينه لمدائحه بالصور الفنية تلوين تقليدي مصدره الـتراث وليس في هذا التلوين من الجهد الذاتي ومن نبض العصر إلا القليل.

(٨) يعكس مدح ابن القرب ثقافته الـواسعة المنـوعة، فمنـه عرفنـا أنه كـان ذا معجم لغوى ضخم، وأنـه كـان يحفظ القـرآن الكـريم، ووقفنا على معارفه الفلكية، وعلى إحاطته بالتاريخ.

(٩) مدحه لأمراء أسرته ذو شقين : شقٌّ المدح فيه بالفضائل الذاتية، وشقّ المدح فيه بالحسب والنسب، وبالانتماء إلى ربيعة بعامة وإلى العيونيين بخاصة، وإلى آل الفضل منهم على وجه أخص.

(١٠) قصائد مدحه في جملتها طويلة، لا لأن المدح فيها طويل بل لتعدد أغراضها.

والخلاصة أن قصيدة المدح عند ابن المقرب هي قصيدة المدح القديمة بعد أن أضاف إليها ماكاد يخرج بها عن المدح إلى أغراض أخرى هي الحماسة والفخر، وهي العتب والشكوى وهي الهجاء الجماعي الهادف إلى تصحيح الأوضاع، وإزالة أسباب الشكوى.

تقريظ شعره

ابن المقرب شاعر يعرف قيمة شعره، ويقدره حق قدره، ومن هنا كان إدلاله به على ممدوحيه في عدد لا بأس به من قصائد مدحه، وقد أحصيت تلك القصائد فوجدتها أربعاً وعشرين قصيدة تردد ثناؤه فيها على شعره بين بيت واحد في القصائد ٦٥، ٧١، ٩٠ وبيتين في القصائد ٤، ١٠، ١١، ١٦، ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٦٤ وثلاثة أبيات في القصائد ٢٠، ٢٣، ٥٦، ٨٧، ٩٦ وأربعة أبيات في القصيدتين ٢٦، ٤٢ وخمسة أبيات في القصيدتين ٦٠، ٩٧ وهى آخر قصائد الديوان بعد تصحيح التسلسل.

لكن بماذا مدح بن المقرب شعره ؟ وما النعوت التي أضفاها عليه وهو يقرظه ؟

سنرى ذلك من النماذج التي سنوردها لهذا التقريظ، وسنقتصر منها على نموذج واحد من كل كم.

فمما قرظ به مدحته في بيت واحد قوله في ختام القصيدة رقم ٩٠ وقد جاء بيت المدح منها في ص ٦١٠ قال :

فهاكها ياعماد الدين حاوية درأً ومسكاويا قوتاً ومرجانا

وهو تشبيه لقصيدته أو لأجزاء منها بالأحجار الكريمة، وعلى وجه التحديد بالدر والياقوت والمرجان قاصداً تلؤلؤها ونفاستها وندرتها، وقد أقحم فيها المسك وهو عطر طيب ضوع قصيدته به مع رفعه من قدرها بأن جعل أبياتها درأً وياقوتاً ومرجاناً، وإذا كانت هذه الأشياء مادية فإنها ملوكية أو يغلب عليها أن تكون كذلك، وما الظن بشاعر يريد أن يروع ممدوحه وأن يهوله بأنه لا يهديه شعراً بل أحجاراً كريمة، وبأن ثناءه عليه ثناء عطر.

***

ومما قرظ به مدحته في بيتين ماجاء في القصيدة ١١ والبيتان منها في ص ٨٤ قال :

إليك جوهرة من طبع قائلها تبقى على غابر الأزمان والحقب
يقال للمدعى شعراً يعادلها كذبت ما الضرب الطلحي كالضرب

ونلاحظ أن ابن المقرب لا يزال سادراً في ماديته التي أسبغها على شعره، فقد وصف قصيدته بأنها جوهرة جرى في صياغتها على سليقته الشعرية فجاءت طبيعية، كما وصفها بأنها خالدة ترددها الأجيال والحقب، هى من الأدب السائر إذن، والممدوح بها مستفيد من سيرورتها وجريانها على ألسنة الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة ثم هي محلقة غير ملحوقة، ومن يدعى أنه يقول شعراً يعدّ لها يجُبه بأنه كاذب

وينبه إلى أن الفرق بينها وبين شعره كالفرق بين صمغ الطلح وعسل النحل.

***

ومما قرظ به قصيدة مدحه في ثلاثة أبيات قوله في القصيدة ٢٣ والأبيات منها في ص ١٦٧ قال والمقصود ثلاثة الأبيات الأخيرة :

يابا على دعوة من مخلص ... لكم الهوى وبذاك قلبك يشهد
تدنيه أرحام إليك قريبة ... ونصيحة ومودة تتجدد
وغريب نظم فاق أشعار الورى ... فيكم بساحة كل أرض يُنشد
وإليكها يابا على مدحةً ... من فضلها أنى عليها أحسد
جاءت نسيجة وحدها في عصرها ... إذ أنت في هذى البرية أوحد

وصف شعره جملة بأنه شعر غريب أي مدهش، والإدهاش مقياس من مقاييس جودة الأدب يلح عليه النقاد المحدثون شرقاً وغرباً، وهاهو ذا ابن المقرب يسبقهم إليه ويقيس شعره به في مجال مدحه، وهو شعر فاق أشعار الورى، وإذا كان المتنبى إذا قال شعراً، أصبح الدهر منشداً، فإن ابن المقرب إذا قال شعراً أصبحت الأرض منشدة، لقد اقتسما الزمان والمكان وهي قسمة كان المتنبى هو الذي اختار فيها أولاً، وكان ابن المقرب ذكياً فأخذ عن طيب خاطر ماتركه المتنبى، وما اختلفت حظوظهما، فالزمان والمكان شريكان على قدم المساواة في الظرفية الحتمية للوجود والخلود، ومأأحلى التخصيص الذي صدر به عجز البيت الأول سالكاً إليه طريق القصر بتقديم ماحقه التأخير (فيكم) إيثاراً للقاعدة الفنية على القاعدة العلمية. هذا كان معنى البيت الأول وإيحاءه، أما البيت الثاني فمعناه سطحى ومدح شعره به مدح ساذج لأنه يمس القصيدة ولا يتعمقها، ويدركها لكنه لا يحللها، كل ما هنالك أنها أعجبت قارئها أو سامعها فحسد صاحبها عليها، ولا

عجب، فقد جاءت نسيجة وحدها ويتيمة عقد الشعر العربي، ولا جدة في هذا الوصف، فقد سبق له وصف شعره به في قوله (وغريب نظم فاق أشعار الورى).

والخلاصة أن هذه الإطالة في تقريظ شعره لم تعد عليه ولا على شعره بطائل، لأنه قال كل ماعنده في البيت الأول من الأبيات الثلاثة.

***

ومما مدح به قصيدة مدحه في أربعة أبيات قوله في القصيدة رقم ٢٦ وهي إحدى قصائد مدحه في الأمير أبي شجاع باتكين أمير البصرة.

أريهم منطقاعيا وإني لأفحم في بلاغته زيادا

وهو هنا يصف بلاغته في شعره بأنها أعلى من بلاغة زياد بن أبيه في خطبه، ونعرف قيمة هذه المفاضلة إذا ذكرنا قول الشعبى « مارأيت أحدا أخطب من زياد ».

كان هذا البيت هو البيت رقم ١٣ في القصيدة، وثلاثة الأبيات الباقية هي الأبيات من ٧٣ إلى ٧٥ قال :

فدونك عذبة الألفاظ جاءت بنور ساطع يغشى البلادا
تريك سطورها والليل داج فريد الدر مثنى أو فرادا
لو اجتازت بسامعتى جرير لقام لها جلالاً واستعادا

والأبيات أوضح من أن نشرحها، ومن مظاهر جودتها أنها عذبة الألفاظ، أما نورها الساطع الذي عم البلاد فغير مفهوم، لكن يمكن أن يكون قصده أنها في مدحها له كسفت نجوم مدح أخرى، ويرشح ذلك أن سطورها دُرٌّ ينير الليل البهيم، والمهم هو مضمون البيت الثالث، فلو قدر لجرير أن يسمعها لوقف إجلالاً لها، ولاستعادها، ومَنْ جرير؟ إنه قريع الفرزدق والأخطل، أرق الثلاثة غزلا، وأوجعهم هجاء، ونفهم

من ذلك أن ابن المقرب كان معجباً به، وأنه كان يفضله على غيره، وأن شعره من شعره قريب من قريب.

***

ومما قرظ به قصيدة مدحه في خمسة أبيات قوله في القصيدة رقم ٦٠ وقد جاءت خمسة الأبيات في صفحتي ٤٠٤، ٤٠٥ قال مخاطباً ممدوحه في الأبيات من ٦٨ إلى ٧٠

ولا تهملن ودى لكم وقرا بتى ... وأشعارى اللاتي ملأن المحافلا
فكم لي في عالياكم من غريبة ... يظل مساميكم لها متضائلا
نتائج فكر غادرت كل فكرة ... نتوج لما يحلو من الشعر حائلا

أوصى ممدوحه وهو الأمير الأجل أبو على محمد بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن الفضل بن عبد الله، أوصاه بحفظ مدائحه فيه وفي آل بيته تلك المدائح التي ملأت المحافل، لأنها في علياهم أولا، وتطامن من منافسيهم ثانياً، ولا عجب، فهي من إبداع بصيرة نافذة وبنت موهبة فذة تدع غيرها من البصائر والمواهب عاجزة إلا عن قول الشعر العقيم.

ونصل إلى البيتين ٧٨، ٧٩ وهما ختام القصيدة قال :

ودونك من تيار بحر إذا طمى ... أراك بحار الأرض جمعاً صُلا صلا
وأنفذتها في حكمة وبلاغة ... كست حلة من بعد عهدك عاقلا

وأول هذين البيتين يلتقى في معناه بالبيت الثالث من الأبيات السابقة، فالصُّلصُل (بضم الصاد) بقية الماء في الغدير لكأنه يقول : خذ مدحتى واعلم أنها بنت خاطرى الذي إذا أثير، أراك بحور الأرض وكأنها بقية الماء في الغدير، ولأنى قد وصلت بها في حكمة وبلاغة إلى قلب سامعها وعقله، فإنها تكسوه على مدى الزمن حلة من البلاغة

والحكمة، يريد أن شعره مؤثر في متلقيه إلى أقصى المدى، أي مهما كان عصر هذا المتلقى، ومهما كانت بيئته، وهو عود على بدء في أمر خلود شعره وسيرورته وفاعليته.

وبعد فهذه خمسة نماذج من تقريظ ابن المقرب لمدائحه، أرى أنها كافية في تمثل هذا التقريظ وتصوره، فهي تعطى رأيه في شعره، وتكشف عن مساحة كبيرة من إحساسه بفنه، ومن وقع هذا الفن على نفسه، وهو ليس بدعا في ذلك كله، فمن قبله قال أبو تمام :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى

وقال أبو الطيب : وماالدهر إلا من رواة قصائدى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الحماسة والفخر والهجاء الجماعي والشكوى والعتاب والنصح

قد يعجب القارىء من هذا التكثيف في عرض هذه الأغراض، وعذرنا أن ابن المقرب هو الذي قادنا إلى ذلك، فمعظم قصائده بما في ذلك قصائد المدح التي عرضناها قد تضمنتها مع المدح، وفي أحيان كثيرة قبل المدح الذي هو عنوانها وغرضها الأصلي، وقد جارت عليه كما رأينا.

والقصائد التي سنتناولها هنا وعددها تسع عشرة قصيدة قد اشتملت على الأغراض السابقة، أو قل: إن الأغراض السابقة قد تناثرت فيها وكانت كلها أو بعضها وحدها أو مع غيرها سداها ولحمتها، يبدأ فنراه فارساً متحمساً يدعو إلى إعمال السيف في الفساد المستشرى كي يجهز عليه ويخلص العباد والبلاد منه ومن أصحابه، ويبرر تصديه لذلك بأنه ـ وهو من هو في ذاته وفي انتمائه إلى البيت الحاكم ـ غير راض عن الوضع القائم ويقوده ذلك إلى الفخر بنفسه، وبمن يراهم أهلاً للفخر بهم من آبائه وأجداده، وفي محاولة منه لإقناع غيره برأيه، بل لتحميسه لهذا الرأى يتناول واقع قومه بنقد لاذع وبهجاء مقذع، وإذا يئس من الاستجابة له أعلن عزمه على مغادرة وطنه، وسنجده إلى ذلك يشكو ويعتب وينصح، ونصحه نوعان: نصح مباشر ونصح من خلال الحكمة والمثل.

(١) **القصيدة ٥ ص ٣٥**. قالها ببغداد سنة ٦٠٥ هـ أي بعد أن صودر وسجن، ومع هذا فسنجد فيها مايدل على أنه لم يزل مؤملاً في

قومه ومبقياً عليهم، فهو يمدحهم ويحن إليهم، جنباً إلى جنب مع الشكوى منهم والعتب عليهم.

ولو غير قومي رام ظلمي لقلصت ... خصاه وأضحى قاصر الخطو لاغبا
لعاين دوني عصبة عبدلية ... تسامى فرادى للعلا ومقانيا
أبوها أبي إن أدعها وجدودها ... جدودي إذا عدَّ الرجال المناسبا
ألا ليته من غيرهم فأرده ... بهم فيروح الدهر خزيان ناكبا[1]

(٢) **القصيدة ٦ ص ٤١** : مطلعها غزل أو شيء كالغزل يتخلص منه بسرعة إلى شكواه وفخره وماوراءهما قال :

دع الكاعب الحسناء تهوى ركابها ... وتبنى لها في حيث شاءت قبابها
فقد كرهت جهلاً مشيبي وإنني ... أرى ضلة أن يزدهيني شبابها
وماشبت من عد السنين وإنما ... أشاب قذالي ميلها وانقلابها
وتأويل أحداث إذا ماحسبتها ... أتتني بأشياقل عني حسابها
ثني عطفه عني القريب لأجلها ... وأضحت بنات العم عوجا رقابها
على أنني في كل أمر همامها ... وبدر دجاها لو رعت وشهابها
وإني لأذكى القوم لو تعلمونه ... نصابا وإن كانت كريماً نصابها
وأبعدها في باحة المجد غايةً ... وقاباً إذا ما امتد للمجد قابها
وأفصحها يوم الخصام مقالةً ... إذا فصحاء القوم أكدى خطابها

ويمضي في فخره بنفسه وبقومه إلى البيت ٤١، ومن البيت ٤٢ يتحول من الفخر بقومه إلى الشكوى منهم لتنازعهم فيما بينهم، نزولاً على مقالات الأعادى وتغريرهم بهم.

ومما شجاني يالقومي فعبرتي ... لدى كل حين لا يكف انسكابها
تضاغن أملاك أبوها إذا اعتزت ... أبي ونصابي حين أُعزى نصابها

---

(١) قلصت خصاه : انزوت وشمرت، والمقانب : جمع المقنب وهو الجماعة من الخيل تُجمع للغارة.

والنتيجـــة :ـ

لـذا طمعت فينـا البـلايـا وأصبحت تهـر عـليـنـا كـاشرات كـلابهـا

ويختم بالأبيات من ٥٦ إلى ٥٨ وفيها يطب لقومه بقوله :ـ

ألا يـالـقـومى مـن ربـيـعـة فـتـكـةً تغـادر نـوكى القـوم صفـرا وطـابهـا
فـما عـزَّ إلا فـاتـك ذو عـزيمـة جـرىء عـلى الـنـزلى يصرف نـابهـا
فـأقـتـل داء في الشرار اصـطفـاؤه وأشـفـى دواء لـعـنهـا واجـتـنـابهـا

(٣) القصيدة ١٠ ص ٦٤ : قالها بالقطيف سنة ٦٢٠ هـ ومطلعها حماسى يخاطب فيه نفسه بقوله :

إلى كـم منـاجـاة الهـمـوم الـعـوازب وحتـام تـأميـل الـظـنـون الكـواذب
أمـا حـان للعضـب اليـماني أن يُـرى بـيـمـنـاك كـالمخـزاق في كـف لاعـب
أتـظمى لـديـك المشرفيـة والـقـنـا وفي قـلل الـبـاغـين ورد لـشـارب
فشمـر وأ وردهـا فـقـد زاد ظمـؤهـا عـلى العشر أوردهـا بعـزم مـؤارب[٢]

ثم ينصح سالكاً طريق الحكمة بقوله :

ومـن لم يـروِّ السيف يـظم ومـن يهـن يهـن ومحـاريـب الـعـلا لـلمحـارب
ومـابـلغ الـعـلـيـاء إلا ابـن حـرة قـلـيـل افتكـار في أمـور الـعـواقـب
ومـا العز إلا في صهـا كـل سـابـح ومـا المـال إلا في شبـا كـل قـاضب

وينتهي به يأسه من إصلاح قومه إلى عزمه على الرحيل :

خـلـيـلي عـن دار الهـوان فـقـوضـا خـيـامي وزمـا لارتحـال نـجـائبي

ويتعجب من موقف بعض مواطنيه منه في قوله :

---

(٢) المخراق : المنديل يلف ليضرب به، القلل : جمع القلة وهي أعلى الرأس. الظمء : مابين الشربتين، والمؤارب : المداهى.

عجبت لقوم أصبحوا وعيونهم ... تخازر لي من تحت تلك الحواجب
إذا مابدا شخصي لهم خلت عاصفا ... من الريح قد ثارت عليهم بحاصب
يسرهم أني اخترمت وغالني ... حمامي وقامت بالمآلي نوادبي[٣].

ورداً على هذا الموقف منهم تجاهه، فخره بأمه وآبائه، وحطه من آبائهم وأمهاتهم بل من إطارهم الاجتماعي كله قال :

ومالي ذنب غير أم نجيبة ... حصان أتت من محصنات النجائب
وآباء صدق حين أعزى وهمة ... علت بي على هام النجوم الثواقب
ومامنهم إلا مهين رمت به ... أبوة سوء من إماء جلائب
أخو مومس أو صنوها أو حليلها ... فقد حف بالسوءات من كل جانب
ومازال نتن الخيم والأصل مولعا ... ببغضاء أرباب العلا والمناقب

ثم يعود إلى فخره لكنه هذه المرة يقرنه بشكاته وندمه على المدح الذي مدحهم به، ويزيد فيحتقرهم ويفحش في هجائه لهم ويتهددهم بقوله :

رويدا بني المستفرمات فغائب ... وعدتكم إنجازه غير غائب
فلست ابن أم المجد إن لم تزركم ... مسومة بين القنا والقواضب
بضرب ينسي الكلب منكم هريره ... ويتركه يضغو ضغاء الثعالب

ويختم بالأبيات من ٧٧ إلى ٧٩ مفضلاً جوار الذئاب على جوارهم وداعياً عليهم قال :

وددت وقد جاورتهم أن منزلي ... بحيث ثوت غبس الذئاب السواغب
فإن الذئاب الطلس أندى أناملا ... وأكفى وأوفى ذمة للمصاحب

---

(٣) الخزر : النظر بلحظ العين، والمآلي : جمع مؤلاة وهي الخرقة التي تمكسها المرأة عند النوح.

فما زال ناديهم عجاجا ومالهم رجاجا ووادیهم أجاج المشارب[٤]

(٤) القصيدة ١٩ ص ١٣٢ : مطلعها شكوى منه ومن مهره وفخر بأمه وتصحيح لصورته في نظر غيره قال :

إلام انتظاري أنجم النحس والسعد وحتام صمتي لا أعيد ولا أبدى
لقد مل جنبى مضجعى من إقامتى ومل حسامى من مجاورة الغمد
ولج نجيبى في الحنين تشوقاً إلى الرحل والأنساع والبيد والوخد
وأقبل بالتصهال مهرى يقول لى أأبقى كذا لا في طراد ولا طرد
أمثلى من يعطى مقاليد أمره ويرضى بأن يُجدى عليه ولا يجدى
إذاً لم تلدنى حاصن وائلية مقابلة الآباء منجبة الولد
خئولتها للحوفزان وتنتمي إلى الملك الوهاب مسلمة الجعدى[٥]
يظن نحولى ذو السفاهة والغبا غراما بهند واشتياقا إلى دعد
ولم يدر أنى ماجد شف جسمه لقاء هموم خيلها أبداً تردى

وينـدم على مدح بعض من مدحهم، ثم يدير حواراً بينه وبين صاحبة له لعلها زوجته قال:

وقائلة هون عليك فإنها متاع قليل والسلامة في الزهد
فقد تملك الأنثى وقد يلثم الحصى ويتبع الأغوى ويسجد للقرد
فقلت لها: عنى إليك فقلما يعيش الفتى حتى يوسد في اللحد
أبى الله لى والسؤددان بأن أُرى بأرض بها تعدو الكلاب على الأسد

---

(٤) العجاج : رعاع الناس، والرجاج : مهازيل الغنم وضعفاء الإبل والأجاج : الماء المالح لا يساغ.

(٥) النسع : سيرينسج عريضا لتشد به الرحال، والوخد للبعير الإسراع، أو أن يرمى بقوائمه كمشى النعام.
مقابلة الآباء: أى يتساوى آباؤها من جهة الأب والأم في النسب والشرف.
والحوفزان: هو الحارث بن شريك بن عمر من بكر بن وائل، ذكره أبو بكر الصديق في قوله «فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسها».

ويبدو عصاميا في قوله:

فإن لم يكن لي ناصر من بنى أبى ... فحزمى وعزمى يغنيانى عن الحشد
وإن يدرك العليا همام بقومه ... فنفسى تناجينى بإدراكها وحدى

ويتوجع لقومه في حالة موته، إذ من سيحيى مكارمهم بعده، ثم يختم مفتخراً بنفسه في الأبيات من ٥٦ إلى ٦٠ وهي نهاية القصيدة قال:

ستعلم هند أننى خير قومها ... وأنى الفتى المرجو للحل والعقد
وأن أيادى القوم أبسطها يدى ... وأن زناد الحىّ أثقبها زندى

٥ ـ **القصيدة ٢١ ص ١٤٩** وهي كالقصيدة السابقة في أن مطلعها شكوى، وقد تخللتها الشكوى، وانتهت به إلى إزماعه الرحلة وإلى هجاء قومه، وهذه الأغراض (الشكوى والعزم على الرحلة وهجاء قومه) هي الأغراض الرئيسية في القصيدة، أما الأغراض الفرعية فكثيرة منها الحكمة والأسوة الحسنة بالرسول عليه السلام والنقد السياسي وتأصيل اعتزازه بقيمه الذاتية وبمثله العليا قال:

إلام أرجى ضرعيش منكدا ... وأغضى على الأقذاء جفنا مسهدا
وكم أعد النفس المنى ثم كلما ... أتى موعد بالخلف جددت موعدا
إذا قلت يأتى في غد ما يسرنى ... وجاء غد قال: اتئد وانتظر غدا
فهلا انقضت تبالها من مواعد ... كمثل نعاس الكلب مازال سرمدا
وشر بلاد الله أرض ترى بها ... كليباً مسودا وابن آوى مسودا
وأشقى بنى الدنيا كريم يسوسه ... لئيم إذا ما نال شبعا تمردا

وقال مخاطبا نفسه:

فياذا العلا والمجد والمنصب الذى ... سما فعلا حتى على النجم أتأدا
أعيذك أن ترضى المقام ببلدة ... تراها وما تحوى لأعدائها سدى
يدبرها أوباش قوم تنكبوا ... عن الرشد حتى خلت ذا الغىّ أرشدا

إذا رضى الأعداء منهم مهانةً ... بأخذ الجزى عدوه نصرا مؤيدا
أقاموا الأغاني بالمغاني وضيعوا ... كرام المساعي والثناء المخلدا
فلو أحسن التصفيق والرقص فيهم ... ورفع المثاني والغناء المهودا
لعشت عزيزا فيهم ولما اجتروا ... يمدوا إلىَّ الضيم باعا ولا يدا
ولكنني لم أرض ذاك صيانة ... لعرضي أن أعطى المعادين مقودا
وأكبرت نفسي أن أجالس قينةً ... ودفا ومزماراً وعودا وأعبدا
وأن أجعل الأنذال حزبا وشيعةً ... ولو جار فىَّ الدهر ما شاء واعتدى
فلست ببدع في الكرام وهذه ... سبيل ذوى الإفضال والبأس والندى

٦ ـ **القصيدة ٢٥ ص ١٧٦** عرضنا مضمون هذه القصيدة في الفصل الأول وأوردنا به كثيراً من أبياتها، ونكتفي لهذا بالكلام عنها دون تمثيل منها، بدأها الشاعر ضجرا بنفسه ومتبرما من سوء الأحوال في بلاده، ثم ما لبث أن تحول إلى ثائر ينشد من يساعده على التخلص من الحكام الفاسدين أعداء الشعب، وإذا كان قبل اليوم يبكي همومه الخاصة به، فإنه اليوم صار يبكي هموم وطنه، وتتوزع أبيات القصيدة بعد ذلك على الشكوى والفخر والحماسة، وهو يحجل معظم أغراضه بأبيات حكمية.

٧ ـ **القصيدة ٣٧ ص٢٣٤** مطلعها حماسي كله سخط على قومه وقد بلغ به غضبه عليهم أن طلب التحول عنهم ولو إلى سقر، إنه يتحسر لتقضي عمره بين أناس يكرهونه، وهو لهذا يهجوهم ويفتخر عليهم ويتوعدهم قال:

ماذا بنا في طلاب العز ننتظر ... بأى عذر إلى العلياء نعتذر
لا الزندكاب ولا الآباء مقرفة ... ولا بباعك عن باع العلا قصر
فاطلب لنفسك عن دار القلى بدلاً ... إن جنة الخلد فاتت لم تفت سقر
واحسرتا لتقضى العمر في نفر ... هم الشياطين لولا النطق والصور
بليت منهم بأجلاف سواسية ... قد صعدوا بزمام اللؤم وانحدروا

خـزر العيـون إذا أبصـارهم نـظرت ... شـخصى فـلازال عنهـا ذلـك الخـزر
وغـير معنـتهـم لـومـا فـأظـلمـهـم ... الـشمس يـزور عـن إدراكـهـا الـبصر
إنى امـرؤ إن كشرت النـاب عن غضب ... لا الخط يمـنـع مـن بـأسى ولا هـجـر
أنمى إلى الـذروة الـعـليـا وتـنـجـبـنى ... أمـا جـد لـيس في عـيـدانها خـور

ويستمر في فخره بآبائه إلى آخر القصيدة.

٨ ـ **القصيدة ٣٩ ص٢٥٢** يحث الشاعـر في مطلعهـا نفسه عـلى مغادرة البحرين، ولا عجب، فقد بلغ به اليأس من إصلاحها حدا جعله يوليها ظهره، وهو فيها ينتقل من هجاء إلى حماسـة ومن حماسـة إلى هجاء وشكوى وفخر، وقد صار من ضيقه بوطنه يفضل طلح نجد على بساتين الأحساء، وعباء وادى طيء على المروزي المجلوب إلى القطيف، ولحوم الضب والجرذان في أي مكان عـلى أجود أصنـاف السمك في أوال قال:

فخـير لعمـرى من بسـاتـين مـرغم ... عـلى ذى المجـارى طلح نجـد وشـوعهـا
ومـن مـروزى بـالـقـطـيـف ولا لسٍ ... عـبـاء بـوادى طـيـىء ونـطوعـهـا
ومـن لحـم صـاف في أوال وكـنـعـد ... ضـبـاب وجـرذان كثـير خـدوعـهـا

ويعود إلى يأسه من البحرين في قوله:

عفـاء عـلى البحـرين لـو قيـل أينعت ... زنـابـير واديهـا وجـادت زروعـهـا
فـهـل ذاك إلا لـلـعـدو وعـصـبـة ... سيشقى بهـا متبـوعـهـا وتبـوعـهـا

ويختم عاتبا مفتخراً قال:

فـإن رضيتْ قـومـى بنـقصى فـلى غنى ... بـنفسى وجـلاب المـنـايـا دفـوعـهـا
يـشـيـعـنى قـلب إلى الـعـز تـائـق ... ونفس إلى العـليـا شـديـد نـزوعهـا
عـلىَّ لهـا سعى الـكـرام فـإن أمت ... فـوهـابهـا سـلابهـا ونـزوعـهـا

(٩) القصيـدة ٤١ ص ٢٦٦ :

هـذه القصيدة من روائـع ابن المقرب، وقـد استفـدنـا منهـا ونحن نـرصد تفكـيره السياسي، مـطلعها حمـاسي، تقلد فيه سيف قـطرى بن الفجاءة بعد أن تقمص شخصيته وهو ينظم عينيته :
أقول لها وقد طارت شعاعاً.

ونجد فيها اقتباسا منها هو البيت ١٥ :

فـما لـلمـرء خـير في حـياة إذا مـاعـد مـن سـقط المـتـاع

ويبدو ابن المقرب فيها مؤهلا لملاقاة الملوك ـ كل الملموك ـ يكـايلها الردى صاعاً بصاع، ولاعجب، فهو لم يعد يخشى الموت ولا الفقر، كـما لم يعـد حـريصـا عـلى البقـاء في وطنـه، وينتقـل من حمـاسته إلى نقـده الجماعي، وإلى فخره الذاتى، ويدفعه كبت قومـه له وتضييقهم عليـه إلى اتخـاذ موقف إيجـابى يتمثل في مـطالبته بحقـه وحق فرع جـده ضبـار في الحكم، مبرراً ذلك بحسبه ونسبه وبسوء الأحوال السياسية في بلاده.

سـأطـلب حـق آبـائـى وحـقى ولـو مـن بـين أنـيـاب الأفـاعـي
أنـا ابـن الـسـابـقـين إلى المـعـالـى وأربـاب المـمـالـك والمـسـاعـي
حـللنـا مـن ربـيـعـة في ذراهـا وجـاوزنـا الـفـروع إلى الـفـراع
بـنـا يـستـنسر الـعـصـفـورتـيـهـا وتخشى الأسـد صـولات الـضـبـاع
وإريس جـعـلنـاه رئـيـسـا يـسـوم الـنـاس غـير المـسـتـطـاع

والدرس الذي يجب أن يتعلمه غاصبو حقه وحق آل ضبار هو:

فـلا يـسـتـغـرقـن الحـمـق قـومـا فكـم مـن رفـعـة سـبـب اتـضـاع
فـإن سـيـوفـنـا مـا زال فـيـهـا شـفـاء لـلرءوس مـن الـصـداع

(١٠) القصيـدة ٤٢ ص ٢٧٢ :

والشاعر في مطلعها غير راض عن نفسه، لأنـه خدعهـا عن حقيقة

قومه، لقد تعب من العتب عليهم، ومن تلمس الأعذار لهم، وها هو ذا يحلف على أنه سيهجرهم، وعلى أنه سيحقق مجد نفسه بنفسه، غير ملتفت إلى مايتهدده من خطر، فمثله لاينتظر منه غير ذلك.

آليت أنفك من حل ومرتحل ... أو أن تقول لى الآمال خذودع
لأركبن من الأهوال أعظمها ... هولا وما يحفظ الرحمن لم يضع

لكنه لايلبث أن يطامن من تحليقه بشكاته التي ثلمت مجده، ونقضت غزله قال:

كم عاين الدهر منى صبر مكتهل ... إذ ليس يوجد صبر العود في الجذع
وكم سقانى من كأس على ظمأ ... أمر في الطعم من صاب ومن سلع
سل الأخلاء عنى هل صحبتهم ... يوماً من الدهر إلا والوفاء معى
لقد تفكرت في شأنى وشأنهم ... فبان لى أن ذنبى عندهم ورعى

وهو يرفض الظلم الواقع عليه ويفتخر بذلك في قوله:

يأبى لى المجد أن أرضى بغير رضا ... ورأي ماض وعزم غير مفترع
وكل أرض إذا يممتها وطنى ... وكل قوم إذا صاحبتهم شيعى
ولى من الفضل أسناه وأشرفه ... وهمة جاوزت بى كل مرتفع
المجد أعتق والآداب بارعة ... وذروة المجد مصطافي ومرتبعى
لى النباهة طبع قد عرفت به ... وكل معنى من الألفاظ مخترعى

(١١) القصيدة ٤٨ ص ٣١٦:

مطلعها ماسميناه من قبل (شبه غزل) ويمكن أن نسميه هذه المرة (تخطى الغزل) فقد تخطاه إلى الفخر بعد بيتى المطلع، وما هو إلا أن يشرع في الفخر حتى ينصرف عنه إلى الهجاء المقذع قال:

أبت لى وصال البيض همات ماجد ... بعيد الحمايا غير نكس ولا وغل
غيور على العلياء أن يبتنى بها ... رزايا أناس ماتمروما تحلى

سـواسـيـة لافى مـعـد مـن الـذرى ولافى بنى قحطان في الكـاهـل العبـل

ومن الهجاء إلى الحماسة راجيا أن يكون قومه كما ينبغى لهم لا ماهم عليه الآن من مذلـة وهوان، وممن؟ من عبيـدهم، ويمضى فينقدهم بـل يهجوهم، ولا عجب، فقد فاض به الكيـل، وأخذ منـه السخط عليهم مأخذه، وبعد أن يشبعهم لوماً وتقريعا يعود فيحمسهم:

ألا يـالـقـومى من ربيـعـة هـل أرى لكم يـوم بأس يصـدم الجهـل بـالجهـل
إلام تـقـاسـون الهـوان أذلـة وأنـتـم إذا كُـوثـرتـم عـدد الـنـمـل
يسـوقكـم كـرهـا إلى مـايسـوءكـم عـبيـدكـم سـوق الأحيـمـرة الهـزل
فـقبحـا لكـم مـاذا تـعـدون في غـد إذا افتخـر الأقـوام يـا أخلف النسـل
فعـزمـا فمـوت العـز عنـد ذوي النهى حيـاة وعيش الـذل مـوت بـلا غسـل

ويذكره عاقل بما جرى لـه، وما جرى له شيء مؤثـر

وذي إربـة أهـدى لى الـلوم نـاصحـا وذو اللب أحيـانـا يـريـع إلى العـذل
يـقـول بتـأنيب أأنسيت مـا جـرى عليـك من الأغـلال والسجن والكبـل
وإحـراز مـا أوتـيتـه واكـتـسـبتـه عـلى غـير ذنب من فـراخ ومن نخـل
وسلب الحسـان المكـرمـات تهـاونـا بهن ودمع الأعين النجـل كـالـوبـل

ويرد عليه الشاعر بأنه منتظر يوماً يديـل فيه لنفسـه ويأخـذ ثأره من قومه:

فـقلت لـه أربـع عـلىَّ وفي الحـشـا لـوافـح أحقـاد مـراجلهـا تـغلـى
فـمـاولـدتـنى حـاصـن حـنـفـيـة عبيـديـة تسمـو إلى الحسب الجـزل
ولاعـرفـت في المـروتـين أبـوتـى ولا كنت أهـدى السابقين إلى الفضـل
لئـن أنـا لم أغش الـلئـام بـوقـعـة يشيب لهـا من هـولهـا مفـرق الـطفـل

والقصيدة خمسة وسبعون بيتا.

١٢ ـ **القصيدة ٥٤ ص٣٦٤** مطلعها عزم على الرحيل، وتبرير هذا العزم هجاء جماعي تعقبه شكوى، يعقبها عتب وحكمة وفخر ثم دعاء بأن يفك الله كربه أو يقبضه، وستأتي هذه القصيدة كاملةً في الفصل الرابع فلا داعي لإيراد شيء منها هنا.

١٣ ـ **القصيدة ٥٦ ص٣٧٨** نظم الشاعر هذه القصيدة وهو في بغداد، وقد جاءت لذلك أشبه برسالة منه إلى قومه في شخص من سماها أميمة وناداها فرخمها على لغة من لا ينتظر، ونفهم من حديثه إليها أنها كانت ترغبه في العودة إلى وطنه وإقامته به، أما هو فقد تأبى عليها وبذل جهداً كبيراً في إقناعها بوجهة نظره مبطنا ذلك بشيء غير قليل من الحكمة، وقد وضحت قصيدته أو رسالته طبيعته وأبانت عن مذهبه في الحياة، وهو مذهب الشموخ والتحدي، ونراه يكشف عن جهوده التي بذلها في إصلاح قومه، وعن أسفه لأن هذه الجهود الخيرة قد باءت بالفشل، وبرغم اغترابه وبعده عن وطنه فإنه لم يشعر بالوحشة، لماذا؟ لأن البعد مع الأمان والحب آنس للنفس من القرب مع الخوف والبغض، ولأنه قد تبدل منهم خير ما بدل كما قال.

وإدلاله بنفسه على قدر فخره وعتبه، وهما رد فعل لخيبة أمله في قومه، وابن المقرب سعيد جداً بتقدير الأفاضل من أهل بغداد له، وعلى رأسهم في ذلك أبو البقاء العكبرى.

والقصيدة دفقة شعورية قوية وصادقة، وهي من القصائد التي تشد قارئها إليها، وتؤثر فيه بصياغتها ومضمونها، وبوحدتها العضوية المتبدية في وحدة موضوعها، وفي ثبات المناخ النفسي للشاعر عند نظمها، ولا عجب، فهي رسالة أولا، ورد على عرض ثانيا، ومناقشة في موضوع محدد ثالثا وأخيراً.

وهذه أبيات منها تمثل بعض خواطرها:

أميم لا تنكرى حلى ومرتحلى ... إن الفتى لم يزل كلا على الإبل
وسائلى وارد الركبان عن خبرى ... ينبئك أنى عين الماجد البطل
لا أشرب الماء ما لم يصف مورده ... ولا أقول لمعوج الوصال صل
تكلفيني مقاما بين أظهركم ... وليس يبدو فرند السيف في الخلل
داويتكم جاهداً لو أن داءكم ... مما يداوى بغير البيض والأسل
أسأتم وظننتم لا أبا لكم ... أن لا أحس بطعم الصاب في العسل
كم قد غرست من الإحسان عندكم ... لو يثمر الغرس في صفواء من جبل
لا تنقمون على من لا يبيت لكم ... منه سوام ولا عرض على وجل
يُزان ناديكم يوم الخصام به ... كما تزان بيوت الشعر بالمثل
يكسوكم كل يوم من محاسنه ... ومجده حللا أبهى من الحلل
ولم يزل همه تشييد مجدكم ... يود لو أنه أو فى على زحل
ماضركم لو وفيتم فالكريم إذا ... حال اللئيم وفي طبعا ولم يحل
أليس بيتكم في العز مركزه ... بيتى فما كان من فخر فمن قبلى
كم ينفق الغش فيكم والنفاق وكم ... لا ترغبون إلى نصح ولا عذل
وإن عكفتم على من لاخلاق له ... دونى فقد عكفت قوم على هبل

(١٤) **القصيدة ٦٨ ص ٤٥٦** : قدم جامع الديوان بين يدى هذه القصيدة مناسبتها التي قيلت فيها قال: وقال أيضاً في غرض له في زمان أبى القاسم ويحض الأمير أبا القاسم بن محمد وأولاده وجميع قبائل الأحساء نزاريها وقحطانيها على الحرب ويرغبهم في الصبر ويقبح عليهم الخضوع للعدو، وكان أهل الأحساء قد قتلوا رجلا من البدو من العقيلات يقال له شكر بن مفرح بن حجاب بن عقيل، وكان قد أكثر التلصص والفساد والتعرض للمساكين والضعفاء فإن وجد عند أحد منهم حماراً عقره، أو ثوباً سلبه، ولا يرتد عن حقير الأشياء.

ففي بعض تلصصه وتعرضه طلعت عليه خيل أهل البلد فقتلوه، فقام أهله على الأمير أبي القاسم وطالبوه بديته فلان لهم ووافقهم فأنكر أهل الأحساء عليه ذلك وقالوا : هذا شيء لا نقره ولا نصبر عليه، فحينئذ قامت الحرب على ساقها، ومن الأسباب النحسة أن قوماً من أهل البلد دبروا تدبيراً قوى عليهم البدو فدارت الدائرة على أهل البلد، وهذه القصيدة قالها عندما أرادوا تسليم دية شكر.

ونفهم مما تقدم أن القصيدة من شعر الحماسة وأنها تمت بصلة إلى السياسة، فهي حث على الحرب والصبر عليها ونقد لسلوك معين سلكه الحاكم أبو القاسم في حدث من الأحداث الاجتماعية، وقع على عهده وتصرف فيه تصرف المغلوب على أمره، ولم يكن ابن المقرب ليسكت على ذلك وهو من عهدناه معارضاً قوى الشكيمة لا يرضى الدنية ولا يقبل الهزيمة.

بدأ قصيدته متململاً ثائراً يدعو إلى الحرب ونبذ المسالمة قال :

إلى كم مدارة العدى واحترامها ... وكم يعترينا ضيمها واهتضامها
أما حان يافرعى ربيعة أن أرى ... بنات الوغى يعلو الروابي قتامها
ردوا الحرب ورد الظامئات حياضها ... خوامس يغتال الفصال إزدحامها
وخوضوا لظاها باقتحام فإنما ... يكشف غماء الحروب اقتحامها

والعجب أن ابن المقرب ـ وهو شاعر ـ لا يكتفي بحث قومه على الحرب بل يزيد فيعلمهم كيف تكون الحرب، ويمضي فيوازن بين موقف الدولة من الملوك المقتولين كماجد بن محمد وابن شكر وأبي ماجد، وهو موقف الإهمال لهم والسكوت على قتلهم، وموقفها من قتل هذا الصعلوك قاطع الطريق وعاقر الحمير، والحمير لا تؤكل، فقد كان

الرجل شريراً يمارس الشر للشر ويتخذه غاية ووسيلة، نفهم أن يعقر شاة أو ناقة ليطعم ويطعم أما أن يعقر حماراً فلماذا ؟ !

شخص مثل هذا كان يجب أن ينفذ فيه حكم الله وهو تقطيع يديه ورجليه من خلاف، وإذا كان الحاكم لم يفعل ذلك، فقد فعله جماعة من أهل الأحساء ولو كان الحاكم حاكماً حقاً لكافأ أفراد هذه الجماعة، لأنهم خلصوا العباد والبلاد من ذلك العابث العائث في الأرض فساداً فهذا ماكان يجب أن يكون، وقد عدل عنه الأمير أبو القاسم إلى عزمه على دفع ديته لقومه، ودفع هذا الموقف المتخاذل شاعرنا إلى أن يندد به وبموقف عقيل قال :

سلوا عن ملوك منكم هل أفادها ... قعود عقيل بعدها أو قيامها
وهل دفعت عن ماجد بن محمد ... وقد كان منه حلها وحرامها
وهل طلبت ثأر ابن شكر وهل حمى ... أبا ماجدٍ خطيها وحسامها
وهل عن غرير طاعنت وبه احتوت ... مناها، وبالبحرين جار احتكامها
بذلنا لها من مالنا كل صهوة ... يشد على مثل القناة حزامها
وصنا بأنواع الحرير جسومها ... وملبسنا صوف الرعينا وخامها
ورحنا ودخن القريتين طعامنا ... وبرهما المحض المصفى طعامها
وكل نفيس كان حشو قصورنا ... عدلناه عنا فاحتوته خيامها
ألا يالقومي من على بن عدل ... وللخطب يدعى أسدها لانعامها
أترضون ذا النقص الذي ماوراءه ... وأنتم إذا صالت معد سطامها
ويودى قتيل كان في كل ساعة ... يجمع أو باشا كثيرٌ طغامها
ويقطع طرق المسلمين نهاره ... علانا ولا يثنيه عنها ظلامها
فإن غضبت فيها عقيل فأنتم ... بنو الحرب إذ يذكى لظاها ضرامها
فواسو أتا إن كان يودى قتيلها ... على ذا ويدنى في حمانا مقامها
ويقتل بالغدر الصريح كرامنا ... فتلغى لقد خبنا وفازت سهامها

أعـيـذكـم أن تـقـبـلوا ذا وأنـتـم ذؤابـة أفصى كـلهـا وسـنـامـهـا[٦]

والقصيدة ثلاثة وثمانون بيتا.

(١٥) **القصيدة ٧٠ ص ٤٤٦** : يتردد الشاعر في هذه القصيدة بين النصح والشكوى العامة، ثم بين النصح والشكوى الخاصة، ويختم بنقد الحكام في وطنه ويعقد العزم على ترك هذا الوطن : بدأ فنصح بأن يكون الإنسان كيسا لا يكتفي بالأماني بل يتذرع بالقوة.

ألم يـأن أن تـنسى عسى ولـعـلما وتـترك لـيـتـا لـلمـعـنى وربمـا
فـقم غـير وان واخـلع العـجـز وادرع قميـصـاً من الـظلماء بـالـنجم معـلما
وصـاحب لأحـداث الـزمـان ثـلاثـة حسـامـا ونضـوا والقـطيـع المحـزمـا[٧]

ومن النصح إلى الشكوى العامة قال :

فـمـن مـبـلغ قـومي عـلى أن دارهـا قـريـب ولـكـن لم أجـد مـتـكـلما
بنى عمنـا كم يضبع الـرحم شـاكيـاً إليَّ وكـم يـبـدى لـدى الـتـظلما[٨]

ومن الشكوى العامة إلى النصح مرة أخرى :

بـنى عـمـنـا لا تـظلمـوا الحق أهـله ولا تفتـحـوا بـابـا إلى الشر لهجـما[٩]

---

(٦) الرعينا : تصغير الرعناء وهي البصرة سميت بذلك لتقلب جوها، والدخن : حب صغير حابس للطبع، أما القريتان فهما الأحساء والقطيف، والسطام حد السيف، وحديدة تقلب بها النار، وأفصى هو أفصى بن عبد القيس أبو شن ولكيز.

(٧) النضو: البعير السريع الدقيق الجسم من السير، والقطيع. السوط المتقطع طرفه، والمحزم : المشدود وسطه بحبل.

(٨) ضبع إليه. مد يده إليه بالشكاية.

(٩) تلهجم الطريق : استبان وأثر فيه السابلة.

ومن النصح إلى الشكوى الخاصة به في قوله :

فكم تمضع الأيام لحمى وأنتم ... نيوب لها تستهلك اللحم والدما
وجرعت في أيامكم بأكفكم ... كئوساً أرتنى العيش صابا وعلقما

ثم من الشكوى الخاصة به إلى نقد حكام وطنه وعزمه لذلك على فراقهم قال :

هدمتم صياصى قومكم وبنيتم ... صياصي قوم حقها أن تهدما
سأرحل لا مستوحشا لفراقكم ... ولا أسفا يوما ولا متندما

والقصيدة تسعة وخمسون بيتا.

(١٦) **القصيدة ٨٠ ص ٥٢٦** : قال الشاعر هذه القصيدة وهو في بغداد سنة ٦١٣ هـ يفتخر فيها بآبائه وأهل بيته ويذكر طرفا من أيامهم وفضائلهم، وهي أطول قصيدة في ديوانه فعدتها خمسون ومائة بيت، هي ملحمة إذن، وقد وقف عندها دارسوه بحسبانها مثلا لنزعته التاريخية في شعره، والحقيقة أن هذه النزعة تسود شعره كله، فهو شاعر الدولة العيونية، ومؤرخها في شعره بعامة وفي هذه القصيدة بخاصة، وقد حجلها بكثير من أبيات الحكمة، فبيتها الأول دعوة إلى الترحال بل أمر به، وبيتها الثاني مناصفة بين النهى عن التلفت إلى الأهل والوطن، والحكمة، أما الأبيات من ٣ إلى ٢٦ فقد جاءت خالصة للحكمة قال :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما ... وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما
ولا تلفت إلى أهل ولا وطن ... فالحر يرحل عن دار الأذى كرما
كم رحلة وهبت عزاً تدين له ... شوش الرجال وكم قد أورثت نعما
وكم إقامة مغرور له جلبت ... حتفا وساقت إلى ساحاته النقما
واسمع ولا تلغ ما أنشأت من حكم ... فذو الحجا لم يزل يستنبط الحكما

وقد أقام البيت ٢٧ ومابعده إلى آخر القصيدة على حوار بينه وبين من عبر عنه بقوله :

وقائل قال لى إذ راقه أدبى ... والمرء قد ربما أخطا وماعلما
وذاك بعد سؤال منه عن خبرى ... والصدق من شيمتى لو أورث البكما
هلا امتدحت رجالاً بالعراق لهم ... مال ركام وجود يطرد العدما

لم يقل محاوره غير ماجاء على لسانه في البيت الثالث، أما هو فقد ردَّ عليه ببقية القصيدة واصفا حالته النفسية، ومفتخراً بنفسه وبقومه قال :

فجاشت النفس غبناً بعد أن شرقت ... عيناى بالدمع حتى فاض وانسجما
فقلت كلا وهل مثلى يليق به ... مدح الرجال فكم جرح قد التأما
إنى على حادثات الدهر ذوجلد ... تجلو الحوادث منى صارماً خذما
ولست أول ذى مجد له ظلمت ... صروف أيامه العوصاء فانظلما
يأبى لى الشرف العالىُ منصبه ... أن أورد النفس حرصاً مورداً وخما
أنا ابن أركان بيت المجد لا كذبا ... والنازلين ذرى العلياء والقمما
قومي هم القوم في بأس وفي كرم ... إن ادعى غيرهم مافيهم وهما
في الجاهلية سدنا كل ذى شرف ... بالمأثرات وسدنا العرب والعجما
حتى أتى الله بالإسلام وافتتحت ... كل البلاد وأضحت للأنام سما
وفضل آخرنا عن فضل أولنا ... يغنى ولكن بحرا هاج فالتطما

ويجمل مناقب قومه، وكأن بحرا هاج فالتطم كما قال حتى يأتي إلى القرامطة في البيت ٤٣ :

سل القرامط من شظى جماجمهم ... فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

فيذكر مساوئهم ودور جده عبد الله في القضاء عليهم، ومابعد ذلك تسجيل لبطولات العيونيين في الحرب، ولمآثرهم في السلم، تغلب البطولات على الأبيات من ٥١ إلى ٩٧، وتغلب المآثر على الأبيات من ٩٨ إلى آخر القصيدة، وقد بدأ المآثر هكذا :

منـا الـذي جـاد بـالنفس الخـطيرة في عـز العشيرة حتى اسـترحـل العجـما

مشيراً إلى على بن عبد الله :ـ

منـا الـذي قـام سلطان العـراق لـه جـلالـة والمـدى والبعـد بـينهـما
منـا الـذي حـاز من ثـاج إلى قـطر وصـير الرمـل من مـال العـدو حمى

مشيراً إلى الفضل بن عبد الله :ـ

منـا الـذي حـين عـد الألف خـازنـه لضيفـه قـال : ضـاعفهـا أرى أمـما
منـا الـذي من نـداه مـات عـامـله غـما وأصـبـح في الأمـوات مخـترمـا

مشيراً إلى أبى سنان محمد بن الفضل بن عبد الله .

وقد تكررت (منا) في صدور أربعة وعشرين بيتاً تخللت الأبيات من ٩٧ إلى ١٤٤، وحين ختم ببيتي المقطع ألمح إلى أنه لم يذكر من فضله وفضل آبائه إلا أقل القليل وإلى أن إحصاء ذلك مستحيل قال :

أبيـاتنـا لـذوى الآمـال منتجـع إذا الـزمـان يـرى كـالعـير أو عـرمـا
ومـاعـددت عـشيـراً من منـاقبنـا ومن يعـد ثـرى يـبرين مـرتكـما[١٠]

(١٧) القصيدة ٩١ ص ٦١٠ :ـ

وهذه القصيدة كانت لها ـ كبعض أخواتها ـ حادثة خاصة أثارت الشاعر فأرسلها رأياً له وشكوى وفخراً يجتر فيه وبه مجد العيونيين السابقين، ونراه يركز على بطانة السوء التى أحاطت بالأمير أبى القاسم تظهر الود وتضمر الكيد، وكم للعيونيين في الماضي والحاضر من أياد على آبائهم وعليهم، لكنهم أهل شر ومعاول هدم، ولو كانوا خيرين مخلصين لقابلوا الإحسان بالشكر، ولنصحوا لله ولرسوله ولأئمة

(١٠) العير : الحمار. عرما : فسد، ويبرين : رمل يوصف بالكثرة بينه وبين الأحساء وهجر مرحلتان.

المسلمين وعامتم، والحادثة التي جاءت القصيدة ردَّ فعل لها هى « أن أبا القاسم مسعود بن محمد بن على بن عبد الله قدَّم رجالاً من أهل البلد من غير نسبه وألقى إليهم بالمقاليد في جميع أموره وأمور بلده ورعيته ظنا منه بالنصح له ولأهل بيته منهم، وكان رجلاً سليم القلب بعيد الحس عازب الفكر عظيم الركون إلى أولئك النفر، وكانوا يعملون في هلاك دولته وقلع آثار أهل بيته وهو يظنهم بخلاف ذلك، وكان لا يسمع فيهم لأحد قولا، وغير قولهم لا يسمع ولا يفعل إلا مايرونه، ثم إن أولئك النفر حادثوا مشائخ العرب الذين حضروا البحرين في حرب البلد، وكفلوا لهم جميع ما أرادوه وما يطلبونه من بساتين الأحساء، وغرض أصحاب أبى القاسم هلاك ملك بنى إبراهيم الذين هم رهط الأمير أبى القاسم وهو لا يشعر، فحارب من ذكرنا البلد حرباً أمسكوا فيه الثمار وحالوا بينها وبين أهلها، فعند ذلك تحدث جلساؤه وقالوا : اعلم أن البلد لا تحتمل هذه الحرب، والرأى صلح العرب، فقال: الأمر إليكم، فأرسلوا للعرب في الصلح وقرروه على ذهب معلوم الوزن مبلغاً يعجز أهل البلد عن تسليمه في ذلك الوقت، وأسروا للعرب أن اطلبوا من الأمير أملاكاً عن ذلك المعجوز عنه رهنا يكون عندكم فطلبوا ذلك، فاستشار الجلساء المذكورين، فأشاروا عليه بتمام مطلوبهم وتكون الرهائن من أملاك أهل بيته فقبل منهم وأجاب ذلك فصاروا يطلبون ماشاءوا من أملاك أولى القربى، فيتم لهم ماطلبوه بمواطأة من الجلساء، فلم يتركوا لآل إبراهيم ملكاً يعرف باسم أو يحد بحد، وكان على بن المقرب في القطيف غير حاضر في الأحساء فلما بلغه ذلك رجع إلى الأحساء وعاتب أبا القاسم على ذلك فأنكره وحلف أنه لم يفعله، فقال : ماأنت إلا فعلته إلا أنك غير متعمد بل خدع من الجلساء، فخرج من عنده وهو يقول :

إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم

وأنشأ هذه القصيدة (١١) وهى أنين جماعى وتنبوء بمستقبل مظلم وتحليل فلسفي لظاهرتي الغني والفقر، فيه من التهكم والسخرية أكثر مما فيه من الجد والمنطق، وفي موازنة منه بين ماضي العيونيين وحاضرهم نجده يمجد الماضي ويفخر به، وإذ يأتي إلى الحاضر ينقده ويتوعد من كان سببا فيه من ملك فاسد وحاشية غاشة منافقة تسعى في ثل مجد العيونيين وحطم شأفتهم، هى مع الملك في الظاهر وضده في الباطن، ولأن الشاعر مدرك لذلك ومتفهم له بل متيقن منه كان ألمه من الواقع المر أوجع وإحساسه بالكارثة المطبقة أنكى وأشد، والأبيات التالية تعطى أبعاد الأزمة وتصور الحالة النفسية لشعب البحرين وقت نظم القصيدة التي جاءت في اثنين وستين بيتاً منها :

بعض الذي نالنا يادهر يكفينا ... فامننن ببقيا وأودعها يداً فينا
إن كان شأنك إرضاء العدو بنا ... فدون هذا به يرضى معادينا
فالحمد لله حمداً لانفاد له ... إذ لم يكن ضعفنا إلا بأيدينا
خافت بنو عمنا أمراً يعاجلنا ... من قبل إلحاق تالينا بماضينا
واستيقنت أن كل الملك منتزع ... ولو تمكث في أربابه حينا
فلم تدع لمرج سلب نعمتها ... أرضاً قراحاً بأيدينا ولا لينا
ولم تزل هذه فينا عنياتها ... حتى تساوى ابن ست وابت ستينا
هذا هو الحزم والرأى السديد فلا ... تظنه القوم زهداً في مغانينا
والفقر في أرضنا خير لصاحبه ... من الغنى والقليل النزر يرضينا
لما يعانيه رب المال من تعسٍ ... في أرضنا لا لأن المال يطغينا
وكم غنى عندنا قد جرَّ داهية ... دهياء تترك فحل القوم عنينا
فانظر أخا العقل والتدبير إنَّ له ... شأنا عظيماً ودونه الدواوينا
لم يهتد المرء كسرى أن يدبره ... وكان أرجحها عقلا وتمكينا

---

(١١) الديوان ص ٦١٠ - ٦١١.

وإذا كانت الأبيات السابقة تمثل قمة السخرية بالحاكم ومخرقة تصرفاته، فإن البيت الآتي يدل على أن العيون كانت مبثوثة من قبل الدولة للتصنت على المعارضين ورصد حركاتهم قال :

وصاحب قال لى والعين تحرسه حينا وينطق بالشكوى أحايينا

إن هذا الصاحب لا يستطيع الشكوى إلا إذا غفلت عنه عيون الحاكم وبطانته، عندئذ يمكنه أن يقول :

أما ترى قومنا فينا وماصنعوا لم يتركوا أملا فينا لراجينا
مالوا علينا مع الأيام واستمعوا فينا أقاويل شانينا وقالينا
من غير شيء سوى قصر بألسننا عما يعاب وطول في عوالينا
وأننا نرد الهيجاء تحسبنا من زأرنا في الوغى جناً مجانينا
نحن الملوك وأرداف الملوك وفي بحبوحة العزِّ شاد العزَّ بانينا

وينفرد ابن المقرب بنفسه فيتمتم من أساه وغمه :

إنا إلى الله لا أرحامنا نفعت ولا طعان حماة القوم يحمينا
يا ضيعة العمر يا خسران صفقتنا يا شؤم حاضرنا الأشقى وبادينا
كنا نخاف انتقال الملك في مضر فمرحبا بك يامِلك اليمانينا
فإن تولت ملوك الروم مابلغت معشار ماصنعت إخواننا فينا

والقصيدة بعد من روائع ابن المقرب، ولاعجب، فهي نفثة مصدور. وآهة مقهور.

(١٨) القصيدة ٩٣ ص ٦٢٣ :-

مطلعها حديث منفعل وجهه إلى اثنين جردهما ليسألهما ويشتمهما ثم ليمجد لهما همته وشجاعته ونجدته وأنفته، جاء ذلك مع لمحات من الحكمة في الأبيات من ١ إلى ٢٠ قال :

عـلام وفـيـم ظـلـما تـلـحـيـانى ذرانى لا أبـا لـكـما ذرانى
فـلى هـمـم إذا جـاشـت أرتـنى قـرى عَـمَّان مـيـلا مـن عُـمان
فـمثـلى من يـقـيـم صَغَى الأعـادى ويـسـتـعـدى عـلى نـوب الـزمـان
ومـاذكـر المـنـيـة عـنـد أمـرٍ أحـاولـه بـثـان مـن عـنـانى
ومـن يـك عمـره المكتـوب تـسـعـاً فـلا يخش المـنـيـة في الـثـمان
وبُـعـدُ عـن أخٍ لأب وأم إذا مـاعـق خـيـر مـن تـدان
عـظـيـم الـنـاس في عـيـنى حـقـيـر إذا بـالـمـقـلة الخـوصـا رآنى
عـلى أن الأراذل حـيـث كـانـوا وإن أُحـرجـت مـنى في أمـان
يـعـاف لحـومهـم كـبـراً حـسـامى ويـأبى سـبـهـم كـرمـاً لـسـانى

وقد أدار الأبيات من ٢١ إلى ٢٧ على لسان صاحبته التي تأخذ في شعره كله موقفاً ثابتاً هو عدم رضاها عن رحلاته.

وقـائـلة وأدمـعـهـا تَـوامٌ تـسـاقـطـهـا كـمـرفض الجـمان
أكـلَّ الـدهـر نـأى واغـتـراب أمـا لـدنـو دارك مـن تـدان
لمـال أو لـعـز أو لـعـلم تـعـانى ويـب غـيرك مـاتـعـانى

أما باقى القصيدة (٢٨ ـ ٧٣) فهو رد على هذه القائلة ضمنه الفخر بنفسه وبأبيه وعمه وجده، ولما أعياه العد أجمل قائلاً :

وكـم لىَ والـدٍ لا عـبـد شـمس يـدانـيـه ولا عـبـد المـدان

ولم ينس الغمز واللمزبل السبَّ المقذع اللاذع لمن كانوا السبب في رحلاته اللاتى يتوجع منها ـ ربما لأول مرة ـ بقوله :

فـآه مـن الـتـفـرق والـتـنـائـى وآه مـن الـتـجـمـع والـتـدانى

لكنه لا يلبث أن يصحح وضع نفسه في مرآة نفسه بقوله :

بـلى إنى رأيـت الـبـعـد أولى ومـا الخـبر المـطوَّح كـالـعـيـان
فـصـبـح سرحـى الأعـداء إن لم أصـبـحـهـا بـيـوم أرونـان

وضافني الردى إن بت ضيفا ... لدى كلب يهر وجردبان
أنا ابن النازلين بكل ثغر ... كفيل بالضراب وبالطعان
نمانى من ربيعة كل قَرْمٍ ... هجان جاء من قرم هجان[١٢]

ويصل إلى ذروة الفخر بقوله :

تعيش الناس ماعشنا بخير ... وتحيا ماحيينا في أمان
فإن نفقد فلا أمل لراج ... يؤمله ولا عون لعان

(١٩) القصيدة ٩٧ ص ٦٥٧ :-

مطلعها إلى البيت الرابع شكوى خالصة وخاصة قال :

أبت نوب الأيام إلا تماديا ... فيا شقوتا ما لليالي وماليا
إذا قلت يوماً حان منها تَلَطُّفٌ ... رأيت رزاياها تسامى كما هيا

ومن الخامس إلى التاسع فخر بنفسه قال:

على أنني الندب الذي يكتفي به ... وبيت علاها بيت عمى وخاليا
ألا ليت شعرى من يقوم لمجدها ... مقامي ويرعى ما لها كنت راعيا

ومن البيت العاشر إلى البيت ٥٥ شكوى عامة ونقد سياسي مع هجاء جماعي وفخر.

أقول وقد طال اهتمامي لفتية ... تسامي إلى غر المعالي تساميا
إلام بنى الأعمام نُسقى نطافها ... أجاجا ويسقى الغير عذبا وصافيا
لقد قدموا هيَّ بنَ بيٍّ وأخروا ... بنى المجد من أيام عاد وعاديا

---

(١٢) الأرونان : الصعب الشديد
والجردبان : هو من أكل ونهم ووضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره، أو من أكل بيمينه ومنع بشماله.
والقرم : السيد
والهجان : الرجل الحسيب.

تلومت قـومى كى يـريعـوا فلم أجـد ... عـلى الـدهـر من قـومى همـامـا مـواتيـا
وطـالـت مـداراتي الـلئـام وإنمـا ... سـفـاه لمثـلى أن يـكـون المـداريـا
وكـيف وعـنـدي عـزمـة عـبـدليـة ... أفـل بـأدنـاهـا الحسـام اليـمانيـا
فـإن تـك قـومى الغـرتـاهت حلومهـا ... بهـا وأطـاعت في الصـديق الأعـاديـا
فـلي سـعـة عن دارهـا حيث لا أرى ... بنـات الكـدادي يحتقـرن المـذاكيـا

وقد ختم بالأبيات من ٥٦ إلى ٦٠ موجها نصحه إلى قومه بقوله:

ألا يـا لـقـومى مـن عـلى بن عـبـدل ... ألم يـأن أن تعصـوا النصيـح المداجيـا
فـإن أنـتـم لم تـقـبـلوهـا نـصـيحـة ... فـلسـت لـكـم فـيـما تحبـون لاحيـا
فكم نـاصح قـد عُـدَّ في النـاس خـائنـا ... وكم غـادر قـد عـد في النـاس وافيـا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الغـــزل

لم يكن ابن المقرب مؤهلا للإكثار من الغزل أو للإجادة فيه بحكم ظروفه الخاصة به، فهو لم يكد يبلغ مبلغ الرجال حتى سجن وصودرت أمواله، ولما وُهب حريته بإطلاق سراحه وجد نفسه مشغولاً باسترداد ثروته، وقد استنفد ذلك جهده طول حياته، واضطره الإخفاق في تحقيقه إلى كسب قوته عن طريق رحلاته المتعددة إلى بغداد وبعض مدن العراق الأخرى حيث الخليفة العباسي وولاته، كما لم يكن مؤهلاً للإكثار من الغزل أو للإجادة فيه لعكوفه على قضايا مجتمعه وقومه ودولته وهي قضايا شائكة ومتشابكة فلَّتْ قوته وأوهنت صحته وجعلت منه إنسانا مكتئباً لا يعرف المرح إلا قليلاً، ولقد كان صادقاً وهو يخبر عن نفسه متحسرا على حاله بقوله:

لم يبق مني من مساورة الأذى ... والضيم غير حشاشة وذماء

وطبيعي ألا تسعفه تلك الحشاشة وهي البقية القليلة من روحه وحيويته بالضرب في فيافي الحب، وألا تمكنه من أدواته خصوصا بعد أن أعلاها بتوظيفها في تحقيق مجده ومجد بلاده، وقد بالغ في ذلك بأن جعله وكده ومحور حياته، يقول في مطلع القصيدة ١١ ص٧٤:

بيني فما أنت من جدى ولا لعبى ... ما لي بشيء سوى العلياء من أرب

ويقول في مطلع القصيدة ٤٨ ص٣١٦:

إليكن عني فانصرفن على مهل ... فلست بمرتاح لهجر ولا وصل
وماذاك عن بغض لكن ولا قلى ... ولكن قلبي عن هواكن في شغل

ويقول بعد بيت المطلع من القصيدة رقم ٦٧ ص٤٤٨ :

ظننتِ نحـو لي واصفـراري من الهـوى ... وذلـك ممـا يـقـتـضيـه الـتـوهـم
لـعمـركِ مـا بي من هـوى غـير أنني ... بغـر المعـالي يـا ابنـة القـوم مغـرم
وقـد عـرضت من دون ذاك فـأحـرضت ... أمـور لهـا يـستـهلك الـلحـم والـدم

وقـد بهتت هذه الأمـور عـلى قلب ابن المقـرب بعـد أن استهلكت لحمـه ودمـه وأدت إلى نحـولـه واصفـراره فجعلتـه غـير متفتـح للحيـاة ولا مبتهج بها، وفي أحيان كثيرة غير راغب فيها، لكن رفضـه للحياة أو زهده فيها لا يعنى خروجه منها، ومادام أنـه على قيـدها فلْيُلَوِّنْهـا بـاللون الذي يعجبه ويوائم طبعه، ولم يعجبه ويوائم طبعـه، إلا اللون الحماسى وهو مزيج من العزم المـاضي والجد الصـارم، ها هـو ذا يقول لصـاحبيه اللذين نصحاه بالترويح عن نفسه :

خليـلى من عمـرو بن غـنم بـن تغـلب ... ذرانى فـإني بـالـعـلاجـد هـائـم
ومـا السمـر عنـدى غـير خـطيـة القنـا ... ومـا البيض عنـدى غـير بيض اللهـازم
ولا تـذكـرا الصهبـاء مـا لم تكن دمـاً ... ولا مسمعـاً مـا لم يكن صـوت صـارم
فـإنى أحـب الشرب في ظـل قـسـطل ... مجـالـسهـم فيـه ظـهـور الـصـلادم
(الديوان ص٥١٢)

لكن ابن المقـرب بعد ذلـك كله وبرغم ذلـك كله شاعـر والشاعـر رقيق المشاعر يحب أكثر مما يكره ويأتلق أكثر مما ينغلق ويعيش الحياة كلها بلا سدود ولا قيود على قلبه ووجدانه، ثم هو قـد تمرس بـآثار الشعـراء السابقين وكثرتهم الكاثرة قد تدلهت فتغزلت أو تغـزلت بدون تـدله ومن تحقيقه لذاته أن يكون مثلهم، وأن يمضي معهم في مـوكب الغزل بلونيـه الصادق والكاذب، ومن هنا وجدنا له غـزلاً في عدد من قصـائد ديـوانه جاء مطالع لها ولم يستقل بها إلا في قصيـدة واحدة لعـل أبياتهـا الثلاثـة عشر كانت كأخواتها مقدمة لقصيدة ثم انفصلت عنها لأسباب نجهلها،

يقوى هذا الفهم بل يؤكده أن هذه القصيدة القصيرة وهي القصيدة رقم ١٨ ص١٢٩ مصدرة في الديوان بقول جامعه «وقال أيضا رحمه الله تعالى» علما بأنها مصدرة في النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ن ٢٠٢٨ ـ ج بقول جامعها: «وقال أيضا يمدحه وأجاد، وليس في القصيدة أحد يمدحه الشاعر» كانت هذه الأبيات مقدمة غزلية لقصيدة مدح إذن، ولو وصل إلينا شعر ابن المقرب كاملاً لأمكن جمع شملهما.

⁂

وبتتبع القصائد التي بدأها بالغزل نجده قد سلك فيه الطرق الآتية:

١ ـ لوم العاذل والاجتهاد في تحويله من عاذل إلى مساعد ثم الانتقال إلى ذكر محاسن المحبوب وإظهار الافتتان به.

نجد ذلك في القصيدة رقم ٢ ص١٩ وعدد أبيات الغزل فيها ١٩ بيتا.

وفي القصيدة رقم ١٤ ص١٠٠ وعدد أبيات الغزل فيها ١٣ بيتا.

وفي القصيدة رقم ٤٤ ص٢٨٣ وعدد أبيات الغزل فيها ١١ بيتا.

وفي القصيدة رقم ٦١ ص٤٠٦ وعدد أبيات الغزل فيها ٧ أبيات.

ونكتفي في التمثيل لهذا الضرب من الغزل بأبيات منه جاءت في القصيدة رقم ٢ وقد استحضر فيها بل عارض بها قصيدة المتنبي التي مطلعها.

عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه في سودائه

والتي منها:

لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى يكون حشاك في أحشائه[1]

قال ابن المقرب:

عذل المشوق يهيج في برحائه ... ويثير نار الوجد في حوبائه
فاترك ملامته ودعه وشأنه ... في نوحه وحنينه وبكائه
وإن استطعت على الصبابة والأسى ... فأعنه تحظ بوده وإخائه
يا عاذل المشتاق مهلاً واتئد ... في لومه فهو العليم بدائه
ومتى ترد يوما ملامة عاشق ... فاجعل فؤادك تحت ظل حشائه
فإن استقر فلم أخاك وإن نبا ... فكن النديم الفرد من ندمائه
نفسي الفداء لمن غدا رقي له ... رقا ولم أسمح به لسوائه
ولمن له في كل عضو منزل ... منًى على قرب المحل ونائه
ياعاذلي لاعشت إلا أخرساً ... أعمى أصم ترى بقلب تائه
أربيت في لومي وزدت ولن ترى ... قلبي يطيعك في اتراك هوائه
أو أن ترى مابين سلمى والحمى ... بحرا يعوم الطير في أرجائه

والبيت الأخير منظور فيه إلى قول الله تعالى رداً على دعاء موسى له بقوله: «رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى».

(٢) وصف شوقه إلى محبوبه وديار محبوبه وسؤال الغادين والرائحين عن أحوالهما، ثم وصف جمال المحبوب وحكاية حوار سبق أن أجراه معه.

نجد ذلك في القصيدة رقم ٤ ص ٢٦ وعدد أبيات الغزل فيها ١٦ بيتاً.

وفي القصيدة رقم ١٧ ص ١٢٠ وعدد أبيات الغزل فيها ١٦ بيتاً.

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبرى جـ١ ص١.

ومن القصيدة رقم ١٧ هذه الأبيات :

أرتها المآقى ماتكن الجوانح ... فبح فالمعنى بالصبابة بائح
فكم تستر الشوق الذي خامر الحشا ... ودمع المآقى للمحبين فاضح
وقائلة شبه الملام وراعها ... بياض مشيب جللته المسائح
أبعد اشتعال الرأس شيبا تعرض ... لوصل الحسان البيض أم أنت مازح
فقلت : أليس الصبح أحسن منظراً ... وأبهى من الظلماء والليل جانح
فمالت لهزل القول ثم تضاحكت ... وقالت : لهذا فلتنحك النوائح
إذا كان شيب الرأس مما يزينه ... فياحسن ثغر سودته القوادح

(٣) صدود الحبيب تيها بجماله وإدلالاً بشبابه، وغالباً مايكون ذلك مع محب أشيب فقير حضوره أقل من غيابه، وفي المقابل نجد المحب جافياً جاسياً يقابل الصدود بالصدود، وهو يسلك هذا المسلك الخشن إما تكبرا وإما استبقاءً لماء الوجه.

نجد هذا المعنى في القصيدة رقم ١٢ ص ٨٤، وأبيات الغزل فيها ١٣ بيتا وفي القصيدة رقم ٨٨ ص ٥٨٦ وعدد أبيات الغزل فيها ٨ أبيات وفي كل من القصيدتين غزل بامرأتين، فقد تغزل في القصيدة الأولى بزينب قال :

صدت فجذت حبل وصلك زينب ... تيها وأعجبها الشباب المعجب
لا تعجبن ياقلب من هجرانها ... فوصالها لودام منه أعجب
أغرى المليحة بالصدود ثلاثة ... نأى وإقلال ورأس أشيب
فاضرب عن استعتابها صفحاً فما ... ذو الشيب والإفلاس ممن يعتب
واستبق ماء الوجه فيه وكن به ... حجيا ولا تقل القلوب تقلب

ثم انتقل منها إلى من تغزل فيها بقوله :-

وكريمة الطرفين ذروة وائل ... آباؤها وجدودها إذ تنسب
شاطرتها شرخ الشباب وماؤه ... يجرى وجذوة ناره تتلهب

وتغزل في القصيدة الثانية بنُعمْ قال :

ألا رحلت نعم وأقفر نعمان فبح باسمها إن عز صبر وسلوان

كما تغزل بمن صدته وتاهت عليه قال :-

ومبدية تيها عليَّ وقد رأت بياضاً برأسي قد بدا منه ريعان
فقلت لها : لا يا ابنة القوم إنني أعز إذا ذلت كهول وشبان

(٤) ذكر بين الحبيب ووصف الأحاسيس التي تنجم عنه مع الإشادة بجمال المحبوب جملة وتفصيلاً.

نجد ذلك في القصيدة رقم ١٩ ص ١٢٩ وهى القصيدة التي ذهبنا إلى أنها كانت مقدمة لقصيدة مدح لكن المدح انفصل عنها ولم يصل إلينا.

ونجده في القصيدة رقم ٩٢ ص ٦١٨ وعدد أبيات الغزل فيها ١٣ بيتاً. وهذه أبيات من القصيدة الأولى قال :

غداً نغتدى للبين أو نتروح وعند النوى يبدو الغرام المبرح
غدا تقفر الأطلال ممن نوده ويمسى غراب البين فيها ويصبح
خليليَّ هبا من كرى النوم وانظرا مخائل هذا البرق من حيث يلمح
لقد كدت مما كاد أن يستفزنى أبوح بسرى في الهوى وأصرح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه إذا ماتجلى ضاحكاً وهو يمرح
ويا حبذا ذاك الجبين الذي غدا يلوح عليه الزعفران المذرح

(٥) غزل صادق أو أقرب إلى أن يكون صادقاً لما يترقرق فيه من عاطفة جياشة، ولما يمتاز به من عذوبة وسيولة، وأخيراً لما يشتمل عليه من وقائع محددة الزمان والمكان، وابن المقرب هنا يكشف عن رغبته في مقدمة القصيدة رقم ٢٣ ص ١٦٠ وعدد أبيات الغزل فيها ١٦ بيتاً، وعن تحقيق رغبته في مقدمة القصيدة رقم ٨٧ ص ٥٨٠

وعدد أبيات الغزل فيها ٢٢ بيتا، والمقدمتان تشتركان في أن كل واحدة منهما يمكن أن تكون قصيدة غزل قائمة بنفسها.

ونكتفى في التمثيل لهذا النوع من الغزل بأبيات من مقدمة القصيدة الثانية قال :

فذرى الواشين فقد نطقوا زوراً وهم شر الأمم
زعموا أنى بسوائكم كلف كذبوا في زعمهم
إن كنت أجلت بغيركم طرفى أبغى بدلا فعمى
أو كنت نطقت بثلبكم يوماً في الناس ففض فمى
أو كنت نصبت لعائبكم سمعا فبقيت أخا صمم
أولاق لقلبى بعدكم خلا فخلقت أخاسقم
أو كنت مشيت بسيئة فيكم فشكلت لها قدمى

(٦) الوقوف بالأطلال ووصف مشاعر الشاعر عندها، وذكر ماكان بينه وبين صاحبته فيها من نجوى.

نجد ذلك في القصيدة رقم ٤٧ ص ٣٠٥ وعدد أبيات الغزل فيها ١٧ بيتاً وفي القصيدة رقم ٩٠ ص ٦٠١ وعدد أبيات الغزل فيها ١١ بيتاً وهذه أبيات من القصيدة الأولى، وهي تذكرنا بمعلقة زهير بن أبي سلمى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

قال ابن المقرب :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك شغفت بتذراف الدموع السوافك
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه وجيف الحصا بالموجفات الحواشك
كأن فؤادى ناطه ذو سخيمة قليل التحنى في صدور النيازك
غداة تداعى الحى بالبين بعدما جلا الصبح أعجاز النجوم الدوالك

وفي الجيرة الغادين لا عن ملالة ... ظباء على تلك الهجان البوائك
خماص الحشاحم الشفاه كأنما ... يلثن مروط العصب فوق العواتك
ويبسمن عن نَورْ الأقاحيِّ لم يزل ... يَغذَّى بدرات الذهاب الركائك
وفيهن من ذهل ابن شيبان غادة ... يطيب رياها عبير المداوك
كأن على فيها سلافة قرقف ... وقد غورت أم النجوم الشوابك
أقول لها سراً وقد غاب كاشح ... رقيب مقال العاشق المتهالك
لك الخير ما هذا الجفاء وهذه ... ديارى وأهلى زلفة من ديارك
أترضين قتلى لا بسلة صارم ... من البيض إلا سلة من لحاظك
فو الله ما أدرى أ إعراض بغضة ... لنا أو دلال فافصحى عن مقالك[٢]

(٧) غزل في طيف الحبيب الذي تراءى له وهو يعبر الفرات خائفاً وجلاً فسَرَّى عنه وسره، ولما زالت اللحظات الحرجة زايله فمضى في أثره يودعه، ولم يطمئن حتى أبلغه مأمنه، وحين قفل راجعاً تبين له أن ماكان فيه إنما هو حلم من أحلام اليقظة أثار شجونه وبعث دفينه قال :

سمالك من أم العبيد خيال ... ودون لقاها أجرع وسيال
سما ومطايانا كأن اقتحامها ... غوارب أمواج الفرات فيال

---

(٢) الدكارك : الأرض الغليظة، والنؤى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل، والجذم : الأصل، ووجيف الحصا : اضطرابه من مرور الريح، والموجفات الحواشك : هى الرياح المختلفة أو الشديدة، والنيازك الرماح القصار. ناقة هجان : بيضاء، وناقة بائكة : سمينة فتية حسنة، وعنك الرمل : تعقد وارتفع فلم يكن فيه طريق كأنه يشبه مالففن عليه مروطهن في تلففه وتثنيه برمل عانك.
والذِّهبة : المطرة الضعيفة، والركائك : المطر القليل، والمداوك : حجر يسحق عليه الطيب، والسلافة : ماسال من العنب قبل أن يعصر أمَّا « وقد غورت أم النجوم الشوابك » فمعناها : شربت الخمر بحبابها المتشابك، شبه حبابها بالنجوم المتشابكة في السماء.
وزلفي من ديارك : قريبة منها.

فأهدى سروراً عازبا كان قد مضى ... وأنسته أيام مررن طوال
وعاد فلم يلبث فواقاً كأنما ... عليه بتعجيل الرجوع كفال
فشايعته أقضى الذمام لأنني ... لذاك أب في الحالتين وخال
إلى أن بلغنا الجسر والترعة التي ... بأكنافها الحي الكرام حلال
وحانت لعيني يقظة بان عندها ... بأن الذي قد كنت فيه محال
فواها لها تهويمة بعثت جوى ... حرمت له اللذات وهي حلال

(الديوان ص ٤٣٤)

مخايل الصدق واضحة في هذا الغزل، ونرجح لهذا أن أم العبيد هي زوجته التي كناها ولم يصرح باسمها صونالها، وقد تذكرها وهو يعبر الفرات بين الموت والحياة، والإنسان يذكر أهله أكثر مايذكرهم في أوقات الشدة، ثم هو يأسى على اللذات الحلال التى حرمها منها.

(٨) غزل على صورة شوق أثاره في الشاعر صوت الحمام غناءً في القصيدة رقم ٢٣ ص ٢١٤ ونوحاً في القصيدة رقم ٨٢ ص ٥٦٢ وقد درسنا القصيدة الأولى دراسة تحليلية في الفصل السابق أما المقدمة الغزلية في القصيدة الثانية فقد جاءت في خمسة عشر بيتاً، يطلب الشاعر فيها من الحمام أن يرفق به، وهو يعجب من حال الحمام وحاله بقوله :

أتذكر هالكا من عهد نوح ... مضى والدهر حينئذ غلام
وأنسى خلتي والعهد مني ... قريب لم يمر عليه عام
ولكني أراك ضنين عين ... وعيني دائماً أبدا سجام

وينتقل شوقه به بين كثير من الأماكن في البحرين فيدعو لها ولساكنيها قال :

رعى الله الثليم وساكنيه ... وأجراعاً تكنفها الثلام
وجاد من الجديد إلى المصلى ... إلى الحصنين وكاف ركام

فمسرح لذتي ومراح لهوى هنالكم وجيرتي الكرام
ومعلب كل غانية كعاب مخدمة يزين بها الخدام
يراها القابس العجلان لمحا فيبقى لا وراء ولا أمام
وترسل من لواحظها سهاماً فتمضى حيث لا تمضى السهام

ويختم مقدمته الغزلية بتحسره على زمانه الذي تفلت من بين يديه، وهو يبالغ في هذا التحسر حتى ليفضل الموت عليه قال :

مضى ذاك الزمان فليت أنى صدى من قبل ممضاه وهام

(٩) وصف الخمر وصلا به إلى ذكر محاسن المرأة في القصيدة رقم ٨٤ ص ٥٧١ وعدد أبيات الخمر والغزل فيها تسعة أبيات، ثم نصح بإعلان الحب والبوح به مع طلب الشراب ووصفه ووصف سقاته في شيء غير قليل من عدم المبالاة، وقد طال نفس الشاعر في ذلك حتى بلغ ستة عشر بيتاً جاءت مقدمة للقصيدة ٩٦ ص ٦٤٩، ومن عجب أنها في مدح النقيب تاج الدين إسماعيل وهو علوى ومن رجال الدين المرموقين.

وهذه أبيات من القصيدة الثانية قال :ـ

تخفى الصبابة والألحاظ تبديها وتظهر الزهد بين الناس تمويها
وتستر الحب كيما لا يُقال صبا شيخاً فتعلنه الأنفاس تنويها
يا عاشقاً تلفت في العشق مهجته كتمانك الحب في الأحشاء يؤذيها
بح بالهوى واصحب العشاق منهتكاً ولا تطع غير غاويها ومغويها
وباكر الراح فاشر بها معتقةً صرفا تحدث عن حجر وبانيها
وداو نفسك من داء الهموم بها فما سوى موتةٍ بالكأس تحييها
من كف خرعبة حو مراشفها بيض سوالفها سود مآقيها
أو فاتر الطرف معسول الرضاب له دل ينبه وسنى الباه تنبيها
فإن لحوك فقل : كل له شجن ووجهة هو عن قصد موليها

ولا تـلفـت إلى قـول يـزيـد ضـنى ... لا تحـرق الـنـار إلا رجـل واطـيـهـا
لـيس الخـلىُّ بـبـاك لـلشـجـىِّ أسى ... ولا يحس الحـمـيـا غـيـر حـاسـيـهـا

أما بعد فلم تكن الطرق السابقـة هي كل مـاسلكه ابن المقـرب في غـزله، وإن كـانت أرحبها وأخصبهـا، وقد رأينـا كيف استحال الغـزل عنده إلى وصف الخمر ومجالسها وطلبها والحث على شربها، ولعل ذلـك ممـا أقدره عـلى الجهر بحبـه أو على تـذكر هـذا الحب بعد أن تجـاوزه إما بشيخوخته وإما بانشغاله عنه بما كان من مقارعة الخطوب له.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الرثـــاء

في رأيي أن الحزن على الميت نوعان: حزن العقل ويمكن أن نسميه الأسف، وحزن القلب وهو الحزن الحقيقي، وإذا أمكن أن يمر الأول دون تأثير فينا، فإن الثاني قد يبكينا، والسبب في ذلك أن حزن العقل خال من العاطفة، إنما هو إدراك عقلي للموقف، ولأنه موقف فَقْدٍ، يكون الأسف، وهو أسف موضوعي إن أمكن أن يكون الأسف موضوعيا، أما حزن القلب فهو حزن مبطن بالعاطفة، حزن من أدركوا الموقف بقلوبهم قبل أن يدركوه بعقولهم، واستقبلوه بالهلع والجزع لا بالصبر والتجمل، ولا شك في أن أسلوب الحزين بعقله يختلف عن أسلوب الحزين بقلبه، والرثاء الجيد هو ما كان ردَّ فعل للحزنين، وكلما كان حزن القلب أكبر كان الرثاء أجود.

على ضوء ما تقدم ننظر في قصائد الرثاء التي وردت في ديوان ابن المقرب.

وأول ما يلقانا من ذلك تلك القصيدة التي قدم لها جامع ديوانه بقوله «وقال يرثي الحسين بن علي بن أبي طالب وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام»، وهي القصيدة رقم ٤٠ ص٢٥٩ مطلعها:

يا باكيا لدمنة وأربع ابك على آل النبى أوْدع

وقد نفاها عنه كل من ترجموا له، أو درسوا شعره بأدلة ذاتية أي ترجع إلى ذات الشاعر، وبأدلة موضوعية. مستمدة من القصيدة نفسها، وقد وافقتهم على ما ذهبوا إليه ولو أن مذهبه السني لا يمنعه من

أن يرثى الحسين، أما الأدلة الموضوعية المستمدة من القصيدة نفسها فخلاصتها أن روح ابن المقرب الشعرية والفكرية وطابعه اللغوي والأسلوبي أمور تنعدم في هذه القصيدة، ثم إنها قد انفردت بها النسخة الخطية المكتوبة سنة ١٢٨٦هـ والمحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢ أدب[٣].

وفيما عدا ذلك توجد ثلاث قصائد هي :

١ - **القصيدة رقم ٤٣ ص٢٧٩**، قالها يرثى بها القاضي محمد بن إبراهيم المستورى، يقول الدكتور الخضيري : إنه لم يجد له ترجمة يتعرف عليه من خلالها، وأقول: إن القصيدة التي معنا عوضتنا عن هذه الترجمة، فقد ألقت الضوء على هذا المرثى فعرفنا عنه أشياء لا بأس بها، عددها ثلاثون بيتا ومطلعها للأسف غزلي بغرامه الذي أثارته الحمائم السواجع، وبنارجواه التي أذكت لظاها المدامع، وبقلبه الذي طالما اشتكى منه وتمنى عليه أن يريحه، وقد جعلها هذا الغزل لا تتسم بحسن المطلع ولا ببراعة الاستهلال قال:

غرام أثارته الحمام السواجع ... ونارجوى أذكت لظاها المدامع
وقلب إذا ما قلت يعقب راحة ... أبت حرق تأتي بهن الفواجع

وقد عقب بيتي المطلع بشكوى الدهر في البيتين الثالث والرابع قال:

أفى كل يوم للحوادث عدوة ... لها في سويدا حبة القلب صادع
فلو أن هذا الدهر لا در دره ... يسالم أرباب العلا ويوادع

---

(٣) ابن المقرب لعمران محمد العمران ص ٢٨ وانظر مقدمة المحقق ص ١٢ ورسالة الدكتور الخضيري ص٩٩ - ١٠٠ وأحمد الخطيب الفقرة ٧ من الفصل الثاني ص١١٩ - ١٢٥.

وابتداءً من البيت الخامس نفهم أن القصيدة قصيدة رثاء، وأنها في رثاء ابن إبراهيم، فهو يشتم الدهر الذي علمه بعده البكاء، وعرفه ما يصنع الحزن بالثاكلين.

ولكنه يختار كل مهذب ... له الفضل فينا واللهى والدسائع
أبعد ابن ابراهيم يا دهر يُبتغى ... إليك خلود أو ترجى صنائع
تعست لقد علمتنا بعده البكا ... وعرفتنا بالثكل ما الحزن صانع[٤]

وبعد ذلك يأخذ في مدح ابن إبراهيم أو في رثائه فلا فرق بينهما إلا بلفظة (كان) التى وصف بها المتوفى فقال:

فتىً كان برًّا بالعشيرة راحما ... رؤوفا بها لا تزد هيه المطامع

ويمضى في سرد صفاته سرداً موضوعيا لا تدخل فيه لوجدانه وقد اشتمل على أخلاقه الشخصية وسلوكه الوظيفي:

جميل السجايا كلما ازداد رفعة ... تواضع حتى قيل ماذا التواضع
سواء عليه في القضية من دنت ... به الرحم القربى ومن هو شاسع
نشامذ نشا لم يدر ما الجهل والخنا ... وساد بنى أيامه وهو يافع
ولا عرف العوراء يوما ولا انتحى ... إلى خطة يبغى بها مَنْ يقاذع

وفي الأبيات من ٢٠ يتكلم عن الفجيعة بالمتوفى، وينصح بني مستور بالصبر عليه خصوصاً وأن فيهم بحمد الله من يعوضه كخليفته عبدالله.

مَنْ عبدالله هذا؟ هل هو ابن القاضي أو أخوه أو أحد أقاربه؟ لا ندرى، وهو كبير على كل حال قال:

---

(٤) اللهى: العطايا الكثيرة، والدسائع: جمع دسيعة وهي العطية الجزيلة.

لقد فجعت غنم وبكر وطؤطئت ... لمهلكه أكتادها والقبائع[٥]
كما فجعت من قبله بجدوده ... بنوجشم والمجد للمجدتابع
فصبرا بني مستور فالدهر هكذا ... وكل عليه للمنايا طلائع
فمن كان عبدالله منه خليفةً ... فما مات إلا شخصه لا الطبائع
فتى لم يزل مذكان قبل احتلامه ... يدافع عنكم جاهدا ويصانع

ويختم بمشاركتهم مشاركة وجدانية وبمشاطرتهم أحزانهم، وهو إذ يعزيهم لايشك في تأسيهم، ولكنه يفعل ذلك امتثالاً لشرع ربه وهو ختام ينتقص من عزائه، ويقلل من قيمة رثائه، فدوافعه ليست ذاتية، قال داعيا لوالد المتوفى أو لعبدالله السابق ذكره بأن يقيه الله الردى والسوء، وداعيا على من يتمنى رداه بأن تحل به القوارع، والدعاء الثاني مقال لا يطابق المقام، فهو نص على أن هناك من يحب موت المعزَّى مع أنه مبتلى، والابتلاء يُنسى الأعداء عداءهم، لكن الشاعر قد كرس عداوتهم وجعلهم يتمنون أن يلحق المعزَّى بالمتوفىً، وهذه غلظة من الشاعر وفساد ذوق منه قال:

وقيت الردى والسوء يابا محمد ... وحلت بمن يهوى رداك القوارع
تعزَّ فكل سالك لسبيله ... وكل امريء من خشية الموت جازع
ونحن سواء في المصاب وإن نأت ... بنا الدار فالأرحام مناجوا مع
ولا شك منا في التأسي وإنما ... نعزيك إذ جاءت بذاك الشرائع

وبعد فالقصيدة من الرثاء الجدب المتكلف، ويمكن أن ننحاز بها إلى ما سميناه حزن العقل، وقلنا إنه أسف، بل إنها لتنحط عن ذلك، وهي إلى النظم أقرب منها إلى الشعر.

---

(٥) غنم: هو غنم بن تغلب بن وائل، فالمرثى تغلبى، والكتد: مجتمع الكتفين، والقبع: أن تطأطيء رأسك في السجود.

٢ ـ **القصيدة رقم ٧٢ ص٤٨٣** عددها سبعة وأربعون بيتاً وهي معنونة هكذا (وقال يرثى الرئيس الأجل الحسن بن عبدالله بن أحمد وكان صديقا له)، ولم يتعرف الدكتور الخصيري على هذا المرثى كسابقه، وأقول له ما قلته ثمة من أن ابن المقرب قد كفانا مئونة ذلك إلى حد ما، برثائه لهما، وإعطائنا صورة عنهما، بل بردهما إلى أصولهما من تغلب ووائل، وباديء ذي بدء فإني أشك كثيراً في أن هذا الرئيس الأجل الحسن بن عبدالله بن أحمد كان صديقا لابن المقرب، فليس في القصيدة على طولها بيت واحد يدل على تفجع أو توجع من الصديق ابن المقرب لموت صديقه الرئيس الأجل الحسن، وها نحن أولاء ننظر فيها لنرى ماذا هنالك. فماذا هنالك؟.

١ ـ من مطلعها إلى البيت السابع حكم مناسبة للمقام وممهدة له أحسن تمهيد يتخلص منها الشاعر تخلصاً حسناً إلى موضوعه وهو:

٢ ـ رثاء الفقيد، وقد جعل الموت يدركه وهو في منعة منه بصارمه وجواده، وبالغطارف من بكر وإخوتها من تغلب، وقد كانوا ـ وفاء منهم له ـ يفدونه بالخيل المسرجة وبالمال والآل والأولاد والحشم (الأبيات من ٨ إلى ١٢).

٣ ـ استنهاض بني وائل ليهبوا باكين ليثهم بدمع واكف ودم، وقد خاطبهم خطاب من ينكر عليهم تجلدهم، وأنزلهم منزلة المنكر لما حل به من رزئه على طريقة:

جاء شقيق عارضاً رمحه ... إن بنى عمك فيهم رماح

لست أدري لماذا، والمنتظر منه عكس ذلك قال:

إيها بنى وائل قد مات ليثكم ... فابكوا عليه بدمع واكف ودم

وأين دموعه هو والمتوفى صديقه كما يقول جامع ديوانه؟

(٤) تعداد مناقب المرثى في الأبيات من ١٤ إلى ٢٠ وهي تقريباً المناقب التي رثي بها محمد بن إبراهيم المستورى.

قد كان إن نزلت دهياء مظلمة ... وخام عنها حماة القوم لم يخم
وإن نبا زمن أوعض ناجذه ... أعطى العفاة بلا منٍّ ولاسأم
مضى ولم يدر ماسكر الشباب ولا ... أماله الغيُّ عن رشد إلى أثم
ولا تخطى بيوت الحى مبتجحا ... جذلان يخطر مختالا على قدم
ولم يكن همه شرب المدام ولا ... شدو المزاهير بالأوتار والنغم
لكن همته مال يقسمه ... على العفاة وإقدام على البهم
ولم يزل صائماً طوعاً لخالقه ... وبالدجي قائماً في حندس الظلم

(٥) تعزية أهل المرثى ووعظهم بمن مات قبل فقيدهم من سادات قومهم ومن غيرهم وذلك في الأبيات من ٢١ إلى آخر القصيدة.

فيا أبا جعفر لازلت في دعة ... لاتجز عن فقضاه غير متهم
ويا أبا حسن صبراً فكل فتى ... مفارق وحياة المرء كالحلم
والموت كل امرىء لابدَّ ذائقه ... تقاصر العمر أو أدى إلى الهرم
أين الملوك وأرداف الملوك ومن ... ساد القبائل من عاد ومن إرم
وأين طسم وأولاد التتابع من ... أولاد حمير والسادات من عمم
وأين آل مضاض في قبائلها ... من جرهم ساكنى بحبوحة الحرم

ونسأل: أين حزن القلب من الصديق على موت صديقه؟
فلا نجد لذلك صدى أبداً، ولا يسعنا إلا أن ننحاز بهذه المرثية كما انحزنا بسابقتها إلى حزن العقل وهو الأسف، أو مادونه، إن هي إلا نعى من ابن المقرب للرئيس الأجل الحسن بن عبدالله بن أحمد.

(٣) القصيدة رقم ٨٩ ص ٥٩٤:

قالها يرثى بها ابن عمه مذكور بن عبدالله بن منصور، قتله رجل من الجريش سنة ٦٠٦ هـ وكان ابن المقرب قافلاً من بغداد فبلغه خبر

قتله عند وصوله أرضا من ناحية القطيف.

وهذه القصيدة مع رثائه لصديقه الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد ـ ومن عجب أن يأتي عرضا لاقصدا، وفي أثناء مدحه لابنه الأمير الفضل ـ[٦].

أقول: هذه القصيدة في رثاء مذكور بن عبدالله بن منصور، وتلك الأبيات المتناثرة في رثاء الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد هما وحدهما الرثاء الحقيقي في ديوان شاعرنا ابن المقرب، وما عداهما فلون من الأسف، وضرب من النعي.

ولنعش قصيدتنا فسنحس من أول بيت فيها قوة وجاذبية وحيوية، وسنرى الدموع الصادقة، واستقطاب المصاب للشاعر الذي ينكفىء على حزنه، ويرى خليله دموعه فيلحاه ظانا أنه يبكي شوقاً إلى زوجه وأولاده الذين طال غيابه عنهم، وينهره شاعره طالباً منه أن ينفض عنه وأن يلتمس له خليلاً سواه، فالصاحب في رأيه هو من يخلط نفسه بصاحبه ويذوب كيانه في كيانه، ولما سكت عنه الغضب لان له وأخبره بأن الدهر قد نكبه في ابن عمه، وقد ذكر به من ما تواقبله من صفوة قومه وإخوانه فرثاهم مبينا أن فقدهم قد أطمع فيهم عدوهم جاء ذلك في الأبيات من ١ إلى ١٠ قال:

أظنك خلت الشوق والنأي أبكانى ... فأقبلت نحوى يابس الدمع تلحانى
فقم فالتمس خلا سواى فما أرى ... صحابة من لم يتبع شأنه شانى
كأنك ما شاهدت ماقد أصابنى ... به الدهر من صياب قومى وإخوانى

---

(٦) جاء رثاء الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد في القصائد:
رقم ١٥ ص ١٠٥: الأبيات من ٢٤ إلى ٢٦ والأبيات من ٤٥ إلى ٥٦ ورقم ٤٩ ص ٣٢٦ الأبيات من ٣٦ إلى ٤٧ ورقم ٩٠ ص ٦٠١ الأبيات من ٥٩ إلى ٦١ وثلاثتها ـ كما قلنا ـ في مدح ابنه الأمير فضل.

رزئب ملوكا لو بكيت لفقدهم ... دماً ما كفاني عمر نوح ولقمان
بهم كنت أرمى من رماني وأتقى ... بهم نائبات الدهر من حيث تلقاني
بأسيافهم ذاقوا الردى وتجرعوا ... حسا الموت لا أسياف قيس وغيلان
وأطمع فينا فقدهم كل مسبع ... وشاوى أغنام وعامل فدان[٧]

ويعود إلى خليله الذي حاول أن يخفف عنه مصابه فرد عليه ابن المقرب بقوله:

فيا بارد الأنفاس دعني فإنه ... قليل لهم من معشر فيض أجفان
فلو جاءك الناعي بما جاءني به ... لما عشت إلا لابساً ثوب أسفان
لطاب لديك النوح واستسمج العزا ... وأصبحت في شأن البكا بعض أعواني
أتلحى على فيض الدموع وقد ثوى ... أخي وشقيقي وابن عمي وخلصاني
أمن بعد مذكور أصون مدامعاً ... تقل له لو أنها من دم قان

ولا تكفيه دموعه وحده، فيدعو على من لم يبك عليه بأن يعمى هو وأهله قال:

ألا عميت عين امرىء لم تجد له ... بدمع وأضحى ربها ربَّ عميان

ويصف حاله حين بلغه نعى ابن عمه ففزع فيه بآماله إلى الكذب ـ على حد قول المتنبى ـ لكن الناعي قد أكد له مصرع مذكور فحزن عليه بقلبه وعقله قال:

أقول لناعيه وقد كظنى البكا ... وقد أضَّ من صدرى تأجج نيران
أحقا ثوى في اللحد واستوطن الثرى ... وجاور فيه كل ذي نازح دان
فقال نعم لم آت حتى تناوحت ... على يومه بيض الخدود بألحان

---

(٧) المسبع: المترف، أو الدعى، أو ولد الزنا، أو من تموت أمه فيرضعه غيرها، أو من في العبودية إلى سبعة آباء أو إلى أربعة، وشاوى الأغنام: راعيها، والفدارة: المزرعة، أو الثوران يقرن بينهما للحرث.

فقلت ولم أملك عزائى وعبرتى أرددها في صحن خدى بأردان
ألا شقيت قومى لقد غالها الردى بمقدام غارات وفلال أقران

ويمضى فيثنى على مذكور بما يراه أهلا له من صفات البطولة والنجدة ودرء الشرور ودفع الخطوب وفك الأسرى، ثم يلتفت إلى آل إبراهيم طالباً منهم أن يبكوا مثل بكائه، وأن يأخذوا بثأر ابن عمه، فهم أهل لذلك (الأبيات من ٢٥ إلى ٣٦).

وكم هو كمد، لأن من قتل مذكوراً من قبيلة حقيرة لا يروى دمها ظمأه ولا ينقع غلته.

فلو أن في الحىِّ الشبانىِّ ثاره لكنت أمنى النفس فيه بسلوان
ولكنه أمسى قتيلا لمعشر إذا قيل: من هم؟ قيل: هي بن بيان

ثم هو حزين لأن مذكوراً مات ميتة غدر على يد جبان نذل جاءه من خلفه، ولو جاءه من أمامه لما نجا من القتل إلا بجريه في إثر من جرى قبله خوفاً من مذكور.

ولو جاءه مغتاله من أمامه لراح أكيلا بين نسر وسرحان
أو انصاع عدوا يقتفى إثر غيره مخافة مشبوح الذراعين غضبان

ويصل إلى عمه والد مذكور في البيت ٤٢ فيخاطبه به وبما بعده إلى البيت ٥١ قال:

فمن مبلغ عنى أباه رسالة مغلفلة عن موجع القلب حران
أياعم لاتجزع فكل إلى البلى يصير ولاخلد لإنس ولاجان
فلو لم يمت قتلا لمات بعلة وليس بمنج من ردي رأس غمدان
وما قتله مما يعاب به الفتى إذا عد يوماً بين شيب وشبان
وأنت لعمرى ما خصصت بفقده وإنك فيه والبعيد لسيان

ويختم بالبيتين ٥٢، ٥٣ داعيا لمذكور دعاءً ندياً خصباً قال:

سقى الجـدث الثاوى بـه كـل رائح مـن المـزن أو غـاد مسـح بتـهنـان
وحـيتـه أمـلاك الـسـماء بـجـنـة وظـل ظـلـيـل بـين روح وريحـان

انتهت قصيدة الرثاء التي بلغ ابن المقرب فيها قمة الشاعرية وهي تجربة شعرية حية وقوية، ولا عجب، فهي ترجمة صادقة لتجربته الشعورية، وقد نجح في نقلها إلينا بموجها وهديرها من خلال كل بيت بل كل شطربل كل جملة وكلمة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الهجـــاء

الهجاء فن من فنون الأدب يثيره الغضب وهو نـوعان: هجـاء عف تنشـده العـذراء في خـدرهـا فـلا يقبـح بمثلهـا كـما قـال أبـو عمـرو بن العلاء[1].

وهجـاء إقذاعى لايعـدو الشتم والسباب بـألفاظهـما الخاصـة بهما، ويغلب أن تجـافى الفنيـة هـذا النـوع، لأنـه وهـلى سـطحى لا عمق في مضمونه ولا تجويد في شكله، وسواء كان الهجاء عفا أو مسفا فإن قـائله إما أن يتوجه به إلى فرد وإما أن يتوجه به إلى جماعة.

وقد توجه ابن المقرب بهجائه إلى قومه حـين أعلن نقمته بـل ثورتـه عـلى اختلال المقـاييس والقيم عندهم بمحـاباتهم للبعيـد الذي يشنؤهم ومحاربتهم للقريب الذي يحبهم وباستبـدالهم الذي هـو أدنى بالـذي هو خير، وقد مرت بنا نماذج كثيرة لهذا النوع من الهجاء جنبا إلى جنب مـع الفخر، لأنه امتداد له، إذ يهجو الشاعر خصومه بضدمـا مدح بـه نفسه فيما يشبه المقابلة بين فضائله من جهة وعيوبهم من جهة، هـذا النوع من الهجاء قاله ابن المقرب أول ما قاله في البحرين، ولما كان في العراق هجا ابن الدبيثى هجاءً فردياً بقصيدتين اثنتين هما:

١ ـ **القصيدة رقم ٣٥ ص٢٢٤** وقد جاءت في ثمانية وأربعين بيتاً بدأهـا معلناً مقاطعته الأبدية لواسط بسبب ظلم ضـامن المكوس بهـا وهو

---

(١) العمدة جـ٢ ص١٧٠.

ابن الدبيثى[٢] قال مخاطباً نفسه:

بع واسطا بالنأى والهجر ودع المرور بها إلى الحشر
أرض يدبرها ابن صابئة شابت مفارقها على الكفر

ويأخذ في قذف أم مهجوه قذفا يعف القلم عن كتابته في الأبيات من ٣ إلى ٥ ويترك الأم إلى ابنها فيلعنه ويسخر من لحيته مقتفيا أثر ابن الرومى في معاداته لأصحاب اللحى يذرى بهم ويتندر عليهم بمثل قوله:

إن أنت صادفت أخالحية قد جللت من كبر صدره
فاقبض بيسراك على أصلها وضع على حلقومه الشفره
فإن خشيت الله في مثله وخفت منه سطوة مره
فثب إلى عثنونه ناتفا وات عليها شعرة شعره

سلك ابن المقرب هذا المسلك لابن الرومى فقال متعرضا هذه المرة لزوجة ابن الدبيثى:

لك لحية كالتيس ما برحت من بوله في ناطف تجرى
وبها إذا حاضت حليلتك الر رعناء تعرف أول الطهر
وهي التي غرتك فابغ لها بيتا يحصنها من الظهر
واجمع حواليها ليمنعها ما استطعت من مستحكم الجعر

---

(٢) نقل محقق الديوان ترجمته عن ابن خلكان وهي: محمد بن سعيد بن يحيى بن الدبيثي من أهل واسط، وهو مؤرخ يحفظ الحديث، توفى سنة ٦٣٧هـ (وفيات الأعيان جـ١ ص٥٢١).
كما نقل عن شذرات الذهب أن له معرفة بالأدب والشعر، وأن ابن العماد أورد له ثلاثة أبيات. (شذرات الذهب جـ٥ ص١٨٦م) والدبيثي نسبة إلى بلدة قرب واسط يقال لها دبثا أو دبيثا.
وانظر هامش صفحتى ٢٢٤، ٥٠٥ من الديوان.

فلقد أتاها ما سيتركها مرداء خالية من الشعر
ولعل ذلك فيه مصلحة لك يا لئيم ونحن لا ندرى

ويفرغ من لحيته ليطعنه في رجولته:

تمسى كما قد كنت محترما عند الزناة معظم القدر
يعطيك حكمك كل ذى شبق يهوى العلوق مضبر عفر[٣]

ويقف قليلاً عند لقب الأديب الذي يطلقه الناس على ابن الدبيثى لينفيه عنه، وهو يفعل ذلك بطريقة فجة، إذ ينعته بالحمار ويناديه بالتيس، ولا ينسى أن يفخر عليه بشجاعته وبأنه من معشر (لبسوا العلا ونشوا بين الصوارم والقنا السمر)، وبأن خيولهم تختال بهم إذا ركبوها إلى آخر ما رأيناه له في فخره بنفسه وبقومه، ويأتي إلى سلوكه الوظيفي فيتهمه بالإسراف في ظلم العباد، وبأنه أمكن لمساعديه الذين وصفهم بأنهم قطاع طرق من إفقار التجار بأخذهم نصف بضاعتهم مكسا، ولا يكتفى بذلك، بل يوقع بينه وبين الخليفة مستعديا إياه عليه بقوله:

خنت الخليفة في رعيته وعصيته في السر والجهر
فليرمينك بعض أسهمه فتبل منك بثغرة النحر

ويظهر أنه كان قد مدحه قبل هذا الهجاء منه له، نفهم ذلك من البيت ٣٥ ومن الأبيات ٤٢ إلى آخر القصيدة، فهو يطلب منه أن يرد عليه مدحه نادما عليه ومعتذراً عنه بالحمى، ويتهدده بأنه إذا كان قد مدحه بسبعة أبيات فإنه سيمحوها بسبعمائة بيت هجاء ويتحداه بأن يصبر عليها قال:

اردد علىَّ بلا مراجعة ما خانني في نظمه فكري
هذا جزاء النظم فيك وقد يجزى الضراط مقبل الحِجْر

(٣) المضبر: كل مجتمع الخلق موثقه، والعفر: الغليظ الشديد.

قابلتهَا إذ أنشدتْ برضا ... وعققتها فوقعت عن خَبْر
والعذر لي فيما هذيْتُ به ... إن كانت الحمى من العذر
هي سبعة تأتيك سبع مائي ... تنسيكها والحصد للبذر
عن كل بيت صادرٍ مائةٌ ... وجزاء مثلى ليس بالنذر
فاصبر لها يا نذل لا كرما ... فالكلب يجزى القتل بالعقر

تلك هي القصيدة الأولى في هجاء ابن الدبيثى وهو هجاء فاحش مقذع شنع فيه كذبا على أمه وزوجه، وطعنه به في شرفه وادعى عليه الظلم والتواطأ مع مساعديه على أذى الرعية، ولم يكتف بذلك، بل حاول الوقيعة به عند الخليفة ليعزله، ولما كان قد مدحه قبل ذلك فإنه طلب منه أن يرد عليه ما خانه فكره في نظمه وما جعلته الحمى يهذى به، لكن هيهات فالكلمة إن هي خرجت لن تعود كما قال هوارس، وقد تهدده لهذا بأن سينشيء فيه هجاءً كثيراً يمحو به ذلك المدح.

وأنا غير مصدق أن ذلكم الوعاء النقى (ابن المقرب) ينضح بمثل هذا الفحش المستهجن ولماذا؟ لسبب تافه لا يعدل هذا السيل العرم من الطعن الموجع في شرف الرجل وعرضه ونزاهته، وإذا كان الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده فإننى أقرر أن هذه القصيدة قد نالت من ابن المقرب بأكثر مما نالت من ابن الدبيثى، بل إنها جعلتنا ننحاز إلى ابن الدبيثى ضد هذا المتهجم عليه بلا أدنى وازع من دين أو خلق.

٢ - **القصيدة ٧٧ ص٥٠٥** صدرها جامع ديوانه بقوله: «وقال يهجو ابن الدبيثى لما قيل له: إن ابن الدبيثى شاعر مجيد ومثلك يحمى على أهل الأدب» وهذا يعنى أن هناك هذه المرة من أغراه بابن الدبيثى وسلطه عليه، نفخ فيه بقوله: «ومثلك يحمى على أهل الأدب» أي شحنه وتركه ينفجر في ابن الدبيثى بهذه القصيدة التي جاءت كسابقتها رذلة سمجة نسى فيها ابن المقرب أنه غريب، وأن

الغريب ينبغى له أن يكون مسالما ومحصنا بدماثة الخلق، وقد بدأها بنفى شاعرية ابن الدبيثى في غير قليل من المصادرة والمكابرة، ولم تسلم أم الدبيثى هنا كما لم تسلم هناك من سلاطته وبذاءته ولم يكن ابن المقرب في هذا موضوعياً، إذ ما دخلها في شاعرية ابنها؟ لكنه الإسفاف في الهجو، والخروج به إلى ما ليس منه في قليل أو كثير قال:

قالوا الدبيثى ذو قواف ... محكمة النظم مستقيمه
فقلت بعداً لكم وسحقا ... فكل أفهامكم سقيمه
شعر ابن الدبيثى لو عقلتم ... أبرد من أمه اللئيمه
هو الذي تعلمون كلب ... فهل لنباح الكلاب قيمه
إنا إلى الله من طغام ... تعتقد الفضل في بهيمه
واللؤم والشؤوم منه جزء ... والغدر والإفك والنميمه
وينسب العار والدنايا ... طرًّا إلى أمه القديمه

وإذا كان قد تجاوز شاعرية ابن الدبيثى إلى شخصه ابتداءً من البيت الرابع، فإنه في البيت الثامن وما بعده قد جعله أباً للمخازى ورتب على ذلك أنها ستندبه عند موته مولولة عليه بيتمها وبما سيصيبها بعده من أمور مقعدة مقيمة، ومفتقدة من سيخلفه على عرش الشر خصوصاً وأن موته قد ترك أخاه إبليس مستهلك العزيمة.

متى يمت تصرخ المخازى ... يا أبتا واشقا اليتيمه
بعدك حلت بنا أمور ... مقعدة للعوا مقيمه
راحت جيوش الضلال فوضى ... قد هزمت أسوأ الهزيمه
من أين للظلم باطنى ... مثلك يستصغر العظيمه
يومك أبقى أخاك دينا ... إبليس مستهلك العزيمه
قد كنت ردءًا له تساوى ... كل شياطينه الرجيمه

وكم كان ابن المقرب بشعا شنعا وهو يصف حمل أم ابن الدبيثى به ووضعها له وسلوكه لما بلغ سن السابعة في الأبيات من ٢٣ إلى ٣٤ وهي مما لا يقوى الإنسان على قراءته فضلاً عن أن يكتبه ويذيعه وفي الأبيات من ٣٥ الى انتهاء القصيدة بالبيت ٤١ يرصد تاريخ ابن الدبيثى لما كبر وتولى وظيفة الجباية في واسط، ولا يسلم الحجاج ابن يوسف الثقفي مؤسس واسط من هجاء ابن المقرب، بل لا يسلم قوم الحجاج من هذا الهجاء، ويختم داعياً على ابن الدبيثى وموعداً إياه بعاقبة وخيمة.

حتى إذا نشت بعد حين ... وطالت اللحية اللئيمه
أصبحت عشار أرض سوء ... ما برحت أرضها مضيمه
أسسها شر آدمي ... بذاك كل الورى عليمه
قومه بعضهم ببعض ... وأنت منهم أقل قيمه
قاتلك الله كم تعامى ... وتعكس السنة القويمه
تلزم زاد الغريب مكساً ... وثوبه يالها عظيمه
مهلاً فللظالمين حتما ... مصارع كلها وخيمه

انتهت قصيدة الهجاء الثانية في ابن الدبيثي، ومع علمنا بأن الهجاء يأتى أكثر ما يأتي تعبيرا عن وجوه القبح وتجسيداً لملامح الشر والاختلال والنقص في المهجو فرداً كان أو جماعة، فقد كنا نتمنى أن يعفى ابن المقرب نفسه من هذه المهمة الصعبة، وأن يخلص شعره من هذا الفحش الذي أزرى به أكثر مما أزرى بمهجوه.

ويمكن الاعتذار عنه بأن التقييم الفني للأدب يحميه من المؤاخذة أو يخفف من حدتها، ففي هذا التقييم يستوى أن تصور القصيدة ملكا رحيما أو شيطانا رجيما مادامت قد استكملت مقوماتها الفنية، وفي هذا المعنى يقول تشارلتن: «إن ما يهمنا من الشعر هو أن يكون شعرا،

ولا نزن بجناح بعوضة موضوعه الذي يعالجه»[٤].

ويقول قدامة: «إن فحاشة المعنى في نفسه لا تزيل جودة الشعر فيه»[٥] ولما طعن المتدينون على أبي تمام بسبب ما ادعى عليه من كفرقال الصولى: «وما ظننت أن كفرا ينقص من شعر ولا أن إيمانا يزيد فيه»[٦].

والميزة في هجاء ابن المقرب لابن الدبيثى أن الوحدة العضوية متحققة فيه إلى مدى بعيد، فكل من القصيدتين تدور حول محور واحد هو ابن الدبيثي وتهدف إلى غاية واحدة هي انتقاصه وانتقاص إطاره الأسرى.

---

(٤) فنون الأدب ص١١.

(٥) نقد الشعر ص١٤.

(٦) أخبار أبي تمام ص١٧٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الـوطـــن

لابن المقرب من وطنه موقفان متعارضان لكنهما طبيعيان ومتوقعان: نـراه داخل وطنـه وقد قـلاه كلية، ونفض يـديه منـه جملة، لاتكاد تخلو قصيدة مدح ولا قصيـدة قالهـا في الأحساء أو في القـطيف من ضيقه بـه وعقده العزم على تركه جنبا إلى جنب مـع الفخر والحـماسة ومـع العتاب والشكوى ومع نصحه لقومه، وهجائه لهم.

وفي المقـابل لا تكـاد تخلو قصيدة قـالهـا في العـراق من الحنـين إلى البحـرين والسؤال عنهـا وإرسـال السـلام لهـا ولأهلهـا، ونعـطي أمثلة للموقف الأول قوله في القصيدة رقم (١) ص ١٣:

يـاصاح قـد أزف الـرحيـل فقـربن ... لـلسـير كـل شـمـلة وجـنـاء
فـالـبر أوسـع والمـنـاهـل جمـة ... والـبـعـد مـقـترب عـلى الأنـضـاء

وقوله في القصيدة رقم ١٠ ص ٦٤:

خـلـيـلـيَّ عـن دار الهـوان فـقـوضـا ... خـيـامـى وزمـا لارتحـال نـجـائبى

وقوله في القصيدة رقم ١١ ص ٧٤:

لى عـن ديـار الأذى والهـون متـسـع ... مـا كـل دار منـاخ الـويـل والحـرب
لاتحسبـوا بـغضى الأوطـان من ملل ... لابـدَّ لـلود والـبـغـضـاء من سـبـب
قـل وذل وخـذلان وضـيـم عـدى ... مقـام مثـلى عـلى هـذا من العجب
إذا الـديـار تـغـشـاك الهـوان بهـا ... فـخلهـا لـلضعيف العـزم واغـترب

وقوله في القصيدة رقم ١٥ ص ١٠٥ :

سقها ولو ذهب السرى بسراتها ... كم ذا ترد النفس عن عزماتها
أو ليس جهلاً أن تسيم بمرتع ... أكلت به المعزى لحوم رعاتها
فانهض وسلِّ الهم عنك بجسرة ... روحاتها تربي على غدواتها
وارغب بنفسك أن تقيم ببلدة ... عصفورها يسطو بشهب بزاتها[٦]

ثم قوله في القصيدة نفسها :

فلأرحلن عنها رحيل مفارق ... ولأزجرن النفس عن لفتاتها

وقوله في القصيدة رقم ١٧ ص ١٢٠ :

خليلي ما آض اعتزامي ولانضا ... غرامي ولاضاقت عليَّ المنادح
فقوما ففي عرض البسيطة منتأى ... ومتدع عن موضع الذل نازح

وقوله في القصيدة رقم ١٩ ص ١٣٢ :

أبى الله لي والسؤددان بأن أرى ... بأرض بها تعدو الكلاب على الأسد

وتبلغ به عظمة نفسه أن يرد ماء قومه ظامئا ويصدر عنه ظامئاً كما كان، وهذا المذهب من ابن المقرب مذهب سام رفيع وهو فيه وبه مثل أعلى للعزة والأنفة قال مخاطبا نفسه :

وعدِّ عن الماء الذي ليس ورده ... بصاف فما تعمى عليك الموارد
وكم منهل طامي النواحي وردته ... على ظمأ وانصعت والريق جامد
فلا تحسبن كل المياه شريعة ... يبل الصدى منها وتوكى المزاود
فكم مات في البحر المحيط أخو ظمأ ... بغلته والموج جار وراكد
وإن وطن ساءتك أخلاق أهله ... فدعه فما يغضى على النقص ماجد
فما هجر أم غذتك لبانها ... ولا الخط إذ فارقته لك والد

---

(٦) الجسرة من الإبل : العظيمة منها.

فبت حبال الوصل ممن توده إذا لم يرد كل الذي أنت وارد[٧]

وكثيرة هى تلك المحاورات التي دارت بينه وبين امرأة تمسك به لاتريد أن تفلته وهو يجذب نفسه منها ويبعد عنها مرتحلا وانظر في هذا القصيدة رقم ١٩ ص ١٣٢ الأبيات ٢٥ ـ ٣٢ والقصيدة رقم ٣٣ ص ٢١٤ الأبيات ١٦، ١٧، ١٨ . . . والقصيدة رقم ٣٩ ص ٣٢٦ الأبيات ٢٤، ٢٥، ٢٦ . . . والقصيدة رقم ٥٦ ص ٣٧٨ الأبيات ١، ٢، ٣، ٤ . . . والقصيدة رقم ٦٧ ص ٤٤٨ الأبيات ١٧، ١٨، ١٩ . . . والقصيدة رقم ٩٣ ص ٦٢٣ الأبيات ٢١، ٢٢، ٢٣ . . .

ولا تعطى هذه الإشارات ولا تلك النقول كل ما قاله ابن المقرب في موقفه من وطنه وهو داخله، واستكمالاً لذلك نحيل كذلك على القصيدة رقم ٢١ ص ١٤٩ الأبيات ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠ والقصيدة رقم ٢٤ ص ١٦٧ البيتين ٢١، ٢٢ والقصيدة رقم ٢٦ ص ١٨٢ الأبيات ١٩، ٢٠، ٢١ والقصيدة رقم ٣٧ ص ٢٣٤ البيت رقم ٤ والقصيدة رقم ٣٩ ص ٢٥٢ البيتين ١، ٣ والقصيدة رقم ٤١ ص ٢٦٦ الأبيات ١٠، ١٣، ١٧ ـ ١٩، ٢٦ والقصيدة ٤٢ ص ٢٧٢ الأبيات ٣، ٣٠، ٣١ والقصيدة ٥٠ ص ٣٣٤ البيتين ٤، ٥ والقصيدة ٥٤ ص ٣٦٤ الأبيات ١، ٣، ٤، ١٠ والقصيدة ٧٠ ص ٤٦٦ الأبيات ٦، ٧، ٨، ٩، ١١ . . . والقصيدة ٨٠ ص ٥٢٦ الأبيات ١ ـ ٤ والقصيدة ٩٠ ص ٦٠١ الأبيات ١٢ ـ ١٥ وآخر قصيدة في الديوان وهى القصيدة ٩٧ ص ٦٥٧ الأبيات ٢٨ ـ ٣٢، ٣٥، ٣٦.

ونصل إلى الموقف الثاني وهو موقف الحنين إلى الوطن والشوق إليه فنجد من أمثلته الأبيات ٤٤ ـ ٥١ من القصيدة رقم ٤ ص ٢٦ قال:

---

(٧) القصيدة رقم ٢٠ ص ١٤٠، وانصاع: انفتل.

وإن انفرادى عنهم وتغربي ... ترامى بىَ الأمواج والحزن والسهب
بغير اختيار كان منى ولاقلى ... وإنهم للعين والأنف والقلب
وإني حفى عنهم ومسائل ... بهم حيث يثوى السفر أو ينزل الركب
وإنى بقومى للضنين وإنني ... على بعد داري والتنائي بهم حدب

والأبيات ٢٧ ـ ٣٧ من القصيدة رقم ٥ ص ٣٥ ومنها :

فياراكبا تطوى به البيد جسرة ... وتغتال غيطان الفلا والأخاشبا
إذا أنت ألقيت العصي مخيما ... بالاحسا وجاورت الملوك الأصايبا
فيمم لجرعاء الشمال فإن لى ... بها خلة أشتاقها وملاعبا
وقف وقفة بالدرب غربى بابها ... فثم تلاقى أسرتى والأقاربا
فتلقى ملوكا كالأهلة لم تزل ... تهش إلى الجلّى وتأبى المعايبا
فقل لهم بعد السلام مقالة ... تعم بها عنى شبابا وشائبا
ألا يالقومى والفتى حين يرتمى ... به الدهر يدعو قومه لا الأجانبا
كفى حزنا أنى ببغداد مفرد ... عن الأهل ألقى كل يوم عجائبا
ويشتاقكم قلبى فأذكر دونكم ... مهامه لا أشتاقها وسباسبا

والأبيات ١٢ ـ ١٥ من القصيدة ص ٤١ وهي :

فياراكبا وجناء تستغرق البرى ... ويطوى الفيافى خطوها وانجذابها
أقم صدرها قصداً إلى الخط واحتقب ... رسالة ود أنت عندى كتابها
فحين ترى الحصن المعلى مقابلا ... ويبدو من الدرب الشمالى بابها
فلج بسلام آمنا تلق بلدة ... مقدسة الأكناف رحبا جنابها

والأبيات ٤٨ ـ ٥٠ من القصيدة ٤٤ ص ٢٨٣ وهي :

فيا قاصد البحرين يزجى شملة ... كأن على أشداقها الهدل كرسفا
إذا أنت لاقيت الملوك بنى أبى ... أريبهم والأبلخ المتغطرفا

فحيهم منى تحية وامق عطوف على ابن العم لوعق أوجفا[٨]

والأبيات ١٢ ـ ١٩ من القصيدة ٦٥ ص ٤٣٤ ومنها:

أقول لركب من عقيل لقيتهم وأعناقها للقريتين تمال
أياركب حييتم وجادت بلادكم غمائم أدنى سحهن سجال
إذا جئتم أرض الحساء وقابلتْ قباب بضاحى برها وتلال
فأرخوا لها فضل الأزمة ساعة وإن كان أين مسها وكلال
إلى أن توافوا الدرب والمسجد الذي به الحيُّ حيٌّ والشمال شمال
فثم تلاقون الملوك بنى أبى ويكثر عنى حين ذاك سؤال
فقولوا لهم إنا تركنا أخاكم بحيث مآل الراغبين مآل

والأبيات ٩ ـ ١١، ١٥ من القصيدة ٨٢ ص ٥٦٢ وهي:

رعى الله الثليم وساكنيه وأجراعاً تكنفها الثلام
وجاد من الجديد إلى المصلى إلى الحصنين وكاف ركام
مضى ذاك الزمان فليت أنى صدى من قبل ممضاه وهام

والأبيات ١٣ ـ ١٧ من القصيدة ٩٧ ص ٦٤٩ وهي:

يامنزل الحى بالجرعاء لابرحت تهمى بك المزن منهلا عزاليها
كم لى بمغناك من يوم نعمت به وليلة تعدل الدنيا وما فيها
واهالها من ليال لوتعود كما كانت وأي ليال عاد ماضيها
لم أنسها مذنأت عنى ببهجتها وأين غر من الأيام تنسيها

هذا هو موقف ابن المقرب من وطنه وهو موقف مزدوج كما رأينا، شقه الأول عرض، وشقه الثاني جوهر، وعذره معه في موقفه الأول،

(٨) يزجى شملة: يسوق ناقة سريعة. الهدل: المتهدلة، والكرسف: القطن. الأريب: العاقل، والأبلخ المتغطرف: المتكبر.

فقد غُبن غبناً ماديا يتمثل في سجنه ومصادرته، وغبنا معنويا يتمثل في كبته وتعطيله وهضم حقه في أن يحكم أو يكون قريبا ممن يحكم، وإذا كان الغبن المادى محتملا، فإن الغبن المعنوى غير محتمل، لأنه حالة يتلاشى فيها إحساس الإنسان بنفسه، ويتحول معها من أصل إلى صورة، ومن حقيقة إلى وهم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الوصف

الوصف بمعنى استقصاء أو محاولة استقصاء خصائص الأشياء الموجودة في الطبيعة خارج ذات الشاعر، الوصف بهذا المعنى غير موجود كثيراً في شعر ابن المقرب، أما الوصف على إطلاقه فالشعر كله وصف لأمور مادية أ معنوية في ذات الشاعر أو خارج ذاته، وقد سبق القول بأن التجربة الشعرية الناجحة إنما هي الترجمة الصادقة للتجربة الشعورية، أي الوصف الصادق الدقيق لها، وابن رشيق محق في قوله: الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وأحسن الوصف مانعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع، أو كما قال بعض المتأخرين: أحسن الوصف ماقلب السمع بصراً[1].

وقد سجل المرحوم أحمد أحمد بدوي على النقاد العرب تقصيرهم في معالجة موضوع الوصف بقوله: وقف نقاد العرب عند الحدود الحسية في الوصف، ولم يقفوا طويلا عند وصف الشاعر لإحساساته إزاء ما يصفه، ولم يلحوا في دراستهم للوصف على هذه الناحية وكأنهم يكتفون في الوصف الجيد بأن ينقل إلينا الشاعر صورة لما يراه، وكلما أجاد في رسم هذه الصورة بلغ الغاية في هذا الضرب من الشعر، وإذا كان الشاعر الذي يقف عند هذا الحد من التصوير له فضله في أن يكون قلمه كريشة المصور، فإننا نطالب الشاعر اليوم بألا يكون كالآلة

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٩٤.

المصورة فحسب، ولكنا نطالبه بأن يحدثنا عن إحساساته إزاء ما يريد وصفه[٢].

ولو أردنا التمثيل للذي أراده المرحوم أحمد أحمد بدوى لما وجدنا خيراً من الشاعر ابن المقرب، لكن أكثر القصائد في ديوانه لا تستقل بموضوعاتها وكل ما جاء فيه من وصف إنما هو نتف قليلة ومتفرقة تحت عناوين مختلفة ليس من بينها الوصف، وسنكتفى من ذلك بمثالين اثنين هما:

(١) وصف السفينة في القصيدة ٤٢ ص ٢٧٢:

وهي غير معنونة، لكنها تدور حول الفخر والحماسة والشكوى والندم على مدح من لايستحق، والعزم على الرحيل.

وفي البيت ٣٠ ينص الشاعر على وسيلة السفر بقوله:

ليبعدنى عنهم شد ناجية ... وجناء غفل من التوقيع والوقع
أو ذات قلع من العيناء ما عرفت ... في زجرها بِخَلٍ يوماً ولا هِدَعِ
ولا رغت عند حمل الثقل من ضجر ... ولا إلى هُبَعٍ حنت ولا رُبَع
تجرى مع الريح إن هونا وإن مرحا ... فنعم مطلعة من هول مُطَّلِعِ[٣]

البيت الأول وصف لسفينة الصحراء، فالناجية الوجناء هي الناقة السريعة الشديدة، والأبيات الثلاثة التالية وصف للسفينة الحقيقية، وقد تردد الشاعر في وصفها بين التحلية والتخلية: التحلية في وصفها بأنها ذات شراع في البيت الثاني وبأنها تجرى مع الريح إن هونا وإن

---

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٢٨١.

(٣) الناجية: الناقة السريعة، وناقة وجناء: شديدة، والتوقيع: التعريس، ونوع من السير يشبه التلقيف وهو رفع السائر يده إلى فوق، والمعنى: أنها غافلة عن الراحة لاتشتكى وعورة الطريق.

مرحا في البيت الرابع والتخلية في وصفها بأنها لا تزجر بما تزجر به صغار الإبل عند نفارها، وبأنها لاتكل عن حملها ولا تحن إلى فصيلها وقت عملها والوصف بتحليته وتخليته وصف إيمائى سطحى لا يشتمل على شيء من الدقائق الفنية ولا من الخصائص الموضوعية سوى (وذات قلع)، أما ماعدا ذلك فيمكن أن يكون وصفا لسفينة أو لناقة، ثم هو وصف تقريري لا نرى الشاعر فيه ملتصقا بموصوفه ولا متآخيا معه، نريد أن نقول: إننا لم نر الناقة أو السفينة في بؤرة شعور الشاعر ولا في هامشه، والوصف الجيد هو ما يتحول فيه الموصوف الخارجي من منظر في الطبيعة إلى حالة داخلية في نفس الواصف.

(٢) وصف الرحلة:

في القصيدة ٦٠ ص ٣٦٥ وهي في مدح الأمير الأجل أبي علي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي قال:

فكم خضت رجوى اليوم من لج مزبد يُظن اصطفاق الموج فيه مشاعلا

وهو وصف رائع للجزء البحرى من الرحلة، فقد وصف الأمواج بأنها مرغية مزبدة، وبأنها عاتية عاليه تحسبها لارتفاعها ولشفافيتها عند اصطفاقها مشاعل.

وكم جبت من موماة أرض ترى بها مع الآل حق العين والأذن باطلا

الموماة: المفازة المهلكة، والآل: السراب، وهذا البيت لايقل عن سابقه روعة خاصة وأن ما أمسكه الحس من مفازته إنما هو باطل وقبض الريح، أما الآل فيحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وكل ما يُرى بعد ذلك أو يسُمع فهو غير واصل إليه لتعطل حاستى السمع والبصر لديه، بفعل الإرهاق والتعب، وبسبيل من الإرهاق والتعب هذا التكثيف في الأشعة المنعكسة من حيوانات البرية على شبكة عينه، وبهذا التكثيف صار لا يرى الأشياء على حقيقتها بل مكبرة بارزة، فالحرباء

الرابضة على جذع الشجرة أو المتمددة فوق قمة الجبل أو أحد نتوآته تبدو له وكأنها عملاق مشبوح للعظة والعبرة، وإذا كانت الحرباء منفرة بحقيقتها فإنها بالخيال الذي حولها إلى قتيل مصلوب قد صارت منفرة أكثر، وشجاعته في اختراق المفازة لذلك أكبر، وتكرر هذا الإحساس مع الثعلبان الضامر، فقد بداله وكأنه فرس ضخم يعتلى كثيبا من الرمل أفرده وأبرزه، كما تكرر مع أفراخ النعام التي ظنها قوافل الجمال المحملة بالقلال.

والوصف هنا وجداني حدسي، تحول الشاعر فيه وبه من الظاهرة الموصوفة إلى انعكاسها عليه فصورها كما أحسها وشعر بها أي كما وصلت إليه وقد وصلت إليه وهو في ذروة توتره النفسي.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الحكمـــة

كـان حازم القـرطاجنى يـرى أن مجيء أبيات الحكمـة في القصيـدة بمنزلة التحجيل للفرس، وقـد شرح ذلك فقـال: «إذا كان التخييـل هو قوام المعانى الشعرية، فإن الإقناع هـو قوام المعـاني الخطابيـة، واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان ذلك عـلى جهة الإلمـاع في الموضع بعـد الموضـع، وإنما سـاغ ذلك، لأن النفـوس تحب الافتنان في مذاهب الكلام وترتاح للنقلة من بعض ذلك، والفن المراوح بين معانيه أفضـل من الفن الذي لا مـراوحة فيـه، لكن ينبغي أن تكون الأقـاويل المقنعة والواقعة في الشعر تابعة للأقاويل المخيلة، ومؤكدة لهـا فيما قصـد بها من الأغراض وأن تكون المخيلة هي العمدة، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تـابعة لـلأقاويـل المقنعة ومؤكـدة لمعانيها ومناسبة لها وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة»[1].

«وقد كان المتنبي يحسن وضع البيت الإقناعي بين الأبيات المخيلة، لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيلة ثم يختمها ببيت إقناعي يعضد بـه مـا تقـدم من التخييـل ويجم النفـوس لاستقبـال الأبيـات المخيلة في الفصل التالي فكان لشعره أحسن مـوقع من النفـوس، ويجب أن يعتمد مذهبه في ذلك فإنه حسن»[2].

---

(١) منهـاج البلغاء وسراج الأدبـاء ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ تـأليف حـازم القـرطـاجنى وتحقيق محمـد الحبيب بن الخوجة تونس سنة ١٩٦٦.

(٢) منهاج البلغاء ص٢٩٣.

ويحسن التنبيه إلى أن الأبيات الحكمية هي ما سماه رشيد الدين الوطواط بإرسال المثل وإرسال المثلين والكلام الجامع، يقول في إرسال المثل: ويكون ذلك بأن يذكر الشاعر مثلاً في بيته، ويقول في إرسال المثلين: وتكون هذه الصنعة بأن يذكر الشاعر مثلين في بيت واحد، أما الكلام الجامع فيتحقق بألا يترك الشاعر أبياته خلواً من الحكمة والموعظة الحسنة(٣).

وابن المقرب بحكمه المقنعة يصلح ـ كالمتنبي ـ أن يكون مثالاً لما قاله حازم، لكنه يكثر منها حتى ليمكن أن يكون تطبيقاً عمليا لما نادى به الوطواط نظرياً، ومهما يكن من أمر فلم تُؤسس قصيدة واحدة في ديوانه على الحكمة، إنها من الأغراض الفرعية دائماً، لكنها بطنت معظم موضوعاته وأكثر أغراضه وهي تتردد بين القلة والكثرة في القصيدة الواحدة على الوجه الآتي:

القصيدة رقم ١ ص١٣ وفيها من الشعر الحكمي البيتان ١٧، ١٨.
القصيدة رقم ٢ص ١٩ وفيها من الشعر الحكمي البيتان ١، ٤.
القصيدة رقم ٤ ص٢٦ وفيها من الشعر الحكمي البيتان ٥٠، ٦٨.
القصيدة رقم ٥ ص٣٥ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٣، ٣٥، ٣٩ ـ ٤١.
القصيدة رقم ٧ ص٤٧ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٥.
القصيدة رقم ٨ ص٥٢ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١٢، ١٥ ـ ٢١، ٢٣ ـ ٢٥.
القصيدة رقم ٩ ص٥٩ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١٠، ٣٥ ـ ٣٧.

---

(٣) حدائق السحر في دقائق الشعر تأليف رشيد الدين الوطواط وترجمة إبراهيم الشواربي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ القاهرة ولغته الأصلية هي الفارسية.

القصيدة رقم ١٠ ص٦٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٤ ـ ٧، ١٠ ـ ١٨، ٢٠ ـ ٢٢، ٧٧، ٧٨.
القصيدة رقم ١١ ص٧٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٩ ـ ١٣، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٦٦ ـ ٧٢.
القصيدة رقم ١٢ ص٨٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٤ ـ ٧.
القصيدة رقم ١٤ ص١٠٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١٢، ٤٢، ٤٣.
القصيدة رقم ١٥ ص١٠٥ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣ ـ ٧، ١٦، ١٧.
القصيدة رقم ١٧ ص ١٢٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٥، ٢٧ ـ ٢٩.
القصيدة رقم ١٩ ص١٣٢ وفيها من الشعر الحكمي البيتان ٤٩، ٥٠.
القصيدة رقم ٢٠ ص١٤٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ١٣، ٢٧ ـ ٣١، ٦٦ ـ ٦٩، ٧٢.
القصيدة رقم ٢١ ص١٤٩ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣ ـ ١٠، ١٢، ١٣، ١٥، ١٩ ـ ٢٥، ٣٠ ـ ٣٥، ٣٧، ٤٢ ـ ٤٥.
القصيدة رقم ٢٣ ص١٦٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٢ ـ ٧، ١٧.
القصيدة رقم ٢٤ ص١٦٧ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ١٢، ٣١ ـ ٣٥، ٣٨.
القصيدة رقم ٢٥ ص١٧٦ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٥ ـ ٧، ١٧ ـ ٢١، ٢٣ ـ ٢٥، ٤٠، ٤٣، ٤٧.
القصيدة رقم ٢٩ ص١٩٨ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٥٠ ـ ٥٢.
القصيدة رقم ٣٣ ص٢١٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٢٣، ٣٥، ٣٧.

القصيدة رقم ٣٦ ص٢٢٩ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٤ .
القصيدة رقم ٣٧ ص٢٣٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٤ ـ ٨ .
القصيدة رقم ٣٨ ص٢٤٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣ ـ ٥ ، ٨ ، ٩ .
القصيدة رقم ٣٩ ص٢٥٢ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٢ ـ ١٠ ، ١٣ ، ٢٨ .
القصيدة رقم ٤١ ص٢٦٦ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٢ ، ٣ ، ١٠ ـ ٢٠ ، ٥٠ .
القصيدة رقم ٤٢ ص٢٧٢ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٧ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٤ .
القصيدة رقم ٤٤ ص٢٨٣ وفيها من الشعر الحكمي البيت ٤ .
القصيدة رقم ٤٦ ص٢٩٢ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٣ .
القصيدة رقم ٤٨ ص٣١٦ وفيها من الشعر الحكمى الأبيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ .
القصيدة رقم ٤٩ ص٣٢٦ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣ ـ ٥ ، ٦ ـ ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ـ ٣٣ .
القصيدة رقم ٥٠ ص٣٣٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ ـ ٤٣ ، ٤٧ ـ ٤٩ .
القصيدة رقم ٥١ ص٣٤١ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٤١ ـ ٤٩ .
القصيدة رقم ٥٢ ص٣٥٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٧ ، ١٨ ، ١٩ .
القصيدة رقم ٥٤ ص٣٦٤ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٧ ـ ٩ ، ١٢ ، ١٧ ـ ١٩ ، ٤٥ ـ ٥٠ .

القصيدة رقم ٥٥ ص٣٧٠ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣٣، ٣٨ ـ ٤٣.
القصيدة رقم ٥٦ ص٣٧٨ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١، ٣ ـ ٧، ٩، ١١ ـ ١٣، ١٥.
القصيدة رقم ٦٢ ص٤١٣ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٨.
القصيدة رقم ٦٧ ص٤٤٨ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١، ١٩ ـ ٢٢، ٢٤، ٢٥.
القصيدة رقم ٦٨ ص٤٥٦ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٦ ـ ٩، ٦٧ ـ ٧٢.
القصيدة رقم ٧٠ ص٤٦٦ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١، ٦ ـ ١١.
القصيدة رقم ٧١ ص٤٧٣ وفيها من الشعر الحكمي البيتان ٦٢، ٧٥.
القصيدة رقم ٧٢ ص٤٨٣ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٧، ٢٣.
القصيدة رقم ٧٨ ص٥١١ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١ ـ ٤، ١٢، ١٤ ـ ٢٢.
القصيدة رقم ٨٠ ص٥٢٦ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٢ ـ ٢٢، ٢٤ ـ ٢٦.
القصيدة رقم ٨١ ص٥٥٤ وفيها من الشعر الحكمي البيتان ٢٥، ٣٤.
القصيدة رقم ٨٩ ص٥٩٤ وفيها من الشعر الحكمي البيت ٥٠.
القصيدة رقم ٩٠ ص٦٠١ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٥، ١٢، ١٣، ٣٤، ٣٥، ٥٥، ٥٧.
القصيدة رقم ٩٣ ص٦٢٣ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٨، ٩، ١٢، ١٣، ٢٥ ـ ٢٧، ٣٤.
القصيدة رقم ٩٦ ص٦٤٩ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ٣، ١٠ ـ ١٢.

القصيدة رقم ٩٧ ص٦٥٧ وفيها من الشعر الحكمي الأبيات ١٥ ـ ١٧، ٣٢ ـ ٣٨.

***

وننظر في هذه الحكم بغية تصنيفها وردها إلى مصادرها التي أوحت بها وساعدت عليها فنجدها موزعة هكذا:

١ ـ حكم حماسية تدعم مذهب القوة وهو مذهب دان به ابن المقرب ورآه مخرجا له وللدولة العيونية مما انزلقت إليه وتردت فيه من انحلال وضعف، ومن وضع للأمور في غير مواضعها، وقد استمدها من واقعه وواقع دولته، وكل من يقرأ ديوانه يرى كيف آده هذا الواقع وأثقل كاهله، ونمثل لذلك بمقدمة القصيدة رقم ٢٤ ص١٦٧ وقد قالها يمدح بها أبا علي بن عبدالله إبراهيم بن عزيز بن إبراهيم ويعرض ببعض المفسدين قال:

العزما خضعت لهيبته العدى ... وأقام بالفكر الملوك وأقعدا
والمال ما وقاك ذما أو بنى ... عليك أو أبقى لقومك سؤددا
والجود ما بلت به رحم وما ... أوليت ذا أمل أعدك مقصدا
واللؤم إكرام اللئيم لأنه ... كالذئب لم ير عدوة إلا عدا
والعزم ما ترك الحديد مفللا ... والخيل حسرى والوشيج مقصدا[٤]
والنبل فتكك بالمعادي غادرا ... أو وافيا مستنجدا أو منجدا
غدر يعز ولا وفاء معقب ... ذلا وجهل كف ذا جهل هدى
فإذا ظفرت من العدو بغرة ... فافتك ففتك اليوم منجاة غدا
والحلم في بعض المواطن ذلة ... فاصفح وعاقب واعجلن وتأيدا
ما كل حلم مصلح فلطالما ... غرَّ السفيه الحلم عنه وأفسدا

(٤) مفللا: مثلوما متكسرا، والوشيج: شجر الرماح ومقصدا: مكسرا.

كـل السيـادة في السخـاء ولـن تـرى ذا البخـل يـدعى في العشـيرة سيدا
ومن الخساسة أن تكـون على العدى غـيثـا وفي الأدنـين لـيثـا ألـبـدا

والقـراءة المتأنيـة لهذه الحكم تهـدى إلى أمـور كثيرة منهـا أنها نقـد سياسي واقتصادي واجتماعي، وهو نقد إيجابي هادف غرض صاحبه منـه الإصلاح والطب للأدواء السائدة لكن بطريقة غير مباشرة.

(٢) حكم مسالمة وادعة وهي حكم تمثل مرحلة تالية للمرحلة التي قـال فيها الحكم السابقـة، وإذا كانت الحكم الأولى مـوجبة، فـإن هذه الحكم سالبة أنطقه بها يأسه من استجابة قومه له، وإحساسه بـأن عنادهم موردهم مورد التهلكة، قال مفتتحا القصيدة رقم ٣٩ ص ٢٥٢:

دع الـدار بـالبحـرين تعفـو ربـوعهـا وسقهـا ولـو لم يبق إلا نسـوعـهـا
وخـلِّ أحـاديـث المـطامـع والمنى ألا إنمـا أشقى الـرجـال طـمـوعهـا
ولا تحسـدن فيهـا رجـالا بشبعهـا فخـير لها من ذلـك الشبع جـوعهـا
فـلابـدَّ للمنحى عـلى الـزاد وحده إذا مـا امتلا من هـوعـة سيهـوعهـا
وإن دولـة ولَّـتْ قـفـاهـا فـولها قفـاك فـأعيى كـل شيء رجـوعهـا
ولا تتعبن في نصـح من غـاب رشـده وهـوِّن فـخفـاض المبـاني رفـوعهـا
لـعـلَّ ذرى تهـوى فـتـعلو أسـافـل لـذاك فـرفَّـاع الـبرايـا وضـوعهـا
وبـع بـالـقـلى دار المـهـانـة والأذي فـما الـرابـح المغبـوط إلا بيـوعهـا

وتلتقى هـذه الحكم مـع الحكم الأولى في أن منبعهـما واحـد هـو المجتمع الأحسائى والدولة العيونية، ومـا أحسن قولـه في البيت الثالث عشر من القصيدة نفسها:

إذا نفـرت عن قـريـة طـير سعـدهـا فـما يُـرتجى إلا ببـخس وقـوعـهـا

وقوله في البيت الثامن والعشرين منها:

ولـيس لـنـا في الـدر إلا محـاره ولا في عـذوق النخـل إلا قـمـوعهـا

والحكمـة في البيتين ذاتيـة، لكنها مستمـدة من البيئـة البحـرانيـة، وكانت على عهد ابن المقرب بـل إلى عهد قـريب جداً تعيش عـلى التمر زراعة وعلى صيد اللؤلؤ تجارة.

(٣) حكم مستمـدة من تكوينـه النفسي وهو تكـوين طبقى لحمتـه أنـه أمـير، وسداه أنـه فقير ومضـطهد، قـال في القصيدة رقم ٤٢ ص ٢٧٢:

لأركـين إلى الأهـوال أعـظمـهـا هـولاً ومـا يحـفظ الـرحمن لم يـضـع
مـا أقبح الـذل بـالحـر الكـريم ومـا أسـوا وأقـبـح منـه الـعـز بـاللكـع
مـالى أجمجـم في صـدرى بـلابـلـه ومـنكـب الأرض ذو منـأى ومتـسـع
المـجـد أعـتـق والآداب بـارعـة وذروة المـجـد مصـطافى ومـرتـبـعـى
لا خـير في منـزل تشـقى الـكـرام بـه ويـلحق الـسيـد المتبـوع بـالـتبـع

والحكم هذه المرة تسامت الفخر، وتضخم الإحساس بالذات حتى ليضيق عنهـا إطارهـا، ويتنزى منهـا غضبها عـلى من أضاعـوا طريقـه، وأكلوا حقـوقه، وإذا نُـظر إلى هـذه الحكم وأمثـالهـا في حينهـا عـلى أنها حديث نفس أو ثورة نفس، فإننا ننـظر إليها بعـد ثمانيـة قرون من قـولها على أنها صورة نفس عزيزة مهتضمة.

(٤) حكم مستمـدة من الـتراث، وقـد تمثـل بمضمـونها بعـد أن طبعـه بطابعه وصـاغه صيـاغة جـديدة، لكنهـا برغم صيـاغتها الجـديدة تستدعى إلى أذهاننا مصدرهـا وتذكـرنا بـه، ولا يقتصر ذلك عـلى الحكمة بل على أغراض شعـره كلها، وابن المقـرب ليس بدعـا في ذلك، فكل شاعر كذلك، وأي شـاعر لا يتمـرس بالـتراث الأدبي يأتى شعره كسيحاً فجا، ومن هذا المنبع استمـد ابن المقرب حكـما كثيرة جداً، من ذلك قوله في القصيدة رقم ٨١ ص ٥٥٧:

وشَكْلَةُ السيف أمضى في العدوِّ وإن ... فُلَّتْ مضاربه من شكله القلم

فهو هو قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله في القصيدة نفسها:

بعد له والدم المهراق حصنها ... ولا يقردم إلا بقتل دم

فالشطرة الثانية مستمدة من قول الله تعالى ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾، ومن قول العرب (القتل أنفى للقتل).

(٥) حكم مستمدة من التراث ومن وقع الأحداث معا وهذا هو الطابع الغالب على حكمه كقوله في القصيدة رقم ٤١ ص ٢٦٦ وهي على منوال قصيدة قطرى بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى

قال بعد بيت المطلع مباشرة:

وعزما صادقا فلكم مضيق ... بصدق العزم صار إلى اتساع
ومن هاب المنية أدركته ... ومات أذل من فقع بقاع[٥]
أحفل بالفراق وكل شعب ... تصيره المنون إلى انصداع
وأرهب أن أموت وكل حيٍّ ... سينعاه إلى الأقوام ناع
يراع لفرقة الأوطان نكس ... ضعيف العزم أخلى من يراع
وكم من فرقة طالت فكانت ... بعيد اليأس داعية اجتماع

(٥) الفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة يقال للذليل: هو أذل من فقع بقرقرة، لأنه لا يمتنع على من اجتناه، أو لأنه يوطأ بالأرجل.

ونختم حكمه بهذه الأبيات الرائعة له وهي الأبيات ٤١ ـ ٤٩ من القصيدة رقم ٥١ ص ٣٤١ قال:

أيا نفس صبرا للبلايا فربما أتى فرج للمرء والمرء غافل
فكم ضاق أمر ثم وافى اتساعه وما عاجل إلا ويتلوه آجل
وقد يأمن النقص السها لا حتقاره ويخشى الخسوف البدر والبدر كامل
وليس عجيبا أن يحقر عالم لدى جاهل أو أن يوقر جاهل
فقد ربما للجد يكرم ناهق فيخلى له المرعى ويحرم صاهل
وقد يلبس الديباج قرد ولعبة وتُلوى بأعناق الرجال السلاسل
وما الدهر إلا فرحة ثم ترحة تناوبها الأيام والكل زائل
فقرى حياء واطمئنى جلادة فأي كريم سالمته الغوائل

إلى آخر ما قال، وهي حكم تقع في ذواكرنا على بعض الآيات القرآنية، والآبيات الشعرية، والحكم الشائعة.

فمن الآيات القرآنية:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا...﴾.
﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسرا﴾.
﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس...﴾.
﴿كل من عليها فان﴾.

ومن الأبيات الشعرية:

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال
ربما تكره النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحل العقال
لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى
وكأن الزمان أصبح محمو لاً هواه مع الأخسِّ الأخس

ينـال الفتى من عيشه وهـو جـاهـل ... ويُكْـدِى الفـتى في دهـره وهـو عـالم
ولـو كـانت الأرزاق تجـرى عـلى الحجـا ... هـلكـن إذاً مـن جـهـلن البـهـائـم
ذو الـعقـل يـشقـى في النـعيـم بعـقـله ... وأخـو الجـهـالـة في الشـقـاوة ينـعـم
أفـاضـل النـاس أغـراض لـذا الـزمن ... يخـلو من الهـم أخـلاهم مـن الـفـطن

ومن الحكم الشائعة:

الصبر طيب.
اشتدى أزمة تنفرجى.
إن غداً لناظره قريب.
من مأمنه يُؤتى الحذر.
ويل لعالم أمر من جاهله.
قيراط حظ أنفع من فدان شطارة.
يُعطى القرط من ليس له أذنان.
الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك.
لافرح يدوم ولا حزن يدوم.
المؤمن مُبتلى.

***

أمـا بعد. فـإن حكم ابن المقرب ـ وهى أحـد مضامينـه الشعـريـة المهمـة ـ في حـاجـة إلى دراسـة مستفيضـة ومستقلة، تثبتهـا وتضبـطهـا وتشرحها وتردها إلى مصادرها من نفس صاحبها، ومن ظروفـه المحيطة به، ومن قراءاته ومكونات ثقافته، ثم تصنفها تبعاً لذلك.

هذا ما ينبغي لحكم ابن المقرب، بل مـا ينبغي لكثير من مضـامينه الشعرية، ولم يمنعنى من تنفيـذ ما أقـترحه بشـأن حكمه وغـيرها إلا أننى

أدرسها في هذا الكتاب دراسة عامة لاخاصة، فهى تأتى ضمن أغراضه أولاً، ومن خلال تجربته ثانياً، وكلّ أمل في أن يقدرنى الله أو يقدر غيرى على تنفيذ ذلك مستقبلا. إنه على كل شيء قدير هو نعم المولى ونعم النصير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

غـــرض فـــذ

يظهر أن الحالة الاقتصادية في الدولة العيونية كـانت قد وصلت إلى حد كبير من التدهور وأن هذا التدهور كانت لـه آثار سيئـة على أخـلاق الناس في المجتمع البحرانى، دليل ذلك تفشى الرشوة به.

سجـــل ابن المقـرب ذلـــك في مقـطوعتـــه الـــواردة تحت رقم ٨٦ ص ٥٧٨ من ديـوانه، وقـد جاءت هـذه المقـطوعـة دون عنـوان، ومن السهل وضعه لها بعد أخذه منها وعـلى وجه التحـديد من البيت الثـاني، والعنـوان المقترح هـو (الهديـة) أو (عليك الهـدية) كـما قـال الشـاعـر، والمقطوعة هي:

ألا قـل لمـن أرهـقـتـه الـذنـوب ... وخـاف من الـدهـر خـطبـا جسيـما
عـليـك الهـديـة إني رأيـ ... ـت لها عندنـا اليوم شـأنـا عـظيـما
تجـير لـذى الحـمـق أنَّ أرا ... دحـمـقـاتـه وتـعـز الـلئـيـما
وتـبرى الـسـخـائـم حـتى تـر ... يـك أعـدى عـدو ولـيـاحـمـيـما
وأيسر شيء يحـل الـعـقـو ... د ويصبـح مهـديـه مـوسى الكليـما
فـبـالـشـاة يـصـفـع زيـدأخـا ... ه في مصرنـا ويُـفَـرِّى الأديـما
ويـضـحى الـذي أنـفـه في الـتـخـو ... م يـطاول من يـتـمـطى الـنـجـومـا
فـكـم مـن بـطيـطيـخـة بـرَّدتْ ... لـوافـح من قبـل كـانـت سمـومـا
وكـم حُـلَّةٍ عـمـرَّتْ مـنـزلا ... وأبـقـت مـنـازل قـوم رسـومـا
فـلا تحـقـرن قـلـيـل الـرُّشـا ... فـريـح الـدواء تحـيط الـكـلومـا

انتهت المقطوعة وهى من الأدب التصويرى الهادف، أجل إن مضمونها هزل، لكنه هزل يراد به الجد، سلط الشاعر فيه وبه ملاحظته الدقيقة على زاوية معتمة من زوايا مجتمعه فأبرزها للعيان فيما يشبه مانسميه الآن بالأدب غير المعقول، ويسميه أصحابه بالأدب اللامعقول، وسر تسميته بهذا الاسم أن الأديب يركز فيه على ظاهرة مثيرة ـ ويغلب أن تكون غير صحية ـ حتى يبلورها ويظهرها متحملة عقابيلها وعواقبها، بحيث لايسع من يقع عليها إلا أن يقول: «غير معقول». وهذا بالضبط هو رد الفعل لقراءة هذه المقطوعة من شعر الشاعر علي بن المقرب[1].

(١) أطلق بعض النقاد مصطلح (اللا معقول) على نوع من المسرحيات تدور أحداثه في حدود عالم يقدمه المؤلف على أنه لا معقول، ويفضى بدوره إلى اللا معقول، ولابد أن يكون للا معقول مضمون فلسفى، ومادام الأمر كذلك فإن الأدب اللا معقول أدب هادف، لأنه يحمل مستقبليه على الاشمئزاز، ومن ثم على التخلى عن اللا معقول إن كانوا ممن يتصفون به أي ممن يمارسونه، وعن الحرص على عدم الوقوع فيه إن لم يكونوا من مقار فيه.
وانظر كتاب (في الأدب الفرنسى المعاصر) للدكتورة ساميه أحمد أسعد ص ٣١٥ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م.
و(في حياتنا العقلية) للدكتور زكي نجيب محمود ص ٣٦ طبعة دار الشروق ـ بيروت سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م الطبعة الأولى، وكتابه الآخر (المعقول واللامعقول في تراثنا الفكرى) طبعة دار الشروق سنة ١٩٧٨م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تعقـــيب

طال هذا الفصـل إلى الحد الـذي لم أتوقعـه، وكلانـا ـ ابن المقرب وأنا ـ مسئول عن هذا الطول:

لقد كان ابن المقرب فياض الشاعرية قوى الحضـور، فقال في كـل الفنـون التي سبقـه الشعـراء إلى القـول فيهـا، وزاد عليهم مـادعتـه إلى الخوض فيه ظروفه الخاصه به.

وكان أميرا، لكنه أُضيم فتعذب، واغترب، وتحول إلى رأس حربة في معارضة الحكم، وأضاف إليه ذلك عبئاً قولياً ما كان أغناه عنه، لكنه قدره، وحظ الشعر منه ومعه.

***

أما أنا فحرصت على أن أنوه بكل ما نظمـه في أي غرض لـه، وقد جاءت دراستي ـ لذلك ـ استقرائيه، لم أكتف في فنٍ من فنونه بنموذج أو نموذجين من قصيدة أو قصيدتـين، بل ذكـرت ـ وأكاد أقـول: درست ـ كل قصائد هذا الفن.

ثم لم أتـرك غرضـا إلا أثبتـه وشرحتـه ومثلت لـه، ولـو كـان هـذا الغرض تبعاً كتقريظ شعره، أو نادراً كالذى عنونته بالغرض الفذ.

ولئلا أزيد الطول طولا، أكتفى في هذا التعقيب بما قلت.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصـــل الرابـــع
البنـاء الفـنى لقصيـــدة ابن المقـرب

* **وحـدات القصيـدة :**

(أ) فـي النقـــد .
(ب) عنـد ابن المقـرب .

* **الوحـدة العضـــوية :**

(أ) في النقـــد .
(ب) عنـد ابن المقـــرب .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وحـــدات القصيـــدة

لا يأخذ البناء الفني للقصيدة عند ابن المقرب سمتا واحداً، فمنها ما يقوم على مقدمة طللية، كما في القصائد: ٤٧ ص ٣٠٥، ٩٠ ص ٦٠١، ٩٢ ص ٦١٨.

ومنها ما يقوم على مقدمة غير طللية، بل مناسبة لخواطرها ودوافعها الشعرية، كما في القصائد: ٢ ص ١٩، ٤ ص ٢٦، ٧ ص ٤٧، ٨ ص ٥٢، ١١ ص ٧٤، ١٢ ص ٨٤، ١٤ ص ١٠٠، ١٥ ص ١٠٥، ١٧ ص ١٢٠، ٢٠ ص ١٤٠، ٢٣ ص ١٦٠، ٢٤ ص ١٦٧، ٢٦ ص ١٨٢، ٢٩ ص ١٩٨، ٣٦ ص ٢٢٩، ٣٨ ص ٢٤٠، . . . . . ٩٦ ص ٦٤٩.

ومنها ما يدلف ابن المقرب فيه إلى غرضه مباشرة، أي دون مقدمة طللية كانت أو غير طللية، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: القصائد ١ ص ١٣، ٣ ص ٢٣، ٥ ص ٣٥، ٩ ص ٥٩، ١٠ ص ٦٤، ١٣ ص ٩٢، ١٦ ص١١٢، ١٩ ص ١٣٢، ٢١ ص ١٤٩، ٢٥ ص ١٧٦، ٢٧ ص ١٩١، ٣٠ ص ٢٠٧، ٣٤ ص ٢١٩، ٣٧ ص ٢٣٤، ٣٨ ص ٢٤٧، ٤٨ ص ٣١٦، ٤٩ ص ٣٢٦، ٥٠ ص ٣٣٤، ٥١ ص ٣٤١، . . . . . ٩٧ ص ٦٥٧.
والموقفان السابقان لابن المقرب، وهما افتتاح قصيدته بمقدمة مناسبة، وافتتاحها دون مقدمة، هذان الموقفان معدودان من مظاهر التجديد في شكل القصيدة عند ابن المقرب.

وبعد المقدمة ـ إن وجدت ـ نصادف وصفا مختصراً لرحلة الشاعر من البحرين إلى العراق إن كانت القصيدة مما نظم في العراق، ومن العراق إلى البحرين إن كانت مما نظم في البحرين، وهذا الوصف يشبه مقدمة القصيدة في أنه غير ثابت وغير مطرد، وإذا وجد فيغلب أن يكون وصفا لرحلة بحرية برية إن كانت من العراق، وبرية بحرية إن كانت من البحرين.

وقد استتبع وصف الرحلة وصف ما يتعلق بها كبيئتها، أو كوسيلتها وهي الناقة أو الفرس أو هما معاً إن كانت الرحلة برية والسفينة إن كانت بحرية.

نجد ذلك في القصيدة رقم ١٣ ص ٩٢، وهي في مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله.

مطلعها:

اليوم سُرَّ العلا واستبشر الأدب ... وأحمدت سيرها المهرية النجب

ومنها في وصف الصحراء التي سلكها خائفاً من جنها وتهاويلها:

فكم لذا اليوم من دوية قَذَف ... قطعت والقلب في أهوالها يجب
تبدوبها الجن لى حيناً وآونةً ... تبث أضواءها حولي وتنتحب
فحين أكثرت التهويل قلت لها ... هذا التهول جد منك أو لعب
حسبى أبو جعفر مما يدب على ... وجه البسيطة أو يعتر أو يثب[1]

ونجده في القصيدة رقم ٨٤ ص ٥٧١، وهي في مدح الأمير شمس الدين أبي شجاع باتكين قال:

أرى المعالي تقتضى عزمتى ... تعسف البيد وخوض الطوام[2]

---

(١): المعتر من الرجال: الغليظ الضخم، وعند العامة: الشرير.

(٢): تعسف المفازة: قطعها ولم يتوخ طريقا مسلوكا، والطوام: البحار العالية الموج.

بكل مطلى الملاطين لم يجرب ولم يرع بمرعى السوام
تسوقه الريح وتحتثه الـ ـجلُّ وفي الوجعاء منه الزمام
لا يعرف الإعياء في سيره ولا يبالى أمضى أم أقام
وقد تساوى عنده في المدى يوم وأسبوع وشهر وعام
إذا يمس الأرض في جريه خيف على راكبه الاصطلام[٣]
أو كل روعاء عزيزية تزف بالرحل زفيف النعام
يصحبها أجرد عرض النسا قصير الارساغ طويل الحزام
كيما ألاقي ملكا عنده للماجد الأحساب مثلى مقام[٤]

وينتهى الوصف ليبدأ الغرض الأصلى من القصيدة وحده قليلا، ومع حشد من الأغراض الفرعية كثيراً.

ثم يختم قصيدته بتقريظ شعره أو بالدعاء لممدوحه أو بهما معاً إن كانت القصيدة في المدح، وبغير ذلك مما يتحقق به حسن المقطع إن كانت في غير المدح.

وإذا كان النقاد قد ركزوا في البناء الفني للقصيدة على وحداتها الثلاث وهي المطلع والتخلص والخاتمة، وانتهوا من ذلك إلى قواعد فنية

---

(٣) الملاط: مايملط به الحائط أو الجنب، وهو يعنى هنا جانبى السفينة. يجرب: يصيبه الجرب.
الجل: الشراع، والوجعاء: يعنى بها هنا مؤخر السفينة. الاصطلام: الاستئصال.

(٤) الروعاء: الناقة الحديدة الفؤاد، وبنو عزيز قبيلة من العرب تنسب إليها كرام الإبل، زفيف النعام: إسراعه في عدوه.
عرض النسا: قويه صلبه، والنسا: عرق من الورك إلى الكعب، والرسغ: الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من الرجل.

طبقوها عليها، وإلى مقاييس نقدية قاسوها بها، فإن من تمام دراستنا للقصيدة عند ابن المقرب أن ننظر فيما كان منه مراعاة أو مجافاة لهذه المقاييس النقدية ولتلك القواعد الفنية.

ونبدأ من ذلك بمطلع القصيدة، وقد سميناه منذ قليل مقدمتها، فنسأل عما ينبغي أن يراعى فيه ليكون مطلعاً جيداً.

ونتلقف الإجابة عن سؤالنا من أكثر النقاد العرب إيضاحا بل إلحاحا على هذه المسألة وهو حازم القرطاجنى الذي ولد ومات في القرن السابع الهجرى، وملعوم أن ابن المقرب قد واكب بإنتاجة الشعرى الثلث الأول من هذا القرن.

وإذا كنا سنعتمد حازماً ناقداً يصحبنا في رحلتنا عبر وحدات القصيدة عند ابن المقرب، فإننا لن نقتصر عليه وحده، بل سنشفع رأيه بآراء أخرى لنقاد آخرين لهم وزنهم، أو على الأقل لهم اهتمامهم ببناء القصيدة العربية بناء فنياً.

(١) يرى حازم أن تحسين الاستهلال والمطالع من أحسن الأمور في صناعة الشعر، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها المنزلة من القصيدة منزلة الغرة من الوجه، تزيد النفس بحسنها ابتهاجها ونشاطا لتلقى ما بعدها إن كانت بنسبة من ذلك، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها.

وعنده أن الإبداع في المباديء لا يخلو من أن يكون راجعا إلى ما في الألفاظ من حسن مادة واستواء نسج ولطف انتقال وتشاكل اقتران وإيجاز عبارة، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في الألفاظ.

أو إلى ما في المعاني من حسن محاكاة ونفاسة مفهوم وتطبيق مفصل بالنسبة إلى الغرض، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في المعاني.

أو إلى ما في النظم من إحكام بنية وإبداع صيغة ووضع، وما ناسب ذلك مما يحسن في النظم.

أو إلى ما في الأسلوب من حسن منزع ولطيف منحى ومذهب وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في الأساليب.

وهو ينبه إلى أن من الكلام ما له صورة تجعله لائقاً أن يكون مفتتح قول، ومنه ما ليس كذلك، ويجب أن يجتلب القول للمباديء من النوع الأول[٥].

وبعد هذا التعميم يدخل في التخصيص، فيتكلم عن البيت الأول من القصيدة على اعتبار أنه المطلع، ويميل إلى أن يصرع، ذاهبا إلى أن للتصريع طلاوة وموقعاً من النفس، لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها، ويستدل على ذلك بقول أبي تمام:

وتقفولى الجدوى بجدوى وإنما يروقك بيت الشعر حين يصرع[٦]

٢ ـ وجلال الدين القزويني المتوفى سنة ٧٣٩هـ يستحث الشعراء ـ كحازم ـ على التأنق في حسن الابتداء، لأنه أول ما يقرع السمع، فإذا كان عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى، أقبل السامع على الشعر فوعي جميعه، وإن كان بخلاف ذلك رفضه وأعرض عنه، وأحسن الابتداء ما تحقق فيه مع ما ذكره مناسبة المقصود، ويسمى في هذه الحالة براعة الاستهلال، وهي فوق حسن الابتداء[٧].

٣ ـ ويحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩هـ يطالب الأدباء بحسن

---

(٥) منهاج البلغاء ص٣٠٩.

(٦) منهاج البلغاء ص٢٨٢.

(٧) الإيضاح ص٣٠٤ ـ ٣٠٨.

الابتداء، ويراه ركنا من أركان البلاغة، ولا عجب، فقد سئل بعضهم عن أحذق الشعراء فقال:

من أجاد الابتداء والمطلع[٨].

ومن حسن الابتداء ما سماه الإرصاد، وهو أن يكون أول الكلام مرصداً لفهم آخره ومشعراً به، والشعراء المفلقون يفتخرون بما يقع لهم منه، وقد جرت العادة عند إنشاد الشعر بانتهاب عجز البيت من لسان منشده قبل ذكره لمَّا كان المعنى مفهوماً قبل ذكره، هذا هو المقصود بالإرصاد، ومثله قول بعض الأدباء:

ولربما اعتصم الحليم بجاهل لا خير في يمنى بغير يسار

فهذا إذا قرع السامع صدر البيت ووقف على قوله «لا خير في يمنى» فإنه يتحقق أن لابد من ذكر اليسار لا محالة لما فيه من الملاءمة له[٩].

٤ ـ ويحتفل ابن حجة (٧٦٧ ـ ٨٣٠هـ) في كتابه (ثبوت الحجة على الموصلى والحلى) وهو الكتاب المشهور خطأ باسم (خزانة الأدب)[١٠]، نقول: يحتفل ابن حجة في هذا الكتاب بحسن الابتداء وبراعة الاستهلال أيما احتفال، فهو يجعلهما من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولعله لهذا كان مطلع بديعيته قوله:

لى في ابتدا مدحكم يا عرب ذى سلم براعة تستهل الدمع في العلم

ومن حسن الابتداء عنده تناسب قسمى المطلع، فبيت امريء القيس:

---

(٨) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز طبعة دار الكتب الخديوية ١٣٣٢هـ ١٩٩٤م جـ٢ ص٢٦٦ ـ ٢٦٧، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٩) الطراز جـ٢ ص٣٢٠ ـ ٣٢٨.

(١٠) انظر (النقد الأدبي في العصر المملوكي) للمؤلف ص١٥٣ طبعة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٢م.

قفـانبـك من ذكـرى حبيب ومنـزل بسقط اللوى بين الدخـول فحومـل

هـذا البيت على تقـدمه وكـثرة معانيـه متفاوت القسمـين جـدا لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكـثرة المعاني، وليس في الشطر الثاني شيء من ذلك(١١).

***

نكتفي بهذا القدر من آراء النقـاد فيما ينبغي أن يكـون عليه مـطلع القصيدة، وننظر في أحد مطالـع ابن المقرب، لنـرى إلى أي حد تنـطبق عليه هذه المقاييس، وكلها كـما نرى مقـاييس جودة، ونقلب صفحـات ديوانه متفادين ـ قدر الإمكان ـ تلك القصائد التي درسناها أو عرضنا لها حتى لا تتكرر النماذج المستشهد بها على بعض الحقائق في هذه الدراسة، فتستـوقفنـا القصيـدة رقم ٧ ص٤٧ وهي في مـدح الأمـير محمـد بن أبي الحسين أحمد وقت تملكه الأحساء.

مـطلعها ـ كمعـظم مطالـع ابن المقـرب ـ مصرع، وهـو متنـاسب القسمـين جدا، ومـا بعده إلى البيت التـاسع مقـدمة مشعـرة بمـوضـوع القصيدة وبجزئياتها ودقائقها، فهى تـرسم المثل الأعـلى للرجل الجـاد، وتعطى سماته وملامحه، بل همومه ومشاغله قال:

منـال العـلا بـالمرهفـات القـواضب وسمـر العـوالي والعتـاق الشـوازب
وطـعن إذا مـا الـنـقـع ثـار وأقبـلت بنـو الحـرب أمثـال الجـمال المصـاعب
وضرب يـزيـل الهـام عن كـل مـاجـد عـلى الهـول مقـدام كـريم المنـاسب
ولـيس ينـال المجـد من كـان همـه طـروق الأغـاني واعـتنـاق الحبـائب
ولا بـلغ الـعـليـاء إلا ابـن حـرة قـليـل افتكـار في وقـوع العـواقب
جـريء عـلى الأعـداء مـرمـذاقـه بعيـد المـدى جم النـدى والمـواهب

(١١) ثبوت الحجة على الموصلى والحلى ص٦.

حليف سرى جواب أرض تجاوزت ... به العيس أجواز القفار السباسب
وخاضت به الخيل النجيع وحطمت ... عواليه قسراً في صدور الكتائب
تعلم من فعل الأمير محمد ... فأصبح ملكاً في أجل المراتب[١٢]

وحين نعرض الأبيات السابقة على مقاييس جودة المقدمة نجد أنه قد تحقق فيها كل ما طالب به النقاد لها من انتقاء مادة، واستواء نسج، وإيجاز عبارة، وما إلى ذلك مما يستحسن في الألفاظ.

ومن صدق محاكاة ونفاسة مفهوم وتلاحم مضمون، وما إلى ذلك مما يستحسن في المعاني.

ومن إحكام بنية وإبداع صيغة ودقة أداء، وما إلى ذلك مما يستحسن في النظم.

ومن لطيف مذهب ووضوح منزع وبراعة ترتيب، وما إلى ذلك مما يستحسن في الأساليب.

ومن مناسبتها ـ وهي حماسية تمجد القوة وتلخص مقومات العظمة في الإنسان العظيم ـ لغرض الشاعر وهو مدح أميره الذي لم يسبقه إلى قلبه أمير قبله، ولا لحق به فيه أمير بعده.

والمقدمة لذلك نموذج مصغر للبطل الذي هو ملء قلب الشاعر وعقله، إنها خريطة متقنة لشخصيته مع ملاحظة أن مقياس الرسم في الخرائط قد يكون ملليمترا واحدا لألف كيلومتر على الطبيعة، وقد صَدَقَتْ في حدسها ما جاء بعدها، وفي إرهاصها به حتى لنلقف منها

(١٢) الشوازب: جمع الشازب وهو الخشن والضامر اليابس. السباسب: جمع السبسب وهي المفازة، النجيع من الدم: ما كان إلى السواد، أو دم الجوف، والعوالي: الرماح.

بسهولة اسم وشخص الأمير محمد ابن أبى الحسين أحمد، فهو هو ابن الحرب صاحب الضرب.

وهو هو المقدام كريم المناسب الذي ليس من همه طروق الأغاني واعتناق الحبائب.

وهو هو ابن الحرة قليل الافتكار في وقوع العواقب.

وهو هو الجريء على الأعداء مر المذاق بعيد المدى جم الندى والمواهب.

وهو هو حليف السرى جواب الأرض الذي تجاوزت به العيس أجواز القفار السباسب.

وهو هو الذي خاضت به الخيل الدماء وتحطمت رماحه في صدور الكتائب.

وإذا كانت المقدمة قد كشفت عن شخصية البطل وأعطت مشاعر الشاعر نحوه، فإن من حقنا أن نعدها شكلاً من أشكال الإرصاد الذي شرحه العلوى، وحالةً من حالات مطابقة الكلام لمقتضى الحال كما قال ابن حجة.

***

وننتقل إلى إيقاع الأبيات لتلقانا الألفات المحلقة في (منال) و(العلى) و(المرهفات) و(القواضب) و(العوالى) و(العتاق) و(الشوازب) بالبيت الأول، وقد نجح الشاعر بهذا التمديد في الفتحات حتى تحولت إلى ألفات في أن يرتفع بنا عن واقع حياتنا، وفي أن يطلق العنان لطموحنا كى ندرك شأوبطله القابع في ضميره طىَّ تجربته الشعورية، والماثل في مقدمة تجربته الشعرية.

ومن قمة (العلى) وذرى (المرهفات القواضب) و(سمر العوالى) و(العتاق الشوازب) ينصب البطل بالطعن والضرب، ولأن في (الطعن) و(الضرب) معنى الوقع والقطع جاءت الموسيقى فيهما وفيما صحبهما من (النقع) و(أقبلت) و(الحرب) و(يزل) و(عن) و(كل) و(الهول).

جاءت الموسيقى في هذا كله وفي مثله قصيرة وموحية بمعاني الكر والسرعة وحطم الأعداء ولو كانوا أمجاداً أقوياء أصحاب مناسب.

والكلام لا ينفد عن مدى توفيق الشاعر في هذه المقدمة المتطورة بمضمونها، فهي ليست مقدمة طللية تقليدية يفتح بها الشاعر نفس ممدوحه على شعره ليجذبه إليه، ويعطفه عليه فيجزل عطاءه ويحسن مكافأته.

وكنت قد نوهت في الفصل السابق بتجديد ابن المقرب في مقدمات قصائده، وذكرت أن تجديده هذا لا يقل في حيويته وطرافته عن تجديد أبي نواس في مقدمات قصائده حين عدل بها عن ذكر الأطلال والوقوف بها إلى وصف الخمر وشربها.

فلنضف هنا أن ابن المقرب يفضُل أبا نواس في هذا الشأن لأنه حين جعل مقدمات قصائده ملائمة لموضوعات شعره، فعل ذلك في أدب ودون سخط أو جلبة، ثم هو قد أخذ نفسه به في جميع شعره، لا نستثنى من ذلك سوى ثلاث قصائد سبقت الإشارة إليها، ويمكن القول لهذا بأن دوافع التجديد عند ابن المقرب كانت فنية، أما أبو نواس فلأن دوافع التجديد عنده شعوبية أكثر منها فنية جاءت قصائده قسمة تكاد تكون متساوية بين المقدمة الطللية والمقدمة الخمرية النواسية، وقد فعل ذلك في شيء غير قليل من القحة والجلبة.

ومن المقدمة إلى التخلص.

وقد عرفه ابن أبي الإصبع المصري (كان موجوداً إلى سنة ٦٥٤هـ) بأنه امتزاج آخر ما يقدم الشاعر على المدح من نسيب أو نحوه بأول بيت في المدح، وهو عنده من المحاسن، أي من مقاييس جودة الشعر، ومن الدقائق التي تخفى على غير الحذاق في النقد[١٣].

أما حازم فقد عقد له معرفا خاصاً به ثم عقب عليه بمأم عنه، وقرر في كل من المعرف والمأم أن التخلص قد يتأتى في شطر بيت أو في بيت بجملته أو في بيتين، وأنه كلما قرب السبيل في ذلك كان أبلغ.

والأمور التي أوجب اعتمادها في التخلص الحسن هى التحرز من انقطاع الكلام ومن التضمين والحشو والإخلال واضطراب الكلام وقلة تمكن القافية والنقلة بغير تلطف، والاضطرار في ذلك إلى الكناية عما ينبغي التصريح به أو العكس، ثم التلطف فيما يوقع الكلام في أحسن مواقعه ويجريه على أقوم مجاريه من أضداد هذه الأشياء[١٤] والتخلص الحسن كثير في شعر ابن المقرب، وإذا كان حازم قد قرر أن التخلص الحسن يتأتى في نصف بيت وفي بيت وفي بيتين، وأنه كلما قرب السبيل في ذلك كان أبلغ، فإن ابن المقرب قد تخلص تخلصا حسنا فى أقل من نصف بيت حين تخلص من المقدمة إلى المدح بجملة فعلية فعلها ضمير مستتر، ونجح في أن يجعل آخر بيت في المقدمة هو هو أول بيت في المدح بلا فاقد أي فاقد في عملية الربط وهو البيت التاسع من المقدمة السابقة:

تعلم من فعل الأمير محمد فأصبح ملكا في أجل المراتب

***

(١٣) تحرير التحبير ص ٤٣٣.

(١٤) منهاج البلغاء ص ٣٢١.

ومثل التخلص السابق في الحسن إن لم يفقه التخلص في القصيدة رقم ٤٦ ص ٢٩٢ وهى في مدح الأمير الأشرف موسى بن محمد العادل بن أبي بكر محمد بن أيوب من ملوك الدولة الأيوبية بالشام ومصر.

مقدمتها غزلية حماسية فيها حنين الشاعر إلى مسقط رأسه (العيون) وفيها الحوار الذي دار بينه وبين رفقته في رحلته من البحرين إلى الملك الأشرف بالشام وقد شغل الأبيات من ٢٠ ـ ٢٨ قال:

أقول لهم والعيس تسدو كأنها ... بنا بين أجزاع المرار النقانق
صلوا الليل وخداً بالمطايا فإنها ... شوارف بزل ليس فيها حقائق
فقالوا: رويداً بالمطى فإنها ... رذايا وذا يوم من الحر ما حق
فقلت أبقياً كل هذا ورأفة ... عليها وهل للسير إلا الأيانق
فميلوا عليها بالسياط وعرفوا ... ذوى الجهل منا كيف تحوى الوسائق
وعدوا وردوا عن كظيم ونكبوا ... غضايا فما بالنوم تطوى السمالق
ولا تردوا إلا التقاطا ولو أتى ... ظماها على أجرانها والودائق
فإن هى للوفراء تاقت فإنني ... إلى مورد عذب بحران تائق
إلى مورد لا يعرف الإجن ماؤه ... ولانبتت في حافتيه الغلافق
جرى من يمين الأشرف الملك ماؤه ... فكل خليج منه للعين رائق[١٥]

---

(١٥) الناقة تسدو: يتسع خطوها، والجزع: منقطع الوادى أومنحناه، والمرار: شجر من أفضل العشب وأضخمه.
والنقنق: الظليم أو النافر أو الخفيف، يشبه الناقة في إسراعها بالظليم في سرعة عدوه.
جمل واخد ووخاد: سريع الخطو، والشارفة من النوق: المسنة الهرمة، والبازل: البعير انشق نابه، والحق من الإبل (بكسر اللام) الطاعن في الرابعة للذكر والأنثى، والناقة الرذية هي الضعيفة الهزيلة.
والوسيقة من الإبل كالرفقة من الناس، استوسقت الإبل: اجتمعت.
كظم البعير: أمسك عن الجرة، ونكب الشيء: نحاه، وبعير غاض: يأكل الغضا وبعير غض: اشتكى بطنه من أكلها.
الجران من البعير: مقدم عنقه، والوديقه: شدة الحر.

ونلاحظ هنا ما لاحظناه في القصيدة رقم ٧ ص ٤٧ وهو وصل التخلص بالمقدمه دون انقطاع الكلام ودون تضمين أوحشو فالبيتان ٢٧ ، ٢٨ وهما البيتان الأخيران في المقدمة قد اشتملا على موازنة بين الشاعر ونوق الرحلة يقول: إنها إن تاقت إلى المراعى الخصبة في أي مكان، فإنني تائق إلى مورد عذب بحران، والمورد في هذا البيت موصوف مرتين: مرة بمفرد هو (عذب)، ومرة بشبه جملة هو (بحران)، ولم يكتف الشاعر بذلك بل مضى في البيت ٢٨ فوصف المورد مرتين بجملتين فعليتين هما (لايعرف الإجن ماؤه) في الشطرة الأولى، (ولا نبتت في حافتيه الغلافق) في الشطرة الثانية، ويأتى البيت ٢٩ وشطره الأول وصف خامس للمورد بأنه (جرى من يمين الأشرف الملك ماؤه) وهو أول المدح، فلا انقطاع في الكلام ولا حشو ولا تضمين إنما هو التخلص البليغ بشرط حازم في بلاغة التخلص.

***

ويأخذ حسن التلخص في الاتساع في القصيدة رقم ١٢ ص ٨٤ وهى في مدح الأمير أبي منصور علي بن محمد بن علي بن عبدالله، يتغزل الشاعر أولا، ويصف الصحراء ثانياً، وبعد الوصف تأتي الحكمة فتشغل البيتين ١٨، ١٩ وهما:

ولقد حلبت الدهر أشطر نابه ... وعرفت ما يبدى وما يتغيب
فإذا مودة كل من أصفيته ... ودى لدى الحاجات برق خلب

ثم تكون وقفة لطيفة مقدارها بيت واحد قاله الشاعر الحكيم ناصحاً وهو في الوقت نفسه تخلص حسن قال:

ياهاجر الأوطان يطلب ماجداً ... يلجا إليه من الزمان ويهرب
انزل على الملك الذي بفنائه ... تُلقى الرحال ويستريح المتعب

***

وفي القصيدة ٦١ ص ٤٠٦ وهى في مدح الأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة، نجد تخلصاً حسنا كأحسن ما يكون التخلص الحسن وأبلغه، بدأ بالغزل، وثنى في البيت الثامن وما بعده بمخاطبة النسيم طالباً منه توصيل رسالة عنه إلى العراق بعامة وإلى البصرة بخاصة، وهو يرسم له طريقه ليجعل مروره من أرض هذيل، فإذا جاءها حياها بألف ألف تحية وخص بأكثرها الإمام المرتجى قال:

واجعل مرورك من هذيل إنها ... أرض أحب جنابها المأهولا
وأفض عليها ألف ألف تحية ... بالمسك تفتق بكرة وأصيلا
واخصص بأكثرها الإمام المرتجى الـ ... ـملك الأغر الماجد المأمولا

انظر إلى الشاعر وقد انتقل في خفة ورشاقة من المقدمة إلى المدح جامعاً بين العام والخاص بحرف واحد هو واو العطف.

***

ومن حسن التخلص إلى غرض القصيدة واحداً كان أو متعدداً.

ويسلمنا غرضها الواحد أو أغراضها المتعددة إلى ختامها وهو ما يسميه النقاد مقطعها وقد احتفلوا به أيما احتفال، فقد كان مسك الختام في كتاب (تحرير التحبير) لابن أبي الإصبع هو (باب حسن الخاتمة) قال: «يجب على الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام»(١٦).

وكما اهتم حازم بالمطالع اهتم بالمقاطع وهى آواخر القصائد، فهو يطلب أن يكون مايقع فيها من الكلام أحسن مما اندرج في حشو القصيدة، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس قال:

---

(١٦) تحرير التحبير ص ٦١٦.

«فأما الاختتام فينبغى أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهانى والمديح، وبمعان مؤسية فيما قصد به التعازى والرثاء، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه، وينبغى أن يكون اللفظ فيه مستعذبا والتأليف جزلاً متناسبا، فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه غير مشغولة باستئناف شيء آخر»(١٧).

⁂

ويعلل القزوينى مطالبته الأدباء بحسن الانتهاء قائلاً: «إنه آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس، فإن كان مختاراً جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير، وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك وربما أنسى محاسن ما قبله»(١٨).

⁂

ولا يخرج العلوي في تعليل حسن الانتهاء عما قاله القزوينى، لكنه يلحق به ما يقابل براعة الاستهلال في الابتداء قال: (وينبغى تضمينه معنى تاما يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصود والنهاية فالأعمال بخواتيمها كما جاء في الحديث الشريف، والخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه والغاية في كماله، ومن أحسن أمثلته قول المتنبى:

قد شرف الله أرضا أنت ساكنها وشرف الناس إذ سواك إنسانا

فهذه الخاتمة إذا قرعت سمع السامع عرف بها ألا مطمع وراءها ولا غاية بعدها(١٩)

⁂

(١٧) منهاج البلغاء ص ٢٨٥ ـ ٣٠٦.
(١٨) الإيضاح ص ٣٠٤ ـ ٣٠٨.
(١٩) الطراز جـ ٣ ص ١٨٣ ـ ١٨٨.

على ضوء ما تقدم ننظر في مقاطع بعض القصائد لابن المقرب ولا ننتظر أن نجد شكلاً واحداً، أو نمطا معينا، إنما هي أشكال متباينة وأنماط متعددة، وتباينها سببه اختلاف الأغراض السائدة في قصائدها مدحاً أو هجاء أو رثاء أو فخراً أو شكوى إلى غير ذلك مما كان حضوره في ذهن الشاعر ووجدانه أقوى من غيره وأمكن من سواه.

وقد غلب الدعاء للممدوح على قصائد المدح مجرداً، أو مصحوباً بتقريظ القصيدة نفسها أو بتقريظ شعر الشاعر جملة.

ففى القصيدة رقم ٢٧ ص ١٩١ وهي التي مدح فيها ابن المقرب باتكين بعد أن:

كره الله ما أحب الأعادى وأبي ما أراد أهل العناد

في هذه القصيدة ـ والبيت السابق مطلعها ـ مقطع حسن قال:

ألبست في مغيبه البصرة الفيـ ـحاء بعد الضياء ثوب حداد
ثم زالت تلك الكآبة إذعا د إليها وآذنت ببعاد
يالها نعمة تعجب كل الـ ـخلق من بردها على الأكباد
فعلينا لله حمداً نواليـ ـه عليها ما إن له من نفاد
ولعمرى لمقدم الملك الصا لح خير من مقدم الأعياد

***

عشت ياباتكين المجد ماغرَّ د حاد وما ترنم شاد
في نعيم وخفض عيش وفي عز عزيز باقٍ على الآباد
ورمى الله من يكيدك بالبؤ س وذل المحيا وسوء المعاد

أبيات الختام هي الأبيات الثلاثة الأخيرة، وإنما مهدنا لها بما سبقها لنُرِى أن الشاعر قد ختم قصيدته بما يتناسب مع موضوعها، وبما تنطبق عليه كل مقاييس جودة الختام عند النقاد السابقين وغيرهم، فهي من

أحسن أبيات القصيدة مبنى ومعنى تحرز ابن المقرب فيها مما دعا حازم إلى التحرز منه، وجاء لفظها عذبا وتأليفها جزلا كما قال.

وإذا كان العلوى قد حث على أن يكون المعنى في أبيات الختام تاما يؤذن السامع بأنه الغاية، والمقصود والنهاية، فإن هذا متحقق فيها، نحسه وندركه ونحن نقرؤها، إنها محطة الوصول للخواطر والمشاعر بالنظر إلى منبعها وهو الشاعر، وبالنظر إلى مصبها وهو الممدوح بها، ويستوقفنى منها دعاء الشاعر لباتكين بجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى تأكيداً للدعاء وتفاؤلاً بالقبول لكأن دعاء الشاعر لممدوحه قد استجيب فعلاً على طريقة (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)، ثم إضافة باتكين إلى المجد، وهذه الظرفية المستمدة من البيئة في (ماغردحاد)، ومن الطبيعة في (وماترنم شاد) وهذا التموج الموسيقى المتبدى فيما يشبه الترصيع بين (غردحاد) و (ترنم شاد).

وإذا كانت الظرفية السابقة زمانية، فإن الظرفية المماثلة في النعيم وفي خفض العيش، وفي العز العزيز مكانية، وقد جملّها المجاز المرسل بعلاقة الحالية، وهذا الإمعان من الشاعر في طلب العزِّ العزيز لممدوحه علام يدل؟

إنه يدل على إخلاصه له أولا، وعلى تقديره للظروف الصعبة التي مرت به ثانياً، وعلى نشدانه جبران خاطره بتعويضه عن انتقاصه الطاريء بفعل حساده ثالثاً.

والتنويع ظاهر في الظرفية بشطرها إلى زمانية ومكانية، وإذا كان قد دعا له بالعيش ماجداً ماغرد حاد وما ترنم شاد، فإنه قد عمق ذلك وأكده حين دعا له بالنعيم وبخفض العيش وبالعز العزيز لا إلى حين بل إلى أبد الآبدين.

وعلى الضد من ذلك كله هذا الدعاء على أعداء الممدوح بالبؤس وذل المحيا وسوء المعاد، وهو دعاء جامع مانع لأنه مستغرق الدنيا والآخرة، ومن الله المنتقم، ثم إن أبعاده قابعة فيه وعلى وجه التحديد في الفعل (رمى) منه، فالرمى ممكن في جميع الاتجاهات: يميناً ويسارا وخلفا وقداما ثم إلى فوق وإلى تحت، ابتداء وانتهاء، وبتبادل المواقف، أي في كل الجهات الأصلية والفرعية، وفرعية الفرعية، وأفقيا ورأسيا.

***

وخاتمة ثانية لقصيدة أخرى هي القصيدة ٩٦ ص ٦٤٩ تلك التي مدح بها النقيب تاج الدين إسماعيل، عدتها خمسة وستون بيتا، فرغ من مدحها ـ وهو غرضها الرئيسي ـ في البيت ٥٨ ومن البيت ٥٩ إلى آخر القصيدة مقطعها أو ختامها الحسن قال:

إليك يا ابن رسول الله شاردة ... بكراً يطول رواة الشعر راويها
من ماجد لا يرى فخراً بقافية ... إذ كان فخر رجال من قوافيها
ولو سواك دعاني لم ألب له ... صوتا ولا قام في ناديه شاديها
لكننا لم نزل طوعاً لأمركم ... هوى وحرمة أسباب نراعيها
ونعمة لك عندى لايقاومها ... شكرى ومن أين لى شكر يؤديها
جزت المدى وتحاماك الردى وحدا ... بذكرك العيس في الآفاق حاديها
ومات غيظاً على الأيام ذو حسد ... ناواك بعد بليات يعانيها

وهو مقطع جيد فخر فيه بنفسه وبشعره متواضعاً، أو تواضع مفتخراً، وليست هذه براعتى بل براعة شاعرنا، فهو بعد أن وصف قصيدته بأنها شاردة أي سائرة وصفها بأنها بكر أي مبتدعة مخترعة لم يسبقه إلى مثلها سابق وزاد فوصفها بأنها سامية تكسب راويها شموخاً بها، وتجعله فوق غيره من الرواة الذين لا يحوزونها، وقد زاد فوصفها بأنها من ماجد ليس من مذهبه الافتخار بالشعر ولو أن هناك من يفتخر

بـه، وهو؟ ألَـمْ يفتخـر بشعره في البيت السـابق على هـذا البيت؟ لكنه التواضع المفتخر أو الفخر المتواضع كما قلنا، والبيت الثاني من قبيل قوله في القصيدة رقم ٥٦ ص ٣٧٨:

وليس في الشعـر من فضـل يـطول بـه مثلي ولـو فـاق أعـلى سبعهـا الـطـول

ثم استقبل من أمره ما استدبر، فذكر أنه قد نظم قصيدته من أجل الممدوح خاصة، ولو غيره خطبها لمارضيه كفئاً لها، أما هـو أي الممدوح فـأهلها، لأنـه سيد شريف لـه من انتسـابـه إلى البيت العلوي الكـريم ما يجعل الناس يجلونه ويطيعونـه، وهم يفعلون ذلك محبـة أولاً وشريعة ثانياً، وسبب ثالث لنظمها هو يد للممدوح عنده، وفضل له عليه تمثـل في ثوبين نفيسين كان النقيب قد خلعهما على ابن المقرب قبل مدحـه له، ولم يبق إلا أن يدعو له في البيت ٦٤ وهو بيت مرصع بـ (جزت المدى) و (تحاماك الردى) و (حدا بذكرك العيس في الآفاق حاديها)، وإلا أن يدعو على عدوه في البيت ٦٥ بأن يموت غيظاً بعد مصائب يعانيها.

هذا كان فحوى المقطع.

ونقيسـه بمقاييس حسن الختـام فنجدهـا تنطبق عليـه، دليل ذلـك مناسبته لموضوع قصيدته وهو المدح، وإيذانه بـانتهائهـا، ثم هو قـد بلغ حدَّ الروعة مضموناً وشكلا.

***

إلى هنا نكون قـد عرضنـا وحدات القصيـدة من وجهة نـظر النقد وعند ابن المقرب.

ويحسن التنبيه إلى أن تقسيم القصيدة إلى وحدات ثلاث هى المطلع والتخلص والمقـطع، هـذا التقسيم لم يكن المقصـود بـه جعـل هـذه الـوحدات مستقلة عن بعضهـا البعض، وإنمـا قسمـوهـا هـذا التقسيم تمهيـداً لما يـراد من الشاعـر في كل قسم عـلى حدة، فلكـل قسم طابعـه

وموضعه، وما يصلح به البدء قد لا يصلح به التخلص، وربما كان هناك من الاعتبارات ما لوراعيناه وتصرفنا بمقتضاه لحسن البدء وساءت الخاتمة، وفيما عدا ذلك كانت النظرة إلى القصيدة عامة وشاملة، وإذا كانوا قد وقفوا عند أحد أقسامها أو بعض أبياتها ليبدوا بعض الملاحظات، فقد كانت هذه الوقفات نقدية، أما عند نظمها أو إنشادها أو تذوقها فقد كانت القصيدة في كل هذه المواطن كتلة واحدة ومراحل متداخلة ومتكاملة، وهذا التصنيف للقصيدة قد نظر فيه إلى أقسامها على أنها وحدات مسلسلة: بدء فوسط فخاتمة، ونجد عند ابن قتيبة تقسيماً لها أكثر فنية، فقد علل هذا التسلسل وبين حكمته، فضلاً عن أنه سمى أقسامها بأسمائها الشعرية في القصيدة وليس باسم موقعها منها، سمىً أول القصيدة ذكر الديار والدمن والآثار ولم يسمه المطلع أو الاستهلال قال: «إن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها:

١ ـ بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها.

٢ ـ ثم وصل ذلك بالتشبيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أم حرام.

٣ ـ فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب ذلك بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل، وإنضاء الراحلة والبعير.

٤ ـ فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمام التأميل وقرر

عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافآت وهزه على السماح وفضله على الأشباه»[٢٠].

وهكذا يلحم ابن قتيبة أقسام القصيدة بعضها في بعض، ويجعل بعضها مفضيا إلى بعض، ويصورها على أنها خطرات نفس قبل أن تكون لمسات فن.

(٢٠) الشعر والشعراء ص ١٤ ـ ١٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الوحدة العضوية

بعد التنبيه الذي ذكرناه، والذي يمكن أن نسميه احترازاً أو كما قال البلاغيون (احتراساً) فهو بمعناه، بعد هذا التنبيه يأتي الكلام عن الوحدة العضوية: في النقد الأدبي نظرياً، وفي قصيدة ابن المقرب عملياً.

وعن الشق الأول نقرر أن النقاد العرب كانوا يعيبون القصيدة التي لاصلة بين معانيها، إذ يكون البيت فيها مقرونا بغير جاره ومضموماً إلى غير لفقه، قال ابن لجأ لمنافس له: أنا أشعر منك لأنى أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه(٢١).

ويدلنا ابن رشيق في العمدة على أن من النقاد من كان يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض وبخاصة في الحكايات وما شابهها فإن بناء اللفظ على اللفظ فيها أجود من جهة السرد(٢٢).

وقد جعل ابن طباطبا تحقق الوحدة العضوية في القصيدة العربية سمة جودة بقوله: «أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل، إذ يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، وأن يكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً حتى تخرج

---

(٢١) البيان والتبين جـ ١ ص ٢٣٣.

(٢٢) العمدة جـ ١ص ٢٣٢.

القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً لا تناقض في معانيها ولا وهي في مبانيها ولا تكلف في نسجها»(٢٣).

وللحاتمي كلام قوي في هذه الوحدة قال: «من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم متصلا به غير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالم جماله».

وهو يثني على المحدثين بالتزامهم بها وتطبيقهم لها حيث يقول «ووجدت حذاق الشعر وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان»(٢٤).

وينظر حازم إلى القافية من أربع جهات هي: جهة التمكن، وجهة صحة الوضع، وجهة كونها تامة أو غير تامة، وجهة اعتناء النفس بما وقع في النهاية، وهو يشرح الجهة الثالثة قائلاً: «وأما ما يجب في القافية من جهة كونها منفصلة عما بعدها أو متصلة به، فلا يخلو الأمر في هذا من أن تكون الكلمة الواقعة قافية غير مفتقرة إلى ما بعدها، ولا مفتقر ما بعدها إليها، أو يكون كلاهما مفتقراً إلى الآخر، أو تكون هي مفتقرة إلى ما بعدها ولا يكون ما بعدها مفتقراً إليها، أو يكون ما بعدها مفتقراً إليها ولا تكون هي مفتقرة إليه.

فالقسم الأول هو المستحسن على الإطلاق، والأقسام الثلاثة أشدها قبحا مناقض القسم المستحسن، ويسمى افتقار أول البيتين إلى الآخر تضميناً، لأن تتمة معناه في ضمن الآخر، والتضمين يكثر فيه

---

(٢٣) عيار الشعر ص ١٢٦.

(٢٤) العمدة جـ ٢ ص ٢١٢.

القبح أو يقل بحسب شدة الافتقار أو ضعفه»[٢٥].

والتضمين بمفهوم حازم يتناقض مع الوحدة العضوية، وقياس الأدب به يفتت القصيدة، ولا يتيح لمعانيها أن تكوِّن وحدة فكرية، لكن الأمر يهون إذا فهمنا التضمين حسبما شرحه ابن خلدون، فهو عنده عبارة عن تداخل الفنون في القصيدة الواحدة قال:

«والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين، لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه، فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب، ويبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده، ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة»[٢٦].

***

نكتفي بهذا القدر من معالجة النقاد العرب لوحدة القصيدة وضرورة انتظام القول فيها انتظاماً يتسق به أولها مع آخرها حتى تكون ككلمة واحدة في امتزاج حروفها كما قال ابن طباطبا، أو كخلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض كما قال الحاتمي، ولقد كانت هذه المعالجات مقدمات لما انتهى إليه النقد الأدبي الحديث في تحديد المقصود بما سماه (الوحدة العضوية) وعرفها بأنها «وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً تتقدم به القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب

---

(٢٥) منهاج البلغاء ص ٢٧٧.

(٢٦) المقدمة ص ١٢٨٩ ـ ١٣٠٢.

الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر»[٢٧].

وإذا كان النقاد المحدثون قد وقفوا على ما قاله ارسطو من ضرورة تحقق الوحدة العضوية في المسرحية، وطبقوه على القصيدة الغنائية، فإن النقاد العرب قد فهموا هذه الوحدة ابتداءً، وفي مكانها الصحيح من القصيدة الغنائية، وبدوافع فنية.

ومهما يكن من أمر، فقد وقع الطرفان على تشبيه واحد لعله هو الذي أعطى للوحدة العضوية اسمها وهو تشبيه القصيدة بخلق الإنسان كما قال النقد العربي، وبالبنية الحية كما قال النقد الغربي.

وفي رأيي أن ما قاله النقدان العربي والغربي ينطبق على شعر ابن المقرب، فهو قد صدر في كثير منه عن انفعال صادق، هو انفعال اللحظة التي أبدع فيها ووقع تحت تأثيرها، وقد رأينا ونحن نعرض مضامين تجاربه الشعرية كيف أن كثيراً منها ذات موضوع واحد كقصائد الهجاء والرثاء وبعض قصائد الفخر، والقصائد التي أوحت بها ظروف خاصة وأحداث معينة، والقصائد الرسائل كتلك التي كتب بها من الأحساء إلى الأمير شمس الدين باتكين ملك البصرة وهي القصيدة ٣٨ ص ٢٤٧، وكتلك التي ردَّ بها من العراق على أمير البحرين وهي القصيدة ٥٦ ص ٣٧٨ وكالقصيدة التي بعث بها إلى بدر الدين ملك الموصل وهي القصيدة ٥٨ ص ٣٩١، ثم بعض قصائد المدح وهي التي تمثل فيها ممدوحه وتشبع به فلم يعد في قلبه ولا عقله مكان لغيره.

---

(٢٧) المدخل إلى النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمى هلال ص ٤٥٥.

هذا النوع من القصائد فيه وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي أثارها هذا الموضوع، وكل بيت فيها يتحول بها خطوة خطوة من تجربة شعورية إلى تجربة شعرية، أي أنها تتمتع بالوحدة العضوية.

أما القصائد الأخرى وهي التي زحمها الشاعر بغرض أصلي، وبأغراض فرعية كأكثر قصائد المدح، أو ساوى بين أغراضها بلا تركيز على أحدها كتلك التي نظمها وهو بالأحساء أو بالقطيف أو ذكر بها الأحساء والقطيف أي وهو بعيد عنهما وهي:

القصيدة رقم ٦ ص ٤١ وعنوانها (وقال رحمه الله يذكر فيها أهل القطيف وأهل الأحساء وأسبابا جرت في ذلك الزمان).

القصيدة رقم ١٠ ص ٦٤ وعنوانها (وقال أيضا وذلك بالقطيف في غرض له سنة ٦٢٠ هـ)

القصيدة رقم ١٩ ص ١٣٢ وعنوانها (وقال أيضا وهي مما قاله بالأحساء)

القصيدة رقم ٢١ ص ١٤٩ وعنوانها (وقال أيضا بالأحساء في غرض له)

القصيدة رقم ٢٥ ص ١٧٦ وعنوانها (وقال أيضا بالأحساء يعاتب نفسه ويذكر الخمول)

القصيدة رقم ٤٠ ص ٢٥٢ وعنوانها (بالأحساء).

وكقصائد الأحساء والقطيف أكثر القصائد غير المعنونة إلا بقول جامع الديوان (وقال) أو (وقال أيضا) أو (وقال عفا الله عنه)، أولا يوجد على رأسها غير رقمها، وهذا بيانها.

القصيدة رقم ١ ص ١٣ وهي مما لا يوجد على رأسها غير رقمها.

القصيدة رقم ٢ ص ١٩ صدرها جامع الديوان بقوله (وقال أيضا)، وهي تجمع بين الغزل والمدح لأمير عراقي نفهم ذلك من الأبيات ٢٠ ـ

٢٢ لكنا لا نعرف هذا الأمير على وجه التحديد.

القصيدة رقم ٥ ص ٣٥ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال رحمه الله ببغداد سنة ٦٠٥ أيضا).

القصيدة رقم ١٣ ص ٩٢ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا) ومن قراءتها نفهم أنها في مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله أبي جعفر منصور.

القصيدة رقم ١٦ ص ١١٥ وهي مما لا يوجد على رأسها غير رقمها لكنها في مدح النقيب تاج الدين إسماعيل.

القصيدة رقم ١٨ ص ١٢٩ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا رحمه الله تعالى) ولأنها قصيرة وغزلية رجحنا فيما سبق أنها كانت مقدمة لمدحة طويلة لكنها انفصلت عنها.

بيتان برقم ٢٨ ص ١٩٧ وهما مصدران بقول جامع الديوان (ولم يكن غيره) وهو يقصد: ولم يكن غير ذلك أي في قافية الذال.

ثلاثة أبيات برقم ٣٢ ص ٢١٣ وقد رجحنا فيما مضى أنها مكملة لثمانية الأبيات الواردة قبلها تحت رقم ٣١ ص ٢١٢.

القصيدة رقم ٣٧ ص ٢٣٤ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا).

القصيدة رقم ٤١ ص ٢٦٦ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا).

القصيدة رقم ٤٨ ص ٣١٦ وهي مما لا يوجد على رأسها غير رقمها.

القصيدة رقم ٥١ ص ٣٤١ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا) وتدلنا قراءتها على أنها في مدح الأمير الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد.

القصيدة رقم ٥٤ ص ٣٦٤ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا).
القصيدة رقم ٥٥ ص ٣٧٠ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال).
القصيدة رقم ٧٠ ص ٤٦٦ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال أيضا عفا الله عنه).
القصيدة رقم ٨٦ ص ٥٧٨ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال في غرض له) وهي عشرة أبيات وقد عرضنا لها في الفصل السابق تحت عنوان (غرض فذ).
القصيدة رقم ٩٣ ص ٦٢٣ وهي مصدرة بقول جامع الديوان (وقال).
القصيدة رقم ٩٧ ص ٦٥٧ وهي مما لا يوجد على رأسها غير رقمها.

***

هذه القصائد أو كثرتها هي التي تحتاج منا إلى بسط القول فيها كي نثبت لها وحدة عضوية، وباديء ذي بدء ننبه إلى أن الذي يثلم وحدتها العضوية من وجهة نظر بعض الدارسين المحدثين إنما هو تعدد أغراضها، أما جوها النفسي فثابت ولو أن ألوانه مختلفة اختلاف الألوان في قوس قزح، أجل فهذه القصائد محكومة بالعاطفة السائدة، والعاطفة اسم جامع لأكثر من شعور، فعاطفة الحزن أو حالة الاكتئاب يمكن أن تنحل إلى شعور بالفقد يؤدي إلى الرثاء، وإلى شعور بالسخط يؤدي إلى الهجاء، وإلى شعور بالإحباط يؤدي إلى العتب، وإلى شعور بالألم يؤدي إلى الشكوى، وإلى شعور بالخوف يؤدي إلى النصح، وهكذا تتعدد ألوان الشعور الصادرة عن العاطفة أو الرافدة لها بلا تناقض بينها ما دامت العاطفة الواحدة هي السائدة في الموقف الواحد أي في التجربة الشعرية الواحدة، وهذا مانجده في القصائد السابقة لابن المقرب.

وتجدر الإشارة إلى أن عاطفة الحزن التي ضربناها مثلاً لتعدد الشعور الصادر عنها أو المكون لها، عاطفة الحزن هذه هي العاطفة السائدة أو هي الانفعال السائد في ديوان ابن المقرب جملةً، لا نستثنى من ذلك شيئا، والغزل الذي به قد سلك فيه ما يعرف في مناهج البحث العلمي بالمنهج الاسترادادي، وهو منهج المؤرخ دائما، ومنهج الشاعر في بعض المواقف.

ونوضح ذلك أكثر بقولنا: إن البناء الهيكلي للتاريخ يتكون من وقائع حدثت مرة واحدة وإلى الأبد، ذلك أنه يقوم على الزمان، وأول خاصية من خصائص الزمان، إنما هي عدم القابلية للإعادة، لأن الصفة الرئيسية له هي الاتجاه، والاتجاه يقتضى السير قدماً دون تراجع، ومهمة التأريخ أو المؤرخ أن يقوم بوظيفة مضادة لفعل التاريخ، وتلك المهمة هي أن يحاول استرداد ما كان في الزمان لا ليتحقق فعلا في مجرى الأحداث، فهذا ما ليس في وسع كائن من كان أن يقوم به، بل يسترده ليعمل فيه عقله وقلبه تسجيلاً وتحليلاً وتعليلا، ومن حيث أن هذا لا يمكن أن يتم إلا بنوع من التجربة الحية التي يحاول المرء فيها أن يعانى في نفسه وبنفسه ما كان حسبما كان، فإن المؤرخ الحق، والشاعر المنتشر في الزمان والمكان قادران على أن يحييا تجارب الماضي كما حدثت فعلا، ووسيلتهما الموصلة لهما إلى ذلك مركبة علمية فنية يقودها العقل ويجرها جوادان متوازنان هما:

الخيال غير المبتدع والخيال المبتدع، واشبلنجر يطلق على هذه العملية اسم (التوسم)، ويذهب إلى أننا قادرون به على تمثل أية صورة ماضية(٢٨).

(٢٨) انظر مناهج البحث العلمى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٨٣ طبعة دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٨م.

وهذا ما كان من ابن المقرب، إنه لم يتغزل فعلاً في ديوانه، وإنما حكى الغزل الذي كان، حكاه وهو حزين كمد، لماذا؟ لأنه مضى وانقضى وأعقبت أيامه القصيرة البهجة دهور من الشقاء والتعاسة، وإذا كان لم يعقل فرحه، فإنه قد عقل حزنه، بل عاشه واستبطنه، وإن تذكره لحبه وللهوه وعبثه لتذكر الأسيف الحزين على شبابه الذي ولى، وضوئه الذي خبا، وكيانه الذي اندثر، ومجده الذي اندحر. من توسمه في غزله قوله:

خليليَّ هبا من كرى النوم وانظرا ... مخائل هذا البرق من حيث يلمح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه ... إذا ماتجلىَّ ضاحكاً وهو يمرح[٢٩]

ونقف من بيته الثاني عند أول كلمة فيه وهي (ذكرت). المسألة ليست غزلا إذن بل تذكر أي استرداد وتوسم.

من حزنه قبل أن يكون من غزله

ألا رحلت نعم وأقفر نعمان ... فبح باسمها إن عزَّ صبر وسلوان
شريكية مرية حلَّ أهلها ... بحيث تلاقى بطن مر ومران
وعهدى بها إذ ذاك والشمل جامع ... وصفو التدانى لم يدارکه هجران
ونحن جميعاً صالحون وحالنا ... تسوء العدى والكل في اللهو جذلان
فكم يوم لهو قد شهدت وليلة ... وليس علينا للعواذل سلطان[٣٠]

(٢٩) الديوان ص ١٣١.

(٣٠) الديوان ص ٥٨٦، ونعمان: أودية وراء عرفة، وبالتنعيم، وقرب الكوفة، وبالشام.
شريكية: نسبة إلى شريك بن مالك بن عمرو.
مرية: نسبة إلى مرة بن كعب.
بطن مر: موضع على مرحلة من مكة، وقد يسمى: مر الظهران.
مران: موضع باليمن.

هـذه الأبيات ينحـاز قارئهـا بها إلى الغـزل، وبتأملهـا لانجد فيهـا سوى التذكر والتحسر، إنها استرداد لما كان وتوسم له، ليس أكثر.

والمسألة بعـد محتاجـة إلى قصيدة من القصـائد متعـددة الأغراض، نهزها، ونلقط ما يسَّاقط منها، ثم نحاول نظمه في عاطفة واحدة لنرى: هل ستتسق ألوان الشعور فيه اتساقها في ألوان قوس قزح أم لا ؟.

وبسبيـل من ذلك القصيـدة رقم ٥٤ ص ٣٦٤، قـدم لهـا جـامـع الديوان بقوله (وقال أيضاً)، وهى تمثل تجربة شعوريـة حزينـةً، وتصور حالة من الاكتئاب الشديد، ثم هي صادقـة التعبير عن صـاحبها الـذي بدأها متبرماً ضجراً قد عزم على هجـر وطنه بعـد أن أصبح هـذا الوطن مباءة للذل والضعف، ها هوذا يُخيرِّ صاحبيه اللذين اخترعهما بـين البقاء فيه على حرِّ المدى، والترحل عنه، ويمضى فينهاهما عن سؤاله عن وجهتـه بعـد أن خذلاه وأسلماه، وهـو يبرر عـزمه عـلى الرحلة بسـأمه المقـام في وطنه، وبشوقه إلى خوض الفيافى:

أقيـما عـلى حـر المـدى أو تـرحـلا ... فـلست بـراض مـنـزل الهـون منـزلا
ولا تـسـألاني أيـن تـرمى ركـائبـى ... فـما لـكـما أن تـسـلمانى وتـسـألا
فـقـد سئمت نفسى المقـام وشـاقـنى ... ركـوب الـفيـافى مجـهـلا ثـم مجـهـلا

ومن وصف حالته إلى هجاء أو باش قـريته فيـما يشبه الانتقـال من المسبب إلى السبب:

وكيف مـقـامى بـين أوبـاش قـريـة ... أرى الـرأس فيهـا من بهـا كـان أسفـلا
بـنى عـم مـن أمسى كـثـيرا سـوامـه ... وإن كـان أدنى مـن هـتـيـم وأرذلا
وأعـداء من غـالت يـد الـدهـر مـالـه ... وإن كـان أسرى من قـريش وأنبـلا

والأبيـات من السابـع إلى التاسـع تحجيل، أي حكم، وهي حكم متصلة بما قبلها ومتممة له.

لحى الله من يغضى عـلى ضيم صاحب ... ومن يجعـل الخل المناصح مـأكـلا
ومن لا يـرى حق الصـديق ولـو نبـا ... بـه الـدهـر أو أضحى من المال مرملا
ومن لا يجـازى الـود بـالـود مفضـلا ... ويجـزى القـلى والصـد بـالصـد والقـلى

ونفهم من البيت العاشر أن صاحبيه لازالا ملتصقين به، يرجـوانه أن يتخلى عن فكرة الرحيل، لكنه يتأبى عليهما، وهو يريش حواره معهما بما تواتيه به فطرته وثقافته وتجاربه الحياتية:

خـليـلَيَّ كـفـا عـن جـدالي فـإنـني ... أرى الـرأي كـل الـرأي أن أتـرحـلا
فقـد جاء في بيت من الشعـر سـائـر ... لـنـا مـثـل مـن عـالم قـد تمـثـلا
وإن صريـح الحـزم والـرأي لامـرىء ... إذا أدركـتـه الـشـمس أن يـتـحـولا
فـكـيـف بـنـار لايـزال وقـودهـا ... حـديـداً إذا حُشَّتْ بـرفق وجندلا[٣١]

وتخف حدة نقمته فيقل تأثيرها ويتحول ما يـترتب عليها من هجـاء إلى شكوى، وما يشكو منه كثـير تكفلت به الأبيـات من ١٤ ـ ٣٠ وهى ليست خالصة للشكوى، بل فيها إلى ذلك أستـاذيته وزعـامته وتشنيعـه على قومه بسلبيتهم وما ديتهم:

إلى كـم أدارى بـين قـومـى وأتـقـى ... وأصـدى فـأُسقى المـاء صـابـا وحنـظلا
بلوت صروف الـدهـر كهـلاً ويـافعـا ... فـما ازددت عـلماً غـير مـا كـان أولا
وألقى صروف الـدهـر سنَّ ابن أربـع ... فتحسبنى الأحـداث عَـوْداً مـذلـلا
كـذا الماجـد الأحساب يمضى ومـادرت ... رواة المسـاعـى أي عصريـه أفـضـلا
وقلبت هـذا الـدهـر بـطنـا وظاهـراً ... فـألـفـيـتـهـم ذئبـا وهـرًّا وتـتـفـلا
ومـا اخـترت خـلا منهم أتـقـى بـه ... زمـانى إلا اشـتـقـت أن أتـبـدلا
دعـوت رجـالى من قـريب فـخلتنى ... دعـوت إلى الجـلى أسيـراً مكـبـلا
وأعـلنت في الحى البعيـد فـلم أجـد ... عـليـهـم لمثـلى في الخـطوب مـعـولا

---

(٣١) حُشت: جمع حولها وأحاط بها فقويت، والـرفق: ما يستعـان به، والجنـدل: الصخور العظيمة.

ومن قبل ما ناديت في حي عامر ... وكنت لداعيهم إذا الأمر أغفلا
فصمت رجال عن دعائي وأحجمت ... كمثل بغاث الطير عاين أجدلا
ولو درهم يوماً دعاهم لأقبلت ... رجال وخيل تملأ الجو قسطلا
كذلك من يبغي الوضائم لاينى ... يضام ويسقى بالكبير المثملا
ولاالوم في شاني عليهم لأنني ... لألوى به أو أجعل الآل منهلا
ولو أن من ناديت من صلب عامر ... لأوضع إيضاعا لصوتي وأرقلا[٣٢]
ولكن أوباشا لعمري تجمعت ... مع ابن علي إذ تولى وأجهلا
نفتهم قديما بكرة ومحارب ... ولم يجدوا في حيٍّ شيبان مدخلا
ولو أن عرقا من ربيعة فيهم ... لكانوا على الأرحام أحنا وأوصلا

وفي البيتين ٣١، ٣٢ حضٌّ لقومه على حسن معاملته، وعلى أن يقوموا معه بشن غارة على أعدائهم.

ألا يالقومي هل أرى في جنابكم ... مطاعاً لدى السادات منكم مبجلا
وهل أُصبح الأعداء منكم بصيلم ... تغادر دار القوم ربعاً معطلا[٣٣]

ومن حضهم والنصح لهم إلى العتب عليهم وتبكيتهم بما آل إليه أمره وأمرهم حذاراً على مجدهم، وخوفاً من تفرق كلمتهم وتبدد دولتهم.

---

(٣٢) العَوْد: المسن من الإبل والشاء.
التتفل: الثعلب أو جروه.
بغاث الطير: ضعافه، والأجدل: الصقر.
القسطل: الغبار.
الوضائم: أنواع المظالم، والمعنى على هذا: أن من يظلم الناس لا ينفك يُظلم.
والوضيمة: الجماعة القليلة من الناس ينزلون على القوم.
والمعنى على هذا أن من استنصر بضعاف الناس لا يزال يظلم.
الآل: السراب.
أوضع وأرقل معناهما واحد هو: أسرع.
(٣٣) الصيلم: الأمر الشديد، والداهية، والسيف.

أيصبح حظى فيكم وهو ناقص ... وتغدو حظوظ الغير أو في وأكملا
ويكرم أقوام معيد أبوهم ... ويحرم من يُدعى علىٌّ وعبدلا
أما وأبيكم إنها لبلية ... إذا جال فيها فكر مثلى تململا
حذاراً على العقد الذي عقدت لنا ... أوائلنا في العز أن يتحللا
وخوفا من الأمر الذي يشعب العصا ... ومن خذل المولى له كان أخذلا

والأبيات من ٣٨ إلى ٥٠ ترينا الشاعر في لحظة تأمل، وفي موقف تأثر، إنه ينزف دموعه حزنا على قومه المتردين في الشر، ويئن من الأحداث المشئومة التي تتضاعف يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، فالسادات العيونيون مشردون بأرض أعاديهم، ومن بقي منهم في البحرين هضمت حقوقه، وأهدرت حريته، وهو يرتب النتائج على مقدماتها ويربط المسببات بأسبابها حين ينحى باللائمة على قومه، فهم الذين وثقوا فيمن ليسوا أهلاً للثقة، ونزلوا لهم عما كان عندهم من قوة ومن رباط الخيل، تلك كانت غلطتهم بل طامتهم الكبرى، فالأمر كما قال:

أقول وقد فكرت في أمر عصبة ... إذا قلت عنها أدبر الشر أقبلا
وقد شرقت للغبن عيني بمائها ... وحق لماء العين أن يتهملا
ترى أن أفعال الليالى التي جرى ... لنا شومها صارت على وزن أفعلا
فيا شقوتا مالى أرى كل ساعة ... أموراً محالات ورأيا مضللا
ومالى أرى السادات إما مشرداً ... بأرض الأعادي أو مضيما مكبلا
شفى غيظه منا المعادي لو اشتفى ... وحرم فينا من قريب وحللا
ومانال منا ذاك إلا لأننا ... جعلنا له درعاً ورمحا ومنصلا
ومن يعط خصما درعه وحسامه ... وسابقه فليلبس الذلَّ مشملا
ومن ملكَّ الأعداء تدبير أمره ... فذاك الذي يدعى العديم المثكلا
ومن رام طول العمر بالذل والغبا ... رأي الموت مرأي عاجلا ومؤجلا

ومن لم تكن أنصاره من رجاله أُخيف وأضحى بالجنايات مبسلا[٣٤]
ومن لان يوماً للعدى هان واصطلى على الكره من نيرانها شر مصطلى
ومن لم يقدم للأمور مقدما أضاع وأبدى للمرامين مقتلا

ومن التفكر في حالة قومه إلى التفكر في حاله هو، وهو حسن الظن بنفسه دائماً، إنه يتأوه لأنهم خالفوه، ولو أنهم أطاعوه ونفذوا ما أشاربه، دروا أن فيهم من كان جديراً بالملك والرياسة، لكنه الواقع المعكوس، ومن العكس والوكس أن يتنحى الجاد ويتصدر الهازل، وأن يقوم الكلب مقام الأسد، وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد يكون قد شارف نهايته، فالهلاك أقمن شيء بالدول التي ترى الرأس فيها من بها كان أسفلا كما قال سابقاً، والتي تريك نبيه القدر من كان أخملا كما سيقول لاحقا.

فآه لقومي لو أطعت لديهم دروا أن فيهم حازم الرأي فيصلا
لقد كنت لا أرضى الدنية فيهم ولا يزدهيني عنهم من تمحلا
ولكن إذا ما الأمر حُمَّ انتهاؤه أقام مقام الأضبط الورد خيطلا
وأقمن شيء بالهلاك مدينة تريك نبيه القدر من كان أخملا[٣٥]

وتصل به المعاناة إلى قمة المأساة، فيقف على الأعراف بين الموت والحياة داعيا الله:

قيارب لا صبرا على ذاولا بقاً فسق فرجا أولا فموتا معجلا

***

انتهت القصيدة بعاطفة الحزن السائدة فيها وبحالة الاكتئاب الغالبة عليها، وقد تنوعت فنونها: فمن تبرم وسخط إلى هجاء

---

(٣٤) أبسله لكذا: عرضه ورهنه، وأبسله؛ أسلمه للهلكة.
(٣٥) تمحل له: احتال، وازدهاه الأمر: استهاله وأغراه. الأضبط من يعمل بيديه جميعا، والورد: الأسد، والخيطل: الكلب أو السنور.

وشكوى، إلى نصح وعتب، إلى تـأمل وتـألم، إلى اعتداد بـرأيه وثقـة في نفسه، إلى تقرير لحقيقة الدورة التاريخيـة وحتميتها، وتحـول عجلتها من فوق إلى تحت وبالعكس، وتصل به المعاناة إلى مـوقف حرج بـين الأمل واليأس، بين الحياة والموت فيسـأل الله إصلاحـاً لحالـه وحال قـومه، أو قبضاً له على وجه السرعة.

هذا كان خط سير القصيدة التي عرضناهـا، فهل فيـه انحراف عن مسطرتها، أو خروج على مجالها؟؟

وبتوضيح آخر نسأل: هل صدمنـا الشاعـر بما لم نتـوقع؟ ونجيب: لا، وإذا كانت خيوطها كثيرة، فإنها في النهايـة قد كـونت نسيجاً واحـداً لحمتـه الحزن وسـداه الألم، وهذا النسيـج يمثل قـطعة صغـيرة في خيمة الشعر التي أقامها ابن المقرب مرتين: مرة على أرض البحـرين، ومرة في دلتـا الرافـدين، وكان شعـره كله مثلما كان هـو نفسه متمتعـا بالـوحـدة العضوية بشيقها: وحدة المـوضوع، ووحـدة الجو النفسي للشـاعر وهـو يخوض غمار هذا الموضوع ويحوله بمهارة فائقة من تجربة شعـورية خصبـة إلى تجربة شعرية موفقة.

***

وبعد: فيخيل إليَّ أن قضية الوحدة العضويـة في القصيدة العـربية قضية مفتعلة، وافتعالهـا آتٍ من حرص بعض النقـاد المحدثـين على أن يطبقوا على الأدب العربي بعامة وعلى الشعر منه بخاصـة مقاييس نقـدية أجنبية.

لقـد رأينا جـذور الوحـدة العضويـة عنـد ارسـطو وهـو يتكلم عن المسرحية، لكن هؤلاء النقاد عممـوا، وسحبوا كـلامه في المسرحيـة على القصيدة الغنائية، ثم أخذوا يطالبون بـأن تكون ذات وحـدة عضويـة، ناسين أو متناسين الفروق الفنية بينها وبين المسرحية، وناسين أو متناسين

الكلمة شبه النهائية في هذه القضية وهي للأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي في دراسة ممتعة له عن معلقة لبيد تحت عنوان (الوحدة العضوية في القصيدة العربية) قال: . . . . . فعلى الرغم من أن الصورة الأولى تختلف عن الصورة الثانية في الظلال والأدوات والألوان، وعلى الرغم من أن في الأولى فرحة بالحياة وانتصاراً على تحدياتها، وأن في الثانية إحساسا بوحشة الحياة وقسوتها، وجزعاً من فداحة الموت وفظاعته، فإن في الصورتين معا هذا الصراع الحى من أجل البقاء والانتصار على الموت، وعاطفة الصراغ هذه من أجل الحياة هي الجانب المتشرك في الصورتين وهي الغاية التي تهدف إليها المقطعتان، بل إنها النواة الأسياسية والمحور الذي تدور عليه القصيدة من بدايتها إلى نهايتها، ونقطة التجمع الأخيرة التي تلتقى عندها أجزاء القصيدة.

ولو كنا نعالج القصيدة على النحو الذي ينظر للعمل الفني نظرة كلية، لما وجدنا على الإطلاق أي تناقض بين معانى الحياة والخصوبة واللذة التي تسود المقطعة الأولى لوصف الناقة، وبين معانى الأسى والوحشة والدفاع عن النفس التي تسود المقطعة الثانية، طالما كانت العاطفتان تمثلان موقفا واحداً يقفه الشاعر من الوجود، وطالما كانت كل عاطفة منهما تكمل الأخرى ويكونان بمثابة الجانبين المتقابلين لشيء واحد.

وكما تتحقق الوحدة في العمل الفني من التطابق بين العواطف، فإنها تتحقق كذلك من التباين والتقابل، ومن القصائد ما يمكن أن ينشأ بين أجزائها كثير من التجاذب والمقاومة والصراع، ولكن البناء هو الذي يستطيع أن يبلغ بهذه المواد المتصارعة المتباينة درجة عالية من التوزان بحيث يصل في النهاية إلى العمل الذي تنصهر فيه جميع الأجزاء وتعطى في النهاية أثراً واحداً لا أثرين، ومن ثم فليس يفزعنا أن نجد تناقضاً

بين أجزاء القصيدة الواحدة طالما كان التوزان قائما بين هذه المتناقضات، بل إن من النقاد المحدثين من يعتقد أن بناء أحسن القصائد هو بناء تناقض، ذلك لأن التوازان بين الدوافع المضادة الذي هو في رأي رتشاردز أساس الاستجابات الجمالية ذات القيمة العظمي، يعمل على تنشيط أجزاء من شخصيتنا أكثر مما تعمله التجارب المقصورة على انفعال محدود(٣٦).

***

إن هذا النص الهام يعطى للشاعر الحق لا في تعدد أغراضه داخل القصيدة الواحدة، بل في تناقض هذه الأغراض، تاركاً للنقد التفسيرى شرح ذلك وهضمه، ولن يعجزه ذلك، فالشاعر الماهر هو الذي يحافظ على المسرة التي تحدثها الدهشة من تنوع أفكاره وأحاسيسه، وبدون هذا تقع تجربته الشعرية في وحدة متسقة رتيبة لاشخصية ولا غريبة، والجمال على حد قول بودلير «هو دائما غريب»(٣٧).

ومن النقد الأدبي إلى الأدب نفسه، فقد ذكرت بالقصيدتين الأحسائية والقطيفية لابن المقرب، وبقصيدته غير المعنونة، وغير موحدة الموضوع، ذكرت بهذا النوع من القصائد له ما قاله الأستاذ الدكتور عز الدين إسماعيل عما أسماه (القصيدة الطويلة) تلك التي جعلها تطويراً للقصيدة الغنائية من جهة وللملحمة الأدبية من جهة، ففى هذه القصيدة الطويلة تتجمع صفات الملحمة الأدبية مع فرق ملحوظ في الطول لمصلحة الملحمة، وفيها كذلك تتجمع صفات القصيدة الغنائية

---

(٣٦) قضايا النقدي الأدبي القديم والحديث ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣٧) انظر المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا. تأليف فيليب فان تيغيم وترجمة فريد انطونيوس. منشورات عويدات بيروت ـ باريس الطبعة الثانية ١٩٨٠ ص ٢٦٧.

وبصفة خاصة الأنشودة (Ode) بعد أن تركت بدايتها الغنائية العاطفية وتطورت بتطور الحضارة، فدخل فيها العنصر الفكري.

والقصيدة الطويلة بعد ذلك هي قصيدة تربط بمهارة بين كثير من الحالات العاطفية، وإن كان من الواجب أن تصحب المهارة فكرة عامة هى فى ذاتها تكوِّن وحدة عاطفية، فعندما يكون المعنى مركبا ـ أو كما يقول الدكتور عز الدين ـ معقداً، يتحتم على الشاعر أن يستوعبه أجزاءً منفصلة، . وأن ينظم هذه الأجزاء في وحدة لها مدلول عام.

على الشاعر في القصيدة الطويلة أن يقوم بعملية حشد كبيرة لأشياء كثيرة كانت تعيش في واقعه النفسى، تتجمع هذه الأشياء وتتضام ليخرج منها في النهاية عمل شعرى واحد له فكرته العامة(٣٨).

هذا كلام الدكتور عز الدين اسماعيل ملخصا، وهو يمثل الجانب العملي لما قاله الدكتور محمد زكي العشماوي، والكلامان ـ لهذا ـ وجهان لعملة واحدة، وهى عملة تثرى ابن المقرب وتعز شعره الذي طالت قصائده حتى وصلت واحدة منها إلى خمسين وماتة بيت.

وعندى أن القصائد متعددة الموضوع في ديوان ابن المقرب إنما هى نوع من الوجد والبث، الوجد الذي أحسه فصبه في قوالب شعرية، وحقق به التزامه الأدبي ورسالته الفنية.

والناقد المنصف لاتهمه الفنون التي تمرس بها، بل لاتهمه الفنية التي اصطنعها، مادام قد صاغ ذلك كله في تجارب شعرية صادقة.

ومهما يكن لون شعره أو مذاقه فالشوق الذي تلتهب به أبياته بل عباراته وكلماته شوق لافح إلى الأكمل والأمثل والأفضل، وبحسبنا هذا من الشاعر العباسي علي بن المقرب.

---

(٣٨) انظر الأدب وفنونه ص ١٥٥ ـ ١٥٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خـــاتمـــة

قمت بهذه الدراسة في نطاق عنوانها، وبدأتها بابن المقرب، لأنه صاحب التجربة الشعرية التي نحن بصددها، ومن تمام معرفتها أن نعرف صاحبها، وقد تكلمت عن شخصه وشخصيته، وعما كان بينه وبين أسرته من علاقات حسنة في أول عمره، وسيئة في وسطه، وبين بين في نهايته، واقتضانى ذلك التعريف بمؤسس الدولة العيونية عبدالله بن علي وبأبنائه الأكبر الفضل، والأوسط عليّ، والأصغر ضبار، وبأولادهم وأحفادهم، وبخاصة من حكم منهم، سواء كانوا من آل الفضل وهم كثرة، أو من آل عليّ وهم قلة، أما ضبار، فقد أوضحت أن حظه وحظ أولاده وأحفاده من الحكم كان ضئيلا لا يكاد يذكر.

كما اقتضانى الوقوف عند صداقة ابن المقرب للأمير محمد بن أبي الحسين أحمد، وعند إخلاصه لابنه الفضل.

لقد كان لابن المقرب هوى في آل الفضل بعامة، وفي هذين الرجلين بخاصة فأشاد بهم، وبالغ في مدحهم، وأحفظ ذلك الحكام من آل عليٍّ فصادروه وسجنوه، وبعد لأى أطلقوا سراحه، لكنهم لم يردوا إليه ثروته، قصداً إلى إفقاره وإذ لا له، وشغله بتحصيل قوته وقوت عياله عن مدح آل الفضل.

ثم كان له طموحه السياسى فخشيه آل الفضل وآل عليٍّ، واتفقت كلمتهم على إحباطه مما اضطره إلى إدمان الرحلة، تنفيسا عن نفسه، وسعيا وراء رزقه، وتطلعا إلى مكانة تليق به في حضرة الخليفة العباسى،

أو في حضرة أحد أمرائه، ومن هنا كان ارتحاله إلى العراق، وتنقله فيه بين بغداد والبصرة والموصل، وقد رصدت هذه الرحلات، مبيناً دوافع كل رحلة وتاريخها وظروفها، ومن لقيهم فيها، وما قاله فيهم من شعر.

***

وفرغت من ابن المقرب فأخذت في الكلام عن تجربته الشعرية، وجعلت مدخلي إليها شرحاً لها على إطلاقها بتوضيح بنيتها العضوية، وخصائصها الفنية، ثم رصدتها عنده ثلاث مرات في ثلاث قصائد، أوردتها كاملة، وحللتها تحليلاً يكشف عن مكونات التجربة الشعرية فيها، ويخرج بها من حيزها الضيق في هذه القصائد إلى محيطها الواسع في شعره كله، وقد جاء تحليلي لها نموذجاً للدراسة النقدية تفسيراً وتنظيراً.

***

وحين انتقلت من التجربة الشعرية نفسها إلى مضمونها وجدتني أمام حشد من الأغراض الأصلية والفرعية، فسجلته وصنفته منحازاً ببعضه إلى كله فيما يشبه الإحصاء والاستقراء.

ونضرب مثلاً لذلك بالمدح، فقد عالجته في أربع وثلاثين قصيدة بحرانية.

وبتقريظ ابن المقرب لشعره، فقد تتبعته في أربع وعشرين قصيدة بحرانية وعراقية.

وبموقفه من وطنه وهو فيه، ثم وهو خارجه، فقد حصرت شعره في الموقفين، ورددته إلى أسبابه من نفسية ابن المقرب، أو من ظروفه المحيطة به.

ولم أقصر اهتمامي على ما أكثر منه ابن المقرب، بل اهتممت بكل ما قاله ولو كان قليلاً، ناهيك بالفخر والحماسة والشكوى، وبالغزل

والرثاء والهجاء، وبالوصف والنصح والحكمة، فما جاء في أيٍّ من هذه الموضوعات يمكن أن يكون دراسة مستقلة.

⁂

ولما كنت قد أفضت في كثير من الدقائق الفنية وأنا أتكلم عن التجربة الشعرية في الفصل الثاني، وعن مضمونها في الفصل الثالث، فقد اقتصرت في الفصل الرابع ـ وموضوعه البناء الفني لقصيدة ابن المقرب ـ على شرح وحدات القصيدة في النقد الأدبي، وعند ابن المقرب، وعلى تتبع الوحدة العضوية في النقدين العربي والغربي، وعند ابن المقرب، وجاء هذا الفصل ـ لذلك ـ مزيجاً من الدراستين النظرية والتطبيقية.

⁂

واذا كنت لا أزعم أني وفيت هذه الدراسة حقها، فإنني أؤكد أني بذلت فيها قدراً هائلاً من الطاقة وقوة التحمل، ومازلت بها حتى استوت على سوقها.

وأنا أهديها إلى طلابي وزملائي في جامعة الملك سعود بالرياض، راجياً أن تكون مدخلا إلى دراسات أخرى في موضوعها، ينهض بها من يكون أقدر مني على تحمل أعبائها، ومن حقي ذلك بعد أن لم أترك قصيدة في ديوان ابن المقرب إلا وقفت عندها، واستبطنتها، واستدركت على نفسي فيها ما كنت قد غفلت عنه أو نسيته في غيرها.

ثم من حق ابن المقرب ذلك، فنياً، وبعد ما لمسناه فيه من التزامه بقضايا قومه، وأخذه نفسه بالدفاع عنها، وإحقاق ما رآه حقا منها.

ويتأكد هذا الحق علينا إذا سلمنا بالنظرية القائلة: إن الشعر لا يزدهر مع ازدهار الحضارات، وإنما مع انهيارها.

وهي نظرية جديدة طرحها الروائى الفرنسى المعاصر Robert Sabateh (روبير ساباتيه)، فمن رأيه أن الأهمية العظمى للشاعر تكون أوضح ما تكون في مراحل التدهور، إذ تقع على عاتقه مهمة إنقاذ البشرية من الانهيار، وإعادتها مرة أخرى إلى الازدهار، وهو يفعل ذلك من خلال شعره الذي يرفع فيه وبه علم الثورة على الأوضاع الخاطئة[1].

ولقد كان هذا بالضبط هو الشغل الشاغل للشاعر علي بن المقرب، ولو اطلع روبير على ديوانه لمثل لما قاله به، ولكان محقا في تمثيله، وعلى من يشك في ذلك أن يقرأ ديوان ابن المقرب، والله الموفق.

د. عبده عبدالعزيز قلقيله

---

(١) روبير ساباتيه كاتب فرنسى ولد سنة ١٩٢٣ له كتاب عن تاريخ الشعر الفرنسى في القرن العشرين، وانظر الصفحة الأخيرة من صحيفة الرياض العدد ٤٧٨٧ بتاريخ الاثنين ١٤٠١/٥/١٧هـ ١٩٨١/٣/٢٣م وص ٥١ وما بعدها من مجلة الفيصل العدد ٥٨ ربيع الأول ١٤٠٢ فبراير ١٩٨٢ السنة الخامسة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصـــادر والمراجـــع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصـــادر والمراجـــع

١ ـ ابن المقـرب: حياتـه وشعره. عمـران محمد العمـران. مـطابـع الرياض ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨م
٢ ـ أخبـار أبي تمام. تـأليف أبو بكـر محمـد بن يحيى الصـولى وتحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبده سـلام ونظير الإسـلام الهندى. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧م.
٣ ـ الأدب وفنونه. د. عز الدين إسماعيل الـطبعة السـادسة ١٩٧٦ القاهرة.
٤ ـ أسـاس البلاغـة تأليف جـار الله الزمخشرى وتحقيق عبـد الرحيم محمود ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣م
٥ ـ أسس النقـد الأدبي د. أحمـد أحمـد بـدوي. الـطبعـة الثـالثـة ١٩٦٤م.
٦ ـ أصول النقد الأدبي. أحمد الشايب طبعة الاسكندرية ١٩٤٠م.
٧ ـ أعيـان الشيعة. محسن العينى طبعـة سنة ١٩٦٣ دون ذكـر مكان الطبعة.
٨ ـ الإيضاح للإمام الخطيب القـزوينى. تحقيق د. محمد عبـد المنعم جفاجى الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.
٩ ـ البيان والتبيين للجاحظ طبعة القاهرة سنة ١٣٦٧هـ.
١٠ ـ تـاريـخ الأدب العـربي (عصر الـدول والإمـارات . . . .) د. شوقي ضيف. الطبعة الأولى دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٠م.
١١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى. طبعة دار الثقافة ـ بيروت . د . ت .

١٢ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية تأليف بروكلمان وترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى . بيروت سنة ١٩٤٨م .
١٣ ـ تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصرى تحقيق د . حفنى شرف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م .
١٤ ـ تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء . محمد عبد القادر الأنصاري الأحسائى ـ القسم الأول . طبعة الرياض ١٩٦٠م .
١٥ ـ التكملة لوفيات الصلة تأليف الحافظ المنذرى زكي الدين عبد العظم طبعة مكتبة عيسى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٩٦هـ .
١٦ ـ التمثيل والمحاضرة للثعالبي طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م .
١٧ ـ ثبوت الحجة على الموصلى والحلى وهو المعروف خطأ باسم (خزانة الأدب وغاية الأرب) لابن حجة الحموى . طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ .
١٨ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي . طبعة مصر سنة ١٣٢٦هـ .
١٩ ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور تأليف ضياء الدين بن الأثير وتحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعيد . طبعة المجلس العلمى العراقي ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م .
٢٠ ـ جغرافية شبه جزيرة العرب . عمر رضا كحالة . طبعة دمشق ١٩٤٤م .
٢١ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى تحقيق عبد السلام هارون دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٢م .
٢٢ ـ جواهر الألفاظ . لقدامة بن جعفر . طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ ١٩٣٢م .
٢٣ ـ حدائق السحر في دقائق الشعر تأليف رشيد الدين الوطواط

بالفارسية وترجمة إبراهيم الشواربي. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ القاهرة.
٢٤ ـ الخصائص لابن جنى طبعة مطبعة الهلال بالقاهرة ١٣٢١هـ ١٩١٣م.
٢٥ ـ ديوان ابن المقرب تحقيق محمد عبد الفتاح الحلو الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م نشر مكتبة التعاون الثقافي بالأحساء المملكة العربية السعودية.
٢٦ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبرى الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م طبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر.
٢٧ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠هـ ١٩٣٢م.
٢٨ ـ شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر تأليف عبد الفتاح الحلو الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م القاهرة.
٢٩ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة. مطبعة الفتوح الأدبية ١٢٣٢هـ.
٣٠ ـ شعر علي بن المقرب العيوني تأليف أحمد موسى عيسى الخطيب رسالة ماجستير ـ كلية الأداب جامعة القاهرة.
٣١ ـ صحيفة الرياض العدد ٤٧٨٧ بتاريخ ١٧/ ١٥/ ١٤٠١هـ الموافق ٢٣/ ٣/ ١٩٨١م.
٣٢ ـ صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذانى طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٣م.
٣٣ ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجار. يحيى بن حمزة العلوى طبعة دار الكتب الخديوية سنة ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.
٣٤ ـ علي بن المقرب العيوني: حياته وشعره د. علي الخضيري رسالة دكتوراه ـ كلية اللغة العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٣٥ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني. الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.
٣٦ ـ عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د. طه الحاجري، د. محمد زغلول سلام القاهرة ١٩٥٦م.
٣٧ ـ فنون الأدب هـ. ب. تشارلتن ترجمة د. زكي نجيب محمود طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥م.
٣٨ ـ في الأدب الفرنسي المعاصر للدكتورة سامية أحمد أسعد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.
٣٩ ـ في حياتنا العقلية للدكتور زكي نجيب محمود طبعة دار الشروق ببيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٤٠ ـ الفيصل العدد ٣٣ ربيع الأول ١٤٠٠ هـ فبراير ١٩٨٠م ـ والرياض، العدد ٥٨ ربيع الثاني ١٤٠٢هـ فبراير ١٩٨٢م.
٤١ ـ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د. محمد زكي العشماوي طبعة دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م.
٤٢ ـ قلائد الجمان في شعراء الزمان تأليف كمال الدين أبو البركات المبارك بن أبي بكر بن حمدان المعروف بابن الشعار الموصلي (مخطوط) رقم ٣٣٩ تاريخ بمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية بالقاهرة.
٤٣ ـ الكامل في التاريخ تأليف عز الدين بن الأثير طبعة بولاق ١٢٧٤هـ.
٤٤ ـ لسان العرب لابن منظور طبعة بيروت سنة ١٩٥٥م.
٤٥ ـ المجمل في فلسفة الفن تأليف بندتوكروتشه وترجمة سامي الدروبي ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م.
٤٦ ـ مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود بالرياض المجلد السادس سنة ١٩٧٩م.
٤٧ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد ٣٨.

٤٨ ـ مجلة المكتبة العدد ٤١ السنة الخامسة بغداد ١٩٦٤م.
٤٩ ـ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان ابن جنى الطبعة الأولى القاهرة ١٣٨٦هـ.
٥٠ ـ المدخل إلى النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢م.
٥١ ـ المدخل في علم العروض د. مصطفى السنجرجي. طبعة مكتبة الشباب بالقاهرة سنة ١٩٧٤م.
٥٢ ـ المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا تأليف فيليب فان تيغيم وترجمة فريد انطونيوس ـ الطبعة الثانية. منشورات عويدات بيروت ـ باريس سنة ١٩٨٠م.
٥٣ ـ المستدرك تأليف محمد بن عبد الغني المشهور بابن نقطة البغدادي الحنبلي مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٢٩ (أدب).
٥٤ ـ معجم البلدان. ياقوت الحموى مصر سنة ١٩٠٦م.
٥٥ ـ مع الشعراء مختارات ومطالعات. حمد الجاسر. طبعة دار اليمامة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
٥٦ ـ المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري د. زكي نجيب محمود ـ طبعة دار الشروق بيروت ١٩٧٨م.
٥٧ ـ مقالات في التربية واللغة والبلاغة والنقد. د. عبده عبد العزيز قلقيله مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤ القاهرة.
٥٨ ـ مقدمة ابن خلدون طبعةد. وافي القاهرة ١٩٦٧م.
٥٩ ـ ملوك العرب. أمين الريحاني. بيروت ١٩٥١.
٦٠ ـ مناهج البحث العلمى. د. عبد الرحمن بدوي. طبعة دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٨م.
٦١ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء تأليف حازم القرطاجنى وتحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة. تونس ١٩٦٦م.
٦٢ ـ موسيقى الشعر. د. إبراهيم أنيس طبعة القاهرة ١٩٥٢م.

٦٣ - النقد الأدبي في العصر المملوكي . د . عبده عبد العزيز قلقيله . الأنجلو المصرية ١٩٧٢م .
٦٤ - نقد الشعر تأليف قدامة بن جعفر . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢هـ .

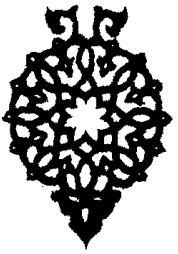

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كتب للمؤلف

١ ـ النقد الأدبي في العصر المملوكي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢.

٢ ـ القاضي الجرجاني والنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط (١) ١٩٧٣.

«القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز» ١٩٧٤م.
«النقد الأدبي عند القاضي الجرجاني» ١٩٧٦ م.
} الأنجلو المصرية ط (٢)

٣ ـ النقد الأدبي في المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣.

٤ ـ مقالات في التربية واللغة والبلاغة والنقد، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤.

٥ ـ نقد النقد في التراث العربي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥.

٦ ـ لغويات، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧.

٧ ـ خط سير الأدب العربي، الأنجلو المصرية ١٩٧٧.

٨ ـ من التراث الأدبي للمغرب العربي،
مكتبة عالم الكتب بالقاهرة ط ـ (١) ١٩٧٩.
دار أمية للنشر بالرياض ط ـ (٢) ١٩٨٥.

٩ ـ دراسات في النقد الأدبي والبلاغة،
دار العلوم ـ الرياض ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١٠ ـ أبيات المعاني في شعر المتنبي،
الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١١ ـ البلاط الأدبي للمعز بن باديس،
عمادة شؤن المكتبات جامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٢ ـ المقنع في أن « هدى كامل المبرد » ليس « الممتع »،
دار الرياض للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
١٣ ـ البلاغه الاصطلاحيه، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٤ ـ من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم (تحت الطبع).

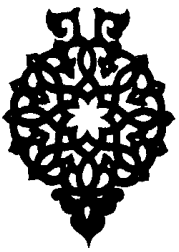

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم عبد الله بن ادريس	٧
المقدمة	١١
الفصل الأول: ابن المقرب سيرة حياة	١٣ ـ ٦٤
اسمه ولقبه وكنيته	
ولادته ووفاته زمانا ومكانا	
بين ابن المقرب وأسرته	١٣ ـ ٤٢
عبدالله بن علي مؤسس الدولة العيونية	
أولاده الفضل وعلى وضبار	
الحكام العيونيون من آل الفضل	
الحكام العيونيون من آل علىّ	
ضبار وحظ بنيه من الحكم	
الشاعر وآل الفضل	
الشاعر وآل أبي المنصور علي	
ابن المقرب خارج وطنه	٤٣
ـ توطئة	
رحلته الأولى إلى العراق وشعره فيها	٤٧
رحلته الثانية إلى العراق وشعره فيها	٥٢
رحلته الثالثة إلى العراق وشعره فيها	٥٣
رحلته الرابعة إلى العراق وشعره فيها	٥٨
رحلته الخامسة إلى العراق وشعره فيها	٦١

الفصل الثاني: تجربته الشعرية ..... ٦٥ ـ ١٨٢
مدخل: ٦٧
البنية العضوية للتجربة الشعرية
الخصائص الفنية للتجربة الشعرية
التجربة الشعرية عند ابن المقرب ٧٣
قصائد ديوان ابن المقرب بين معنونة، وشبه معنونة، وغير معنونة ٨٠
دراسة تفسيرية تنظيرية لثلاث قصائد من شعره:
القصيدة الأولى: نص القصيدة .....
خواطر الشاعر ٨٤
السطوح والأعماق ٨٧
الخيال ٩٣
مع بندته كروتشه
طبيعة الصورة الشعرية
الصورة الحسية
الصورة المعنوية
الصورة الحسية المعنوية
الموسيقى ١٠٥
ابن المقرب والأوزان الشعرية
ابن المقرب والقافية
دفاعان عن ابن المقرب
موسيقى القصيدة
القصيدة الثانية: نص القصيدة ١٢٣
القصيدة ومحاورها ١٢٧
(الورق الهواتف ـ الشاعر ـ زوج الشاعر ـ مهجوه حاكم الدولة العيونية ـ دهره ـ الشامتون بالشاعر)
التحليل ١٣١

الشاعر والحمائم
الشاعر وزوجه ١٣٧
الشاعر والحاكم ١٤٣
الشاعر ودهره ١٤٧
الشاعر والشامتون به ١٤٩
موسيقى القصيدة ١٥١
القصيدة الثالثة: نص القصيدة ١٥٥
موضوع القصيدة ١٦١
الشاعر ولائمه ١٦٢
ضيقه بقومه ١٦٧
عزمه على مفارقة وطنه ١٦٩
المدح ١٧٠
الموسيقى ١٧٩
تعقيب ١٨٠

الفصل الثالث: مضمون تجربته الشعرية ..... ١٨٣ - ٣١٠
قصيدة المدح ١٨٧
مع القصائد: ٢١٩
٤، ٧، ٨، ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٩،
٣٠، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢،
٥٣، ٥٥، ٥٧، ٦٠، ٦٢، ٧١، ٧٤، ٧٩، ٨١،
٨٢، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٤.
ملاحظات على المدح .....
تقريظ ابن المقرب لشعره ٢٢٢
الحماسة والفخر والهجاء الجماعي والشكوى والعتاب ٢٢٩
والنصح في القصائد: .....
٥، ٦، ١٠، ١٩، ٢١، ٢٥، ٣٧، ٣٩، ٤١،

٤٢، ٤٨، ٥٤، ٥٦، ٦٨، ٧٠، ٨٠، ٩١،
٩٣، ٩٤.
الغزل ٢٥٥
الرثاء ٢٦٧
الهجاء ٢٧٧
الوطن ٢٨٥
الوصف ٢٩١
الحكمة ٢٩٥
غرض فذ (عليك الهدية) ٣٠٧
تعقيب ٣٠٨
الفصل الرابع: البناء الفني لقصيدة ابن المقرب ..... ٣١١ ـ ٣٥٢
وحدات القصيدة: ٣١٣
في النقد الأدبي
عند ابن المقرب
الوحدة العضويه: ٣٣٥
في النقدين العربي والغربي
عند ابن المقرب
خاتمة ٣٥٣
المصادر والمراجع ٣٥٧
كتب للمؤلف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

● صف وتنفيذ وإخراج مركز الحرف - الرياض ت: ٤٧٦٣١٣٥ ●

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطابع الوطنية الحديثة بالرياض
تلفون ٤٠٢٠٦٨٣ ـ ٤٠٢٢٩٤٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطابع الوطنية الحديثة بالرياض
تلفون: ٤٠٤٠٦٨٣ - ٤٠٤٢٩٤٩

• تصميم الغلاف مركز الحرف الرياض ـ تلفون: ٤٧٦٣١٣٥ •